بلال فضل

حتى مطلع الفجر



شهادتي على مصر

قُبيل إسقاط نظام مبارك

الجزء الثاني

٢٠١٠-٢٠١١

حتى مطلع الفجر

صدرت هذه الطبعة الأولى في قطر عام ٢٠١١
عن دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي ٩٧٨-٩٩٩٢١-٩٤-١٢-٦

بلال فضل

حتى مطلع الفجر

شهادتي على مصر قُبيل إسقاط نظام مبارك

(٢٠١٠-٢٠١١)

إلى مصر..
التي ضحكت أخيرًا
وستضحك كثيرًا
بإذن الله
وإرادة الشعب.

المحتويات

الشعب - مازال - أجدع من أي مُقدمة!

تعودت على ألا أكتب مُقدمات لكتبي، وأن أكتفي باختيار مقطوعة شعرية أعشقها لكي أضعها في بداية الكتاب تحت عنوان ثابت «أجدع من أي مُقدمة»، إذا كنت قد تورَّطتَ في شراء كتاب سابق لي فأنت تعرف ذلك بالفعل، أما إذا كانت هذه ورطتك الأولى معي، فلا تبحث عن مقطوعة شعرية لأنك لن تجدها إلا داخل هذه السطور.

دعني أقل لك أولًا إن كثيرًا من فصول هذا الكتاب كان من المُفترض أن تَصدر في نهاية عام ٢٠١٠ ضمن كتاب يحمل اسمًا كئيبًا قاتمًا هو «أمسَتْ يبابًا.. مصر بعد ثلاثين عامًا من حكم مبارك». عندما نشرت قبل عامين فصلًا من الكتاب في صحيفة «المصري اليوم» ظن بعض الأصدقاء أن عنوان الكتاب مُقتبسٌ من قصيدة «الأرض اليباب» الشهيرة للشاعر العالمي «تي. إس. إليوت»، والتي كنت دائمًا أحرص على الاستشهاد بها في بعض جلساتي مع أصدقائي على أساس أنني قرأتها في لغتها الأصلية، مع أنني لم أقرأها حتى مُترجمة، لكنَّ العنوان كان مقتبسًا من قصيدةٍ لأمير الشعراء أحمد شوقي لا زلتُ أحفظها من أيام المدرسة، أظن أن عنوانها كان «تحية للعمال» أو حاجة من هذا القبيل. وكان أحمد شوقي يقول فيها:

أيُّها العُمَّال افنوا الـ عُمْرَ كـدًّا واكتسابا
واعْمُروا الأرض فلولا سَعيُكُم أمستْ يَبابا

كانت كلمة «يبابا» مثيرة لسخريتنا في تلك السن المبكرة، لكن الغريب أنها ظلت عند نشري لعنوان الكتاب مثيرة للسخرية والدهشة؛ بعض القُراء أرسل يسأل مُعلِّقًا على العنوان: «هل الكتاب كله عن توريث الحكم على أساس يا بابا مبارك وكده يعني؟».

وأنا رددت عليه أن الكتاب به فصول عن التوريث، لكن «يبابا» غير يا بابا خالص، وإن كان توريث بابا لكرسي الحكم سيؤدي بمصر إلى أن تمسي «يبابا» في نهاية المطاف.

لم أجد لذلك العنوان الكئيب مُقدمةً تلائم كآبته أنسب من قطعة شعرية حزينة يائسة كتبها الأشعر عبد الرحمن الأبنودي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثوانا ومثواه في ملحمته الشعرية البديعة «الجزر والمد» يقول فيها:

«آهين يا رفاقة

لو كنت أعرف أرجَّع البَكَرة

واجيب بُكره

أرْسي في مواني الحلم من غير علم

من غير عذاب ولا تضحيات

ولا سجون ولا دم

واشوف نهاية الفيلم

الفيلم تافه.. سخيف

بطله المِفتَّح كفيف

شريفه هو المُطارد

ولِصُّه هو الشريف

ياما بَلِيدة يا خطوة التواريخ

فقيرة الصورة

وباهظةِ التكاليف

تتعسني فكرة اني حاموت

قبل ما اشوف لو حتى دقيقة

رجوع الدم لكل حقيقة

وموت الموت!!

قبل ما تصحى

كل الكتب اللي قريت

والمدن اللي ف أحلامي رأيت

والأحلام اللي بنيت

والشُّهدا اللي هويت

والجيل اللي هداني

والجيل اللي هديت

قبل ما املِّس ع الآتي

وادْفِن كل بشاعة الماضي في بيت

حاقولها بالمكشوف

خايف اموت من غير ما اشوف

تغيُّر الظروف

تغيُّر الوشوش

وتغيُّر الصنوف

والمحدوفين ورا

متبسِّمين في أول الصفوف

خايف اموت وتموت معايا الفكرة

لا ينتصر كل اللي حبيته

ولا يتهزم كل اللي كنت اكره

اتخيلوا الحسرة

اتخيلوا الحسرة

اتخيلوا الحسرة»

ثم جاءت ثورة أحرار المصريين، التي اندلعت شرارتها في الخامس والعشرين من يناير وما زالت جذوتها مشتعلة، وأظنها ستظل كذلك حتى يصبح ظاهر مصر أحب إلى المصريين من باطنها، فأطاحت بوشوش نظام مبارك وظروفه وصنوفه، وأطاحت أيضًا بعنوان الكتاب ومُقدِّمته، لكن مَتْنه كما أظن ما زال قابلًا للبقاء؛ كشهادة من كاتب مصري على آخر سنتين من سنوات عُمر نظام مبارك العجاف، حاول فيهما ألا يكون ظهيرًا للمُجرمين، مشاركًا بقدر طاقته وجهده في إنكار المُنكر، في ظل ظروف نَشرٍ شديدة الصعوبة والكآبة.

كنتُ قد حاولت في تجربة سابقة من خلال كتاب «قلمين» أن أنشر ما يمكن وصفه بـ«تأريخ ساخر لمصر في عهد مبارك في السنوات من عام ٢٠٠٥ وحتى عام ٢٠٠٨»؛ حيث قمت بتجميع الفقرات الساخرة التي كنت أكتبها تعليقًا على الأحداث السياسية والاجتماعية في تلك السنوات، وقد واصلت فعل ذلك بشكل أو بآخر من خلال كتابي: «السكان الأصليين لمصر» و«ضحك مجروح»، اللذين جمعت فيهما العديد من مقالاتي السياسية الساخرة خلال الفترة من عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠١٠. واليوم أواصل توثيق شهادتي على مصر خلال العامين الأخيرين من عهد مبارك، جامعًا أبرز وأهم المقالات التي نشرتها في عمودي اليومي «اصطباحة»، الذي كان يُنشر في الصفحة الأخيرة من صحيفة «المصري اليوم» واسعة الانتشار، بدءًا من أول مقالة نشرتها في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ٢٠٠٨ وصولًا إلى آخر مقالة كتبتها في ذلك العمود عقب خلع مبارك من كرسي الرئاسة يوم الرابع عشر من فبراير ٢٠١١، عندما ظننت بتسرع المنتشي بالانتصار أن مهمتي في الكتابة السياسية قد انتهت، قبل أن أعدل عن ذلك وأعود إليها من جديد حتى يقر الله عيني باكتمال ثورتنا بتداول السلطة السلمي لأول مرة في تاريخ مصر.

ستجد في نهاية كل مقالة تاريخ نشرها لكي يشكل ذلك عنصرًا مساعدًا لك إذا كنت ترغب في التعرف على تاريخ تلك الفترة العصيبة من حياة مصر. كنت قد فكرت في وضع هامش أسفل كل مقال يروي ما أثاره من ردود فعل أو تعليقات، أو حتى يشير إلى بعض المفاوضات التي جرت مع إدارة تحرير الصحيفة لحذف بعض كلماته أو سطوره،

خصوصًا أن كثيرًا من هذه المقالات أثار جدلًا حادًّا في الأوساط السياسية والشعبية، وكان مصدر إزعاج لنظام مبارك ولإدارة تحرير الصحيفة نفسها، في ظل مناخ نشرٍ كان يتأزَّم يومًا بعد يوم، حتى وصل التأزُّم إلى ذروته في العام الأخير من حكم مبارك الذي شهد اغتيال تجربة صحيفة «الدستور»، والتضييق على برامج «التوك شو»، وممارسة ضغوط عنيفة على الصُّحف ومحطات التلفزيون. لكنني ظننت أن الإسهاب في سرد ذلك كله غير مناسب، وأن تلك الوقائع يمكن أن تصلح موضوعًا لكتاب مستقل أروي فيه شهادتي على كواليس تلك الأيام سواء ما كان يخصني منها أو ما يخص غيري.

كانت المُقدمة القديمة التي أطاحت بها الثورة مقتطعة من قصيدة للخال الأبنودي، كتبها قبل اندلاع الثورة بثلاثين عامًا، بالتحديد في عام ١٩٨١، عندما كان يحكم مصر وقتها «حاكم صدفة» اسمه أنور السادات؛ لقي حتفه بعد نشر القصيدة بأشهر، ليحكم مصر بعدها «حاكم صدفة آخر» اسمه حسني مبارك، لم يتعلم من قتل سلفه أمامه سوى درس وحيد؛ هو أن يظل على كرسي السلطة «حتى آخر نَفَس» وأيًّا كان الثمن. تلك القصيدة التي اختار لها الأبنودي وقت نشرها اسم «الجزر والمد»، كتبها مستلهمًا أحداث انتفاضة ٢١ فبراير العظيمة التي فجرها المصريون في عام ١٩٤٦ ضد «الظلم والخيانة والقيادات الجبانة نداغة الإهانة كريهة الريحة كريهة الصوت والبرلمانات الموت»، تلك الانتفاضة العظيمة التي فجرها الطلبة والعمال ثم تفاعل معها الشعب المصري كله ليزحف إلى ميدان التحرير الذي كان وقتها يحمل اسم ميدان الإسماعيلية، ليسقط فيه وفي كل أنحاء مصر عشرات الشهداء وآلاف الجرحى في حدث هزَّ العالم كله وقتها وأصبح يومًا عالميًّا للشباب، قبل أن يتم تغييبه وإسقاطه عمدًا من ذاكرة المصريين؛ لكي ينسوا أنهم شعب ذو باع طويل في التمرد والثورة والغضب.

كان الأبنودي في ملحمته الشعرية الخالدة يستدعي مشهد المد المصري العظيم في عهد الجزر الانفتاحي التطبيعي الكريه، لكنه كان يبدو يائسًا من أن يجيء اليوم الذي يرى فيه «تغير الظروف والوشوش والصنوف». ولم يكن يعلم أن الله سيكون رحيمًا به وبمصر، وأنه سيُنجيه ويُنجينا من الحسرة التي ظن أنها قدره وقدر مصر، وأنه سيعيش اليوم الذي يرى فيه معنا «المحدوفين ورا متبسِّمين في أول الصفوف»، وأنه سيرى تحقق نبوءته التي بشرت بها نهاية القصيدة، في نفس الميدان الذي أصبح رمزًا خالدًا لتحرير وطن بأكمله من اليأس والحسرة وجميع أصناف المحتلين المحليين والأجانب.

عندما قرر الخال الأبنودي أن يعيد نشر قصيدته بعد أسابيع من تحقيق الثورة لأول أهدافها بإطاحة مبارك، شرفني وطلب مني أن أكتب مقدمة لقصيدته العظيمة، ويومها كتبت:

«قطعًا ستندهش وأنت تقرأ هذه القصيدة لأنك ستشعر أنها كتبت في التوّ واللحظة وليس منذ ثلاثين سنة، لكن الأهم أن تحرص بكل ما في وسعك وطاقتك وجهدك ووعيك على ألا تظل هذه القصيدة صالحة للإدهاش من الآن فصاعدًا؛ لكي يقول من يقرأها بعد ثلاث سنوات وليس بعد ثلاثين سنة: يا الله!! كيف تحمَّل الخال الأبنودي والأجيال التي تلته أن يعيشوا في ظل عصر يدوم ثلاثين سنة دون أن يتغير. ليس ذلك حلمًا عصي المنال، ولكي نحققه نريد أن نتحدى مؤامرات الثورة المضادة.. نريد أن نتحدى المصالح الرخيصة.. نريد أن نتحدى حتى قوانين الطبيعة.. نريده «مَدًّا لا جَزْرَ بَعده» لكي تحيا مصر إلى الأبد».

ولأن البني آدم منا طماع ولو عرض عليه واديان من الديمقراطية لتمنى ثالثهما، فإن غاية ما أرجوه لكتابي هذا أن يقرأه المصريون بعد عام واحد من تاريخ كتابة هذه السطور في ظل رئيس مُنتخب وحكومة منتخبة، ليضربوا كفًّا بكف ويقولوا لأنفسهم: «يا الله! كيف تحمَّلت مصر أن تعيش هراءً مثل هذا.. هل سيصدق الذين سيأتون بعد عشر سنوات أن مصر تحملت كل هذا.. يبدو أن مؤلف هذا الكتاب كان يبالغ، فلا يمكن أن يكون المصريون قد شهدوا ذُلًّا مثل هذا أبدًا».

إذا تحقق هذا الرجاء وانهالت عليَّ اللعنات تتهمني بالمبالغة والكذب والتضخيم والافتراء، سأكون في منتهى السعادة، سواء كنت حيًّا أتنعَّم بالحياة على ظاهر مصر، أو ميتًا أتنعَّم بالموت في باطنها.

تحيا مصر.

بلال فضل

القاهرة. لحسني مبارك ونظامه. يوليو ٢٠١١

الدستور الذي لا نريده أن يحكم مصر

يسألني صديق عائد من الخارج قائلًا: «شفت الدستور اللي منزلينه باسمك على شبكة الإنترنت ومسميينه دستور بلال فضل.. هوه انت اللي كاتبه ولا حد كاتبه ومنزِّله باسمك؟». كنا في نهار رمضان فلم أكن مستعدًّا لأن أخسر صيامي ردًّا على جلافة صياغته للسؤال، ولذلك قررت أن أرد عليه بشكل أفضل وأجدى؛ هو أن أعيد نشر ذلك الدستور الذي كتبت مواده المُتخيَّلة ونشرتها في صحيفة الدستور قبل أربعة أعوام. ليس فقط ليقرأه من لم يجد سبيلًا لقراءته مطبوعًا على الورق، بل لكي أحفظ حق ملكيتي الفكرية الذي تعرَّض للإهدار عندما قام الذين نقلوه إلى شبكة الإنترنت بإجراء اختصارات وتعديلات في متن ما كتبت رغبة في تريبح أيديهم من نقل سطوره كاملة من الصحيفة، وهم مشكورون على كل حال بسبب نواياهم الطيبة أولًا، وثانيًا لأنهم لم يضيفوا إلى ما كتبته شيئًا واكتفوا فقط باختصاره. هذا وأسأل الله أن تكون قراءتك لهذا الدستور وتأملك في مواده مساهمة مني في كل الدعوات الجادة والمحترمة للإصلاح الدستوري العاجل والحقيقي والذي أؤمن أن البلاد لن تتقدم خطوة إلى الإمام إلا بعد تحققه، ولعله يكون عاملًا حفَّازًا في إقناعك بالعمل من أجل المطالبة بذلك الإصلاح، ليس لأنه أهم من كل ما كُتب وقيل عن الإصلاح الدستوري، بل لأنها ربما تيجي على أهون سبب.

كتبت في مقدمة ذلك الدستور قائلًا: «لا تدعنا نكذب على بعض. لا أحتاج إلى معرفتك عن قرب لكي أدرك أنك لم تذهب للمشاركة في مسرحية الاستفتاء على التعديلات الدستورية؛ آخر عروض المسرح السياسي المزدهر بقوة في السنوات الثلاث الأخيرة - من يدري - من حكم الرئيس مبارك، والتي لم يعد فيها المسرح السياسي

مقصورًا على خشبات المسارح بقدر ما أصبح أسلوب حياة ومنهج حكم. ربما تكون قد ذهبت يومًا ما إلى الانتخابات البرلمانية مؤمنًا أن صوتك ربما يساهم في إنجاح شريف أو إسقاط فاسد، متحمِّلًا في سبيل ذلك كآبة المنظر وسوء المنقلب ووعثاء الأمن المركزي. وربما تكون قد ذهبت إلى الانتخابات الرئاسية الأولى والأخيرة على أساس أن صوتك لأي من مرشحي المعارضة يمكن أن يكيد العواذل ويحرج أنصار الرئيس الشاق المؤبد. لكن المؤكد أنك هذه المرة استنكفت وتعاليت على الاشتراك، ولو بجملة هامشية في مسرحية سياسية جاب التهريج فيها آخره، ليس فقط لأنك تعلم أن صوتك هذه المرة لن يُقدِّم ولن يُؤخِّر، وليس لأنك خفت أن تؤخذ على سبيل الغلط من أمام لجنة انتخابية لأنك نسيت أن تحلق ذقنك أو قلت لصديق لك من مدمني الرن على الموبايل كفاية بقه يا أخي، بل لأنك، ودعنا نجيب من الآخر، تعلم كمتفرج مسرح قديم ومتمرس أن الدستور الذي يزعمون استفتاءك على تحديثه هو تمامًا كالدستور الذي زعموا استفتاءك على تعديله قبل عامين هو تمامًا كالدستور الذي زعموا استفتاءك على وضعه قبل كذا وثلاثين عامًا، كلها دساتير لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالدستور الذي يحكم مصر بحق وحقيقي.

مع الأسى، الدستور الذي يحكم مصر بحق وحقيقي مواده غير مجموعة بين دفتي كتاب، ولا يُدرَّس في كلية الحقوق، ولا يرفعه المحامون في قاعات المحاكم، ومع ذلك فأنت تكتوي بناره كل يوم أنت وأبناؤك وأهلك والذين يتشددون لك، هذا إذا كنت واحدًا من السكان الأصليين لمصر. أما إذا كنت واحدًا من المنتفعين بها فهذا الدستور هو نفسه الذي يضمن لك مصالحك وسبابيبك ومستقبل أولادك ومنافع أهلك ومكاسب الذين يتشددون لك.

لذلك، ما رأيك أن نحاول ولو لمرة أن نخرج مواد هذا الدستور الذي يحكم مصر من المسكوت عنه إلى النور لنتأمل كيف أمست حياتنا يبابًا وهبابًا في ظله؟ ما رأيك أن نستفتي بعضنا عليه بما يرضي الله دون إعلانات مدفوعة الأجر، ودون ميكروفونات حزب وطني تنشر الكذب في جنبات البلاد، ودون نخبة سياسية متعفنة لا تفكر إلا في الجلوس الأبدي على كنبات الحكم؟ ربما إذا فعلنا سيتهمنا موالسوهم بعدم احترام دستور البلاد، عندها سنقول لهم ولأسيادهم بعلو الصوت: لا ترمونا بدائكم وتنسلوا، فمنذ متى كنتم تحترمون دستور البلاد وقد بعتم البلاد في ظل دستور اشتراكي يدعو للحفاظ

على القطاع العام؟! منذ متى كنتم تحترمونه وأنتم تمسخونه بعبارات شيطانية مثل: «في حدود القانون»، كانت كفيلة طيلة سنوات سلطتكم العِجاف بإفراغ كل مبادئه الجليلة من مضمونها، ثم فجأة وبين سلقة وضحاها قررتم، قال إيه، أن تُحدِّثوه بعد أن حدَّثتكم أنفسكم بسوء قائلة لكم: إن البلاد يمكن أن تعود فجأة لأصحابها ويحرم أشياعكم من لهط خيراتها التي جعلتكم تتطاولون في البنيان وتتمادون في الطغيان؟!

إن مصر تستحق دستورًا أفضل من تلك الدساتير التي تلعبون بها كيفما شئتم لتُقننوا أوضاعكم الخاطئة، وتُكرسوا سياساتكم الفاشلة، وتورثوا البلاد مقشَّرة لأنجالكم ومن شايعهم. وربما ولتكن هذه آخر ربما.. لو رفضنا مواد الدستور الجائر الذي فرضتموه على البلاد والعباد لأصبحت مصر، ولأول مرة، وطنًا لسكانها الأصليين.. وطنًا بحق وحقيقي».

انتهت المقدمة التي لا زالت للأسف صالحة للنشر كأنها كتبت غدًا، وأتركك الآن لمواد دستوري، ودستورك، ودستورنا كلنا:

مادة ١: جمهورية مصر العربية دولة نظامها ما تفهملوش: اشتراكي من بره، رأسمالي من جوه، ديمقراطي القشرة، ديكتاتوري اللب، غربي الشكل، شرقي السمات يقوم على تحالف القوى العاملة على الشعب.

مادة ٢: الإسلام دين الدولة، والإخوان المسلمون أعداؤها، واللغة العربية لغتها الرسمية التي يسقط أغلب تلاميذ الدولة في امتحاناتها، وشريعة الغاب المصدر الفعلي للتشريع.

مادة ٣: السيادة للرئيس وحده، وهو مصدر السلطات والقرارات والسياسات والحاجات، ويمارس هذه السيادة نيابة عن الشعب الذي فوضه بذلك قبل أن يفوض أمره لله.

مادة ٤: الأساس الاقتصادي للبلاد هو النظام اللي بالك فيه، والقائم على العدل بين كبار المستثمرين بما يؤدي إلى تقريب الفوارق بين دخولهم بما يكفل تحقيق الوحدة الوطنية بينهم.

مادة ٥: يقوم النظام السياسي للجمهورية على أساس تعدد الأحزاب التي ترفضها لجنة

الأحزاب سنويًا؛ بحيث لا يتم السماح لأي حزب سياسي يقدم رؤية مختلفة تجذب إليها المواطن المصري الذي سئم من النظام الحزبي القائم برمته. تكفل الدولة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين القياديين في الحزب الوطني.

مادة ٦: الأسر الحاكمة والثرية أساس المجتمع، قوامها تداول السلطة والنفوذ والبيزنس. وتحرص الدولة على الحفاظ على الطابع الأصيل لها ولمصالحها.

مادة ٧: العمل حق، وواجب، وشرف، لا تكفله الدولة، ويكون العاملون الممتازون على بقاء النظام الحاكم محل تقدير الدولة. أما المواطنون غير المسنودين فتكفل الدولة لهم العمل بمقابل غير عادل.

مادة ٨: الوظائف العامة حق مكفول لذوي الوسايط الذين تكفل الدولة حمايتهم وعدم فصلهم وعدم محاسبتهم بشكل حقيقي.

مادة ٩: تكفل الدولة الخدمات الثقافية والاجتماعية والصحية والكهربائية والمائية لمن يقدر على ثمنها، وتعمل بوجه خاص على توفيرها لقرى الساحل الشمالي والجونة والغردقة وشرم الشيخ في يسر وانتظام.

مادة ١٠: ترعى الدولة وقوف المواطنين في طوابير التأمين الاجتماعي والصحي، وتكفل معاشات العجز عن العمل والبطالة والشيخوخة للمواطنين جميعًا، لكنها لا تكفل لهم أن يستطيعوا العيش بهذه المعاشات أسبوعًا في الشهر.

مادة ١١: تكفل الدولة رعاية النشء والشباب، وتوفر لهم كل فرص البطالة والعنوسة والإحباط والعدمية واليأس.

مادة ١٢: تلتزم الدولة برعاية أخلاق السلبية، والطناش، والتواكل، والتدين المنقوص، والجهل المقنن، والتمكين للتقاليد الاجتماعية السلبية الأصيلة القاضية بأن اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش، وأن البلد بلدهم يعملوا ما بدا لهم، وخطي سنة ولا تعدي قناة، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، وعُكّ وربك يفُكّ.

مادة ١٣: التعليم حق تكفله الدولة، وهو إلزامي في المراحل الابتدائية. أما الدروس الخصوصية فهي إلزامية في جميع المراحل. وتعمل أجهزة الأمن على تأمين

المدارس والجامعات ومراكز البحث العلمي بما يحقق الربط بينها وبين الحزب الوطني ومصالحه، وبما يضمن قمع الأصوات المعارضة والحرة والتي لا تسير وفقًا للمقررات ولا تحرص على كتابة التقارير لأجهزة الأمن.

مادة ١٤ : التعليم في مؤسسات الدولة مجاني في مراحله المختلفة شريطة دفع الرسوم، وثمن الكتب والتُّخت وتزيين الفصل وهدايا المدرسين في المناسبات وهدايا المدرسات في عيد الأم، ولا تتدخل الدولة في أي اتفاقيات بين الطلبة والمدرسين حول الدروس الخصوصية.

مادة ١٥ : محو الأمل في التغيير السياسي واجب وطني، تُجند كل طاقات الدولة من أجل تحقيقه.

مادة ١٦ : يسيطر الشعب على كل أدوات الإنتاج بينما يسيطر الحاكم على الإنتاج نفسه.

مادة ١٧ : لكل مواطن نصيب من الناتج القومي إن فاض منه شيء.

مادة ١٨ : للعاملين نصيب في أرباح المشروعات الخاسرة، وليس لهم نصيب في عوائد بيع المشروعات الرابحة، والمحافظة على أدوات الإنتاج واجب وطني، دون أن يكون لأحد حق السؤال عن عوائد الإنتاج.

مادة ١٩ : تخضع الملكية لرقابة الشعب مع مراعاة أن يخضع الشعب لرقابة الدولة؛ لكي لا يقدر أو يجرؤ أساسًا على طلب حق الرقابة على الملكية.

مادة ٢٠ : الملكية العامة هي ملكية الشعب، والشعب وما يملكه ملك للحاكم الذي هو في مقام الأب عملًا بالمبدأ الشرعي «أنت ومالك لأبيك».

مادة ٢١ : للملكية العامة حُرمة، ولذلك لا يصح أن يسأل أحد عن أحوالها؛ لأن الحُرمة لها حُرمة.

مادة ٢٢ : الملكية الخاصة مصونة، ولا يجوز فرض الحراسة عليها إلا بمزاج الدولة، ولا تنزع إلا للمنفعة العامة التي تحددها الدولة ومع ذلك سنعتبرها ما زالت مصونة.

مادة ٢٣ : لا يعين القانون الحد الأقصى للملكية الزراعية، ولا يضمن حماية

الفلاح والمواطن العادي والعامل الزراعي من الاستغلال؛ لأن الضامن هو الله وحده.

مادة ٢٤: الادخار في بنوك سويسرا واجب تشجعه الدولة وإن كانت لا تنظمه.

مادة ٢٥: المواطنون لدى القانون، سواء كان هناك تطبيق للقانون أو تطنيش له، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو اللغة أو الدين أو العقيدة، بل التمييز بينهم بسبب الأصل والنفوذ فقط.

مادة ٢٦: الحرية الشخصية حق طبيعي وانتهاكها شيء طبيعي، وهي مصونة لا تمس ولكن تداس فقط، ولا يجوز القبض على أي أحد مسنود أو تفتيشه أو حبسه أو تقييد حريته أو منعه من التنقل.

مادة ٢٧: كل مواطن يُقبض عليه أو يُحبس أو تُقيد حريته يجب معاملته بحيث لا تظهر عليه آثار التعذيب. وكل مواطن يلقى حتفه في مراكز الشرطة هو بالضرورة مختل عقليًّا. وتكفل الدولة حماية خصوصية المواطن بحيث لا يتم تصويره في أثناء تعرضه للتعذيب. وفي حالة تصوير تعذيبه تكفل الدولة عدم تسرب الكليب الذي تم تصويره حرصًا على مشاعره.

مادة ٢٨: للمساكن حرمة؛ فلا يجوز دخولها ولا تفتيشها إلا بأمر قضائي، ويستثنى من ذلك مساكن المعارضين وغير المسنودين والذين لا ضهر لهم.

مادة ٢٩: لحياة المواطنين المسنودين الخاصة حُرمة يحميها القانون، والمراسلات البريدية والبرقية والمحادثات التليفونية وغيرها من وسائل الاتصال سريتها مكفولة لأصحابها وللضباط المكلفين بالتصنت عليها، واللي خايف ما يتكلمش.

مادة ٣٠: حرية الرأي مكفولة، وحرية الدولة في عدم الأخذ بأي رأي يعارضها مكفولة. ولكل إنسان التعبير عن رأيه والقيام بالنقد البَنَّاء، على أن تتولى الدولة تحديد نوعية ومواصفات البناء ويكفل لها القانون حق الهدم.

مادة ٣١: حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام مكفولة، وحرية حبس الصحفيين والكُتاب مكفولة أيضًا. وكله وفقًا للقانون.

مادة ٣٢: تكفل الدولة حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي للمواطنين، وتوفر وسائل التطفيش والتزهيق اللازمة لمنعهم من ذلك.

مادة ٣٣: لا يجوز أن تحظر على أي مواطن الإقامة في جهة معينة إلا إذا كان أحد من الكبار حاطط عينه عليها.

مادة ٣٤: لا يجوز إبعاد أي مواطن عن البلاد ويتم الاكتفاء بسجنه فقط.

مادة ٣٥: للمواطنين حق الهجرة الدائمة أو الموقوتة إلى الخارج، وتشجعهم سياسات الدولة على ذلك.

مادة ٣٦: تمنح الدولة حق اللجوء السياسي لكل أجنبي اضطهد بسبب الدفاع عن مصالح الشعوب أو حقوق الإنسان أو العدالة، لكنها لا تمنح نفس الحق لكل مواطن يُضطهد بسبب الدفاع عن نفس هذه الأشياء.

مادة ٣٧: للمواطنين حق الاجتماع الخاص في هدوء غير حاملين سلاحًا ولا رغبة في التغيير والإصلاح ودون حاجة إلى إخطار سابق، شريطة أن يكون هدف الاجتماع فرحًا أو خطوبة أو شبكة أو كَتب كِتاب أو طهورًا أو عزاءً، وينظم القانون إجراءات حضور كَتب الكِتاب وحفلات التخرج وأعياد الميلاد والزواج لضمان عدم استخدامها في أغراض سياسية. والاجتماعات العامة والمواكب والتجمعات مباحة في حدود القانون الذي يكفل للسلطة التنفيذية إذا أرادت رعاية من يشترك فيها داخل حدود السجن.

مادة ٣٨: إنشاء النقابات والاتحادات على أساس ديمقراطي حق يكفله القانون، وتفجيرها من الداخل وفرض الحراسة عليها واجب يكفله أمن الدولة.

مادة ٣٩: للمواطنين حق تكوين الجمعيات على الوجه المبيَّن في القانون وعلى الوجه الذي يُرضي الحاكم عنها.

مادة ٤٠: كل اعتداء على الحرية الشخصية أو حُرمة الحياة الخاصة جريمة لا تسقط بالتقادم، وتستحق التعويض العادل، شريطة أن تعمل أجهزة الأمن على استحالة إثبات وقائعها.

مادة ٤١: للمواطن حق الانتخاب والترشيح إذا استطاع الوصول إلى لجنة الانتخابات

سالمًا، وللحزب الوطني الحاكم حق حماية المواطن من نفسه والعمل على عدم ذهاب صوته لمن لا يستحقه.

مادة ٤٢ : سيادة القانون أساس الحكم في الدولة، وسيادة الرئيس هي الدولة نفسها.

مادة ٤٣ : استقلال القضاء وحصانته ضمانان أساسيان لحماية الحقوق والحريات، شريطة ألا يشترك رجال القضاء مع الشعب في الدفاع عن هذه الحقوق والحريات.

مادة ٤٤ : المتهم بريء حتى تثبت إدانته، والمتهم السياسي مدان حتى تثبت براءته.

مادة ٤٥ : التقاضي حق مصون ومكفول للناس كافة، وتختار الدولة للمواطن قاضيه الذي يمثل أمامه باعتبارها الأدرى بمصلحة الوطن ومصلحته.

مادة ٤٦ : يُبلَّغ كل من يُقبض عليه أو يُعتقل بأسباب القبض عليه إذا لم يكن قد فقد الوعي في أثناء اعتقاله، ويكون له حق الاتصال بمن يرى إبلاغه أو الاستعانة به إذا أراد الله له أن يرى أحدًا، ويجب إعلانه بالتهم الموجهة إليه إذا كانت لديه الجرأة أن يسأل عنها.

مادة ٤٧ : تصدر الأحكام باسم الشعب، لكنها تنفذ برغبة رئيس الدولة.

مادة ٤٨ : مدة الرئاسة يحكمها المبدأ القانوني «واحنا معاه إلى ما شاء الله».

مادة ٤٩ : رئيس الدولة يسهر إذا أراد على احترام الدستور وعلى تعديله وتحديثه، ويرعى كما يرغب الحدود بين السلطات التي يرأسها كلها.

مادة ٥٠ : يُنتخب رئيس الجمهورية عن طريق الاقتراع السري العام المباشر الذي لا يشرف عليه القضاء إشرافًا كاملًا، ويكفل الدستور ضمانات الانتخاب بحيث لا تخرج مطلقًا عمن يريد الحزب الوطني ترشيحه للمنصب. وتعمل أجهزة الدولة على ضمان عدم ظهور شخصية مستقلة تتمتع بحب الناس عبر إحكام القبضة على أحزاب المعارضة واستمرار تفكيكها من الداخل. وتضمن أجهزة الأمن عدم حدوث أي مفاجآت في يوم الانتخابات. وتضمن أجهزة الدولة، وعلى رأسها أجهزة الإعلام، شيوع حالة الإحباط والسلبية والتطنيش والخوف من التغيير. ويعلن انتخاب رئيس الجمهورية بحصول

المرشح على الأغلبية المطلقة لعدد الأصوات حتى لو لم يذهب إلى الانتخابات سوى أعضاء الحزب الوطني.

مادة ٥١: يحدد القانون مرتب رئيس الجمهورية ويقام الحد على من يسأل عن هذا المرتب.

مادة ٥٢: لا يجوز لرئيس الجمهورية في أثناء مدة رئاسته أن يشتري أو يستأجر شيئًا من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئًا من أمواله أو أن يقايضها عليه، ولا يجوز لأحد أن يسأل عن الجهة التي تراقب ذلك كله.

مادة ٥٣: إذا قدَّم رئيس الجمهورية استقالته من منصبه تكون القيامة قد قامت.

مادة ٥٤: يتولى مجلس الشعب سلطة التسريع بإصدار أي تشريع يطلبه الحزب الوطني، ويمارس الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية بما يكفل توفير مواد مناسبة وكافية لإذاعة تقرير مجلس الشعب الذي ينتجه قطاع الأخبار. وتضمن كل أجهزة الدولة أن تكون أغلبية أعضائه للحزب الوطني منعًا لإصدار أي قانون لا يتوافق مع مصالح الحزب الوطني أو أي قرار باتهام أو محاكمة رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء أو أي وزير أو نائب وزير.

مادة ٥٥: يختص المجلس بالفصل في صحة عضوية أعضائه بغض النظر عن تعارض هذه المادة مع استقلال القضاء وحصانته.

مادة ٥٦: لا يجوز لعضو مجلس الشعب في أثناء مدة عضويته أن يشتري أو يستأجر شيئًا من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئًا من أمواله أو أن يقايضها عليه، طالما ربنا مبارك له في إخواته وأقاربه الذين يفعلون ذلك بالنيابة عنه.

مادة ٥٧: ينتخب مجلس الشعب رئيسًا له، شريطة أن يكون اسمه الدكتور أحمد فتحي سرور، ويتولى الدكتور أحمد فتحي سرور تنظيم اللعبة السياسية؛ بحيث يظن الزائر للبلاد أن هناك فعلًا مجلس شعب به خلاف حقيقي حول مصلحة المواطن والوطن.

مادة ٥٨: يُحال كل مشروع قانون إلى إحدى لجان المجلس لفحصه، وبعد أن يطق المعارضون من فرط مناقشته يقوم نواب الحزب الوطني بتمريره ويكفل

القانون للمعارضين حق خبط رءوسهم في الحائط، شريطة أن يتم ذلك خارج القاعة الرئيسية للمجلس.

مادة ٥٩: إذا حصل وأخطأ أعضاء المجلس في تمرير مشروع قانون لا يريده رئيس الجمهورية، يكون من حق الرئيس رده للمجلس خلال ثلاثين يومًا. ولرئيس الجمهورية حق إصدار القوانين أو الاعتراض عليها دون أن يكون من حق أحد السؤال عن جدوى المجلس إذن.

مادة ٦٠: إلى جوار مجلس الشعب يوجد في البلاد مجلس للشورى؛ لا يلزم الدستور الوزراء بأي مسئولية تجاهه، ولا يعرف أغلب المواطنين عنه شيئًا سوى أنه يقع في شارع القصر العيني.

مادة ٦١: لكل عضو من أعضاء مجلس الشعب أن يوجه إلى رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء أسئلة أو استجوابات أو طلبات إحاطة في أي موضوع يدخل في اختصاصاتهم، وعلى هؤلاء أن يعطوه برستيجه كاملًا، ويناقشوه دون أن يغيظوه بالقول له إنهم سيفعلون ما يريدونه في نهاية الأمر.

مادة ٦٢: الوزراء مسئولون أمام مجلس الشعب عن السياسة العامة للدولة، والوزراء يعينهم الرئيس ويتابع أعمالهم، لكن مجلس الشعب لا يستطيع محاسبة الرئيس؛ لذلك لم يحدث قطّ أن تم سحب الثقة من وزير وغالبًا لن يحدث.

مادة ٦٣: ينظم القانون القواعد الأساسية لحماية الأموال العامة وإجراءات صرفها، أما إجراءات سرقتها دون الوقوع تحت طائلة القانون فتترك للاجتهاد الشخصي.

مادة ٦٤: يعيِّن رئيس الجمهورية رئيس مجلس الوزراء ونوابه والوزراء ونوابهم ويعفيهم من مناصبهم، وكل ذلك بقدر معلوم وفي توقيت معلوم لا يعلمه أحد غيره.

مادة ٦٥: يشترط فيمن يعين وزيرًا أو نائب وزير أن يكون مصريًّا بالغًا من العُمر خمسًا وثلاثين سنة على الأقل، ومتمتعًا بكامل حقوقه المدنية والسياسية، ومتمتعًا برضا رئيس الجمهورية والقدرة على تطنيش الصحافة.

مادة ٦٦: الوزير هو الرئيس الإداري الأعلى لوزارته، ويتولى رسم سياسة الوزارة في حدود ما يرضى عنه رئيس الجمهورية.

مادة ٦٧: لا يجوز للوزير في أثناء تولي منصبه أن يزاول مهنة حرة أو عملًا تجاريًّا أو ماليًّا أو صناعيًّا أو أن يشتري أو يستأجر شيئًا من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئًا من أمواله طالما رزقه الله بمن يقوم له بكل ذلك من أقاربه.

مادة ٦٨: تقسم الجمهورية إلى وحدات إدارية تتشكل فيها مجالس شعبية محلية منتخبة كده وكده، يُفترض أنها تقوم بالرقابة على عمل الأجهزة التنفيذية، لكنها تعمل على ضمان عدم القيام بأي عمل ضد رغبة الأجهزة الأمنية والتنفيذية.

مادة ٦٩: تنشأ مجالس متخصصة على المستوى القومي تضم المسئولين الذين تجاوزوا السن الصالحة للبقاء في الحكم، أو أصبح من الواجب إبعادهم عن مناصبهم الحساسة، وتكون هذه المجالس كأي شيء آخر في البلاد تابعة لرئيس الجمهورية، ويمكن أن يتولى رئاستها أي أحد حتى ولو كان كمال الشاذلي.

مادة ٧٠: القضاة مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون، وتتولى أجهزة الأمن قمعهم وتشويه صورتهم واتهامهم بالانتماء لأحزاب سياسية أو ارتباطهم باتصالات خارجية في حالة انحيازهم للشعب ودفاعهم عن حريته وكرامته.

مادة ٧١: السلطة القضائية مستقلة، ومع ذلك فإن المجلس الأعلى للقضاء يرأسه رئيس الجمهورية الذي هو رئيس السلطة التنفيذية والمتحكم طبقًا للدستور في السلطة التشريعية، وفوق كل ذلك هو الذي يرعى حدود الفصل بين السلطات بحكم امتلاكه لها جميعًا.

مادة ٧٢: تؤدي الشرطة واجبها في خدمة الشعب، مع أن الشرطة نفسها لا تعترف بذلك وتُصر على أنها هي والشعب في خدمة الوطن، وتسهر على حفظ النظام؛ النظام الحاكم طبعًا، لكي لا يحدث أي لبس في فهم هذه المادة.

مادة ٧٣: يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية، ويتولى وضع السياسة العامة

للدولة، ويتولى الإشراف على تنفيذها، ويتولى إبرام المعاهدات، ويتولى حق إعلان حالة الطوارئ، ويتولى إصدار القرارات بقانون، ويتولى قرارات إنشاء وتنظيم المرافق العامة، ويتولى الله الشعب برحمته.

انتهت مواد الدستور ولست أرغب في أن تقول لي: «إنه حقيقي للأسف»، بقدر ما أرغب في أن تقول لنفسك: «كيف بالله عليك سمحنا أن يصبح ذلك حقيقيًّا، وإلى متى؟».

من الأحد ٢٩ أغسطس إلى

الثلاثاء ٣١ أغسطس ٢٠١٠

مَن أحرق المُصحف؟

قل لي بالله عليك.. كم مرة في حياتك التي لا تسر الصديق ولا تغيظ العِدا شاهدت هذا المشهد العبثي المرير؟

أعني المشهد الذي يذهب فيه الحاكم العربي ليفتتح مصنعًا أو يحضر مناسبة وطنية أو دينية أو يلتقي بثلة من أفراد شعبه المتدله في حبه، وبعد أن يلقي عليهم الخطاب الذي كتبه شخص آخر وقام شخص ثالث بتدريب الحاكم على إلقائه بالتشكيل، وبعد أن تلتهب أكفهم من التصفيق وحناجرهم من الهتاف بفدائه بالروح والدم والعضم، وبعد أن يقوم بتوزيع شهادات التقدير لقدامى المنتسبين إلى الموقع الذي يزوره لأنهم استطاعوا أن يتحملوا الحياة في عهده كل هذا الوقت، يقف مسئول الموقع المزور ـ من الزيارة والتزوير معًا ـ بكل خشوع، وينظر إلى الحاكم نظرة مديحة يسري لعبد الحليم حافظ في فيلم الخطايا، نظرة كلها أمومة وطفولة وتنظيم أسرة في نفس الوقت، بينما يعلن المذيع بكل فخر أن الوقت قد حان لكي يتلقى الحاكم هدية أبنائه في هذا الموقع، يقف الحاكم متصنعًا أنه «مفوجأ» بموضوع الهدية هذا وأنه «ما كانش عامل حسابه على هدايا»، لكن نظرة الإصرار في عين المسئول الأوطى منه في الترتيب القيادي تذكره بأن النبي قبل الهدية، فيبتسم الحاكم ابتسامة كلها رضا عبد العال، بعدها تأتي الهدية يحملها اثنان من الموظفين الذين يتم اختيارهم بعناية، حيث يتم التأكد من خلوهم من الأمراض المعدية والمشاعر وعدم القدرة على العض، يسيران بتؤدة كأنهما جمل المحمل يحمل كسوة الكعبة، يصلان إلى الحاكم وهما يحاولان منع نفسيهما من الارتماء في حضنه لكي لا تقع الهدية منهما، يهرول رئيسهما ليفتح الهدية التي تكون دائمًا صندوقًا كبيرًا مغلفًا بالقطيفة الفاخرة، ثم يفتح الصندوق لنرى بداخله مصحفًا شريفًا ضخمًا بغلاف

فاخر موشى بماء الذهب، ينظر إلى الحاكم بفخر من جاب التائهة، يرد له الحاكم النظرة بعشرة أمثالها، ثم يقترب من المصحف ويميل عليه ويقبله، يسود المكان جو روحاني يُشعرك أنك في عصر الخلافة الراشدة، وربما لو تركت لخيالك العنان لاعتقدت أن الحاكم الذي يقف أمامك هو السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأن ما كان يفتتحه هو «المسافر خانة» أو دار الحكمة، وأن رسولًا بالباب سيدخل ليعلن فتح أنطاكية، ولظننت أن السلطان سيأمر للذي أهداه المصحف بصُرة من الدنانير تحية لتقواه، ولتخيلت أن الحاكم من فرط تأثره سيقوم بفتح المصحف وسيأمر الحاضرين وعلى رأسهم كبار رجالته بإخراج مصاحف صغيرة لتتحول الجلسة إلى مقرأة يقرأ فيها الجميع كتاب الله، لكنك ستفيق من كل خيالاتك هذه عندما يلتفت الحاكم خلفه لينظر إلى أحد مساعديه نظرة ذات مغزى (خذ بالك أن المشهد برمته صامت وهذه أرقى أشكال التعبير البصري)، فيقترب المساعد بثبات وجلال وأحيانًا جلال بيكون واخد إجازة فيقترب بثبات فقط، يعيد المساعد المصحف الفاخر إلى صندوقه ويغلقه عليه ثم يحمل الصندوق بمفرده ويتراجع دون أن يدير ظهره للحاكم وسط تصفيق جنوني من الجميع، بينما يغرق مسئول الموقع الحاكم في بحر من نظرات الامتنان؛ لأن هديته نالت القبول، متمنيًا أن تحل بركة الهدية عليه لكي ينتقل من هذا الموقع المدعوق الذي تُدفن فيه مهاراته إلى موقع يستطيع السرقة فيه بشكل أكبر، ويفهم الحاكم نظراته الشغوفة فيهز له رأسه مطمئنًا ومطالبًا بالصبر والتريث؛ لأن كل شيء بنصيب.

الآن وقد وصفت لك هذا المشهد بدقة أحسبها متناهية، لديَّ سؤال وحيد يشغلني: «يا جدعان هي المصاحف دي كلها بتروح فين؟»، أليس هذا بالذمة سؤالًا مُحيرًا، ألا يشغل بالك والنبي، يعني لو فرضنا أن الحاكم ظل في موقعه خمسة عشر أو عشرين عامًا، قول أربعة وعشرين أو قول ثلاثين، يعني ليس المهم عدد السنوات الآن، المهم هو معرفة مصير تلك المصاحف الفاخرة التي تساوي الشيء الفلاني التي يظل الحاكم يتلقاها خلال «جثومه» على منصبه، فإذا كان يذهب إلى مناسبتين كل شهر على الأقل فهو يتلقى خلال العام ما بين عشرين إلى أربعة وعشرين مصحفًا، يعني إذا كان قد بقي في الحكم رُبع قرن سيكون لديه الآن خمسمائة مصحف على الأقل، يعني أكثر مما بداخل المقر الرئيسي للجمعية الشرعية من مصاحف، وهو أمر ينبغي أن نفتخر ونعتز به؛ فنحن في بلد الأزهر ويشرفنا أن يكون لدى مسئولينا هذا العدد الكبير من المصاحف الموشاة بماء الذهب،

لكن ما سيُشرفنا أكثر أن يفكر المسئول الذي يتلقى المصحف ولو لمرة واحدة في قراءته والتأمل في بعض آياته الكريمة بدلًا من تقبيله والالتفات إلى مساعده لكي يحمله إلى حيث يتم تخزينه مع سابقيه، ولكي لا أظلمه ربما لا تكون الغلطة غلطته، بل غلطة من يهدي له المصحف؛ حيث يختار له حجمًا كبيرًا ليس من السهل القراءة فيه، كما أنه يضعه في صندوق ثقيل ومُحكم الإغلاق، وهي كلها طقوس تتنافى مع روحانية الهدية. ربما لو أنصف من يهدي المصحف إلى أي مسئول وأراد به وبنا خيرًا، لكان أكثر تحديدًا وهو يهدي المصحف إليه فيفتحه له على آية محددة ويهمس في أذنه: «يا ريت سعادتك تقرا الآية دي»، إذ لربما قرأها فعلًا فأيقظت ضميره وأحالت الجبل الجاثم فوق مشاعره خاشعًا متصدعًا من خشية الله. يعني أليس من الأوفق ونحن نهدي للمسئول مصحفًا قطيفة أن نذكره بالآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ إلى آخر الآية، أو بآية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ إلى آخر الآية، أو بآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إلى آخر الآية، أو بتلك الآية الجامعة المانعة: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. ألن تصبح حياتنا أفضل حينها؟ فنكون مسلمين حقًّا وصدقًا، لا مسلمين فقط بالمظاهر الكاذبة والطقوس الجوفاء، أليس من الأفضل أن نفرج عن المصحف من صندوقه القطيفة الفاخر لننتفع حقًّا وصدقًا بما فيه؟ وإلا فلنفضها سيرة ونعلن أننا لسنا معنيين بما فيه ونهدي للحاكم علبة شيكولاتة أو قزازة ريحة؟ ألا يأتي علينا اليوم الذي يرفض فيه الحاكم أن يعطي المصحف المهدى إليه لمساعده، بل يأخذه بنفسه ويترك كل من حوله وما حوله ويجلس محاولًا أن يتأمل ما بداخل المصحف لعل كتاب الله يهدي طريقه وينير قلبه فيحارب الفساد والتطرف ويكافح الظلم والجهل؟

ربما ستجد الإجابة عن كل هذه الأسئلة في ثنايا التعبير القرآني البديع: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾، وهي الإجابة التي ستقودك إلى سؤال أخير: لكن ماذا عن جلود الذين لا يخشون ربهم؟

١٤ سبتمبر ٢٠١٠

قبل يوم الدكتوراه

غدًا ستذهب السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس الجمهورية إلى جامعة القاهرة لكي تستلم درجة الدكتوراه الفخرية. بالطبع صوَّر لها مسئولو الجامعة أن الجميع عن بَكرة أبيهم سعداء بمنحها الدكتوراه التي اهتموا بها أكثر من اهتمامهم بتطوير مستوى التعليم في الجامعة التي خرجت من كل تصنيفات الجامعات المحترمة في العالم. بالطبع سترى السيدة الأولى لافتات المحبة التي نصبوها لها والطلاب الذين سيتراصون أمامها والأساتذة الذين سينحون لها، لكن بالطبع فإن أحدًا من مسئولي الجامعة لن يريها البيان الذي وقعه نُخبة من أجدع أساتذة الجامعات المصرية الرافضين لمنحها الدكتوراه، ولعلها تكون فرصة لكي تقرأه سيادتها معك فتعرف أن هناك حقيقة حاول مسئولو الجامعة إخفاءها خلف آلاف الجنيهات التي أنفقت على اللافتات والزينات والواجهات البراقة:

«نرفض النفاق والاستغلال السياسي للجامعة..

بيان حول منح درجة الدكتوراه الفخرية للسيدة سوزان مبارك

تلقى الموقعون على هذا البيان من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية خبر منح جامعة القاهرة درجة الدكتوراه الفخرية للسيدة سوزان مبارك بمزيج من الشعور بالإهانة والألم والغضب. فمن المُهين لكل أستاذ جامعي أن يستخدم اسم الجامعة المصرية العريقة التي تمثل رمزًا للكفاح الوطني في غايات شخصية، إذ لا نتصور أن يكون منح الدكتوراه الفخرية للسيدة سوزان مبارك قد تم إلا لأغراض تخص المسئولين في الجامعة وفي قسم الاجتماع بكلية الآداب الذين دفعوا بهذا الاقتراح من الباحثين عن المناصب والراغبين في التقرب من السلطة. ومن المؤلم ألا نجد في مجلس كلية الآداب

أو في مجلس جامعة القاهرة من يرفض هذا النفاق الرخيص ويفضحه. ولا نملك إلا أن نغضب لتكرار استغلال اسم الجامعة في مظاهر النفاق السياسي والتزلف للسلطة، فقد سبق أن منحت جامعة القاهرة درعها لعدد من أقطاب الحزب الحاكم منهم السيد. كمال الشاذلي وقت أن كان من أصحاب النفوذ، بينما رفضت مجالس متعاقبة للجامعة منح درجة الدكتوراه الفخرية لعلماء أفذاذ يُشرف الجامعة انتسابهم لها مثل: «أمارتيا سان» عالم الاقتصاد السياسي المعروف، و«محمد عبد السلام» عالم الفيزياء الحائز جائزة نوبل. إن من أبسط مبادئ الخلق العلمي والأكاديمي ألا يمنح التكريم الجامعي لأصحاب السلطة، وأن ينتظر الراغبون في تكريم هؤلاء (إن كان هناك مبرر حقيقي للتكريم) لحين ابتعادهم عن السلطة. لذلك فإننا نعلن إدانتنا لهذا القرار الشائن وندعو كل زملائنا من الجامعيين لإدانته بكل الصور وفضح من اتخذوه من محترفي النفاق وعبدة المناصب.

الموقعون:

د.أحمد الأهواني (هندسة القاهرة)، أ.د.أحمد دراج (آداب بني سويف)، د.أحمد عبد المقصود (آداب القاهرة)، أ.د.أحمد عيد الغباري (تربية السويس)، أ.د.إلهام الزناتي (المركز القومي للبحوث)، أ.د.أمينة رشيد (آداب القاهرة)، أ.د.أميمة مصطفى الحناوي (طب القاهرة)، أ.د.إيمان المحلاوي (هندسة القاهرة)، د.إيمان يحيى (طب قناة السويس)، أ.د.جمال حشمت (الدراسات الطبية بالإسكندرية)، د.حنان سبع (الجامعة الأمريكية)، أ.د.رفعت غنيم (طب قناة السويس)، د.ريم سعد (الجامعة الأمريكية)، أ.د.سالم سلام (طب المنيا)، د.سحر الموجي (آداب القاهرة)، أ.د.سعيد النشائي (هندسة القاهرة بالمعاش)، د.سلمى مبارك (آداب القاهرة)، أ.د.سيد البحراوي (آداب القاهرة)، أ.د.شادية الشيشيني (هندسة القاهرة)، د.صادق نعيمي (آداب المنوفية)، د.صلاح السروي (آداب حلوان)، د.طارق سيد أحمد (علوم القاهرة)، أ.د.عايدة سيف الدولة (طب عين شمس)، أ.د.عبادة كحيلة (آداب القاهرة)، أ. د.عبد الجليل مصطفى (طب القاهرة)، أ.د.عبد الله سرور (تربية الإسكندرية)، أ.د.عصمت زين الدين (هندسة الإسكندرية)، أ.د.عمر السباخي (هندسة الإسكندرية)، د.فاتن مرسي (آداب عين شمس)، أ.د.كمال نجيب (تربية الإسكندرية)، د.ليلى سويف (علوم القاهرة)، أ.د.ليلى موسى (طب الإسكندرية)، د.ماجدة أنور (آداب المنوفية)، أ.د.مجدي قرقر (تخطيط عمراني القاهرة)، أ.د.محمد أبو الغار (طب القاهرة)، د.محمد طلعت (هندسة القاهرة)، أ.د.محمد لمعي الملاح (علوم

القاهرة)، د.محمد نافع (هندسة القاهرة)، د.محمد هشام (آداب حلوان)، أ.د.محمود حامد النابي (علوم القاهرة)، أ.د.مديحة دوس (آداب القاهرة)، أ.د.معتزة محمد خاطر (علوم القاهرة)، أ.د.مصطفى كامل السيد (اقتصاد وعلوم سياسية القاهرة)، د.ملك رشدي (الجامعة الأمريكية)، أ.د.ممدوح حمزة (هندسة قناة السويس)، أ.د.منال المنياوي (طب القاهرة)، أ.د.نبيل يوسف (علوم القاهرة)، د.نفرتيتي مجاهد (علوم القاهرة)، أ.د.نيللي حنا (الجامعة الأمريكية)، د.هالة كمال (آداب القاهرة)، د.هاني مصطفى الحسيني (علوم القاهرة)، د.هبة رءوف (اقتصاد وعلوم سياسية القاهرة)، أ.د.هبة مشهور (آداب القاهرة)، أ.د.هداية مشهور (آداب القاهرة)، أ.د.هدى أباظة (آداب عين شمس)، أ.د.وحيد خليل (علوم القاهرة)، د.يحيى القزاز (علوم حلوان)».

أعتقد والله أعلم أنه بعد ثلاثين عامًا على الأكثر لن يذكر أحد إذا كانت السيدة سوزان مبارك قد حصلت على الدكتوراه الفخرية، كما لم يعد يذكر أحد بعد ثلاثين عامًا الدكتوراهات التي حصل عليها حكام العهد السابق وقريناتهم بسيف الحياء وذهب الرياء، لكن بالتأكيد سيذكر التاريخ أنه كان هناك في مصر رجال ونساء، قليلون في عددهم لكنهم أكابر في مقامهم، رفضوا أن يكونوا خدمًا في بلاط السلطان، وأثبتوا أن العلم أمانة وموقف ومسئولية، وليس شهادة معلقة على الحائط، لذا أتشرف بضم توقيعي إلى هذه القائمة المجيدة تضامنًا معها وتأييدًا لبيانها، وأدعوك ألا تحرم نفسك من هذا الشرف، سائلًا الله أن يجعل توقيع كل من سيوقع على هذا البيان في ميزان حسناته يوم القيامة، حتى وإن كان سيُحسب في ميزان سيئاته في هذه الأيام الكئيبة.

١٥ سبتمبر ٢٠١٠

العصابة التي تحكم مصر

كتب أستاذنا الأكبر إحسان عبد القدوس مقالًا بما يشبه هذا العنوان عقب ثورة يوليو مباشرة، فزج به الضباط الأحرار في السجن. وقبل أن يفكر أحد في أن يمنحني الشرف الذي ناله عمنا إحسان، دعوني أبادر إلى التأكيد على أنني أعني عصابة من نوع آخر، هي باختصار تلك «العصابة» التي جاءت في معرض تصريحات الناشط السياسي الدكتور شادي الغزالي حرب، بعد أن عاد إلى أهله عقب اختطافه من مطار القاهرة الدولي على أيدي جهات أمنية أصبح أقصى أمانينا جميعًا أن نعرف ما هي دون حتى أن نعرف قانونية ما قامت به ولا متى سيتم حسابها على ما فعلته. قال الدكتور شادي في تصريحاته التي نقلتها جميع الصحف ولم يبادر أحد لتكذيبها ولو حتى ذرًّا للرماد في العيون: «بعد إنهائي الإجراءات وفي أثناء مروري بعد فحص جواز السفر، استوقفني رجال الأمن، وجاءني أحد الأشخاص بملابس مدنية، واصطحبوني إلى أحد مكاتب المطار، وبعد عشر دقائق وضعوا الكلابشات في يدي، ووضعوا عصابة على عيني، واصطحبوني إلى سيارة أخذتني خارج المطار».

آسف إذا كنت لم أكمل باقي التصريحات؛ لأنني كما تعلم من المهتمين دائمًا بسفاسف الأمور، لذلك لست مهتمًّا بمعرفة ما دار من تحقيقات مع شادي الغزالي حرب، ولا لماذا قررت جهة أمنية أن تختطفه بهذه الطريقة المرعبة لكي تسأله عن الدكتور البرادعي وتصريحاته وتحركاته وتهديده بالنزول إلى الشارع، مع أنه كان من الأفضل والأجدى أن تختطف الدكتور البرادعي نفسه، على الأقل ستعرف كل ما تريده من مصدره المباشر، كل هذا لا يهمني أبدًا، بقدر ما يهمني سؤال وحيد: «لماذا العصابة التي وضعت على عيني شادي؟».

للأسف، لم أتشرف بمعرفة الدكتور شادي، لكن والده الدكتور طارق الغزالي حرب صديقي، ولذلك فكرت أن أسأله: «هل يتمتع شادي بقدرات خارقة تجعله يصدر من عينيه أشعة سينية أو فوق بنفسجية يمكن أن تكشف في أثناء سيره مواقع أمنية حساسة لا تريد الجهات الغامضة أن يكتشفها أحد؟ هل اكتسب شادي بحكم إقامته في بلاد الفرنجة قدرة بصرية على اختراق ملابس من يختطفونه ثم يقوم بنقل صورهم العارية إلى وحدة تحكم مخبأة في دماغه ويرسلها مباشرة بالبلوتوث إلى شبكة الإنترنت و«الفيس بوك» و«التويتر» وكل الأشياء الشيطانية التي اخترعها الخواجة اللعين لكي يفسد على ضباط الأمن المستتب بهجتهم الدائمة بأن كل شيء تحت السيطرة؟».

كدت أتصل بالدكتور طارق لكنني في آخر لحظة قرأت أن هناك صديقين للدكتور شادي من شباب حملة البرادعي تم اختطافهما قبله بفترة، وتم أيضًا عصب عينيهما في أثناء اقتيادهما إلى الجهة غير المعلومة، وهو ما يعني أن أسئلتي لم تعد مبررة، فطارق ليس لديه مؤهلات خاصة تجعل أحدًا يخشى من نظرة عينيه، وكل الحكاية أنه لا أحد يريد أن يُعرف مقر الجهة التي يتم اقتياد الشباب إليها بعد خطفهم؛ لكي لا يعود بعضهم بعد إطلاق سراحه ومعه بلطجية، على طريقة أبناء رجال الأعمال، ويقوم بتحديف تلك الجهة بالطوب، هذا هو التفسير المنطقي الوحيد، لكنه تفسير لا يصلح للإجابة عن كل ما لديَّ من أسئلة من بينها مثلًا: إذا كانت تلك الجهة الغامضة قوية جدًّا بحيث يسمح لها قادة هذه البلاد بتحطيم بديهيات القانون والبصق على الدستور والذوق والأخلاق والدين والحياء، فلماذا تخاف من أن يكون مقرها معلومًا لمن يتم اقتياده إليها؟ وإذا كانت تعامل من تختطفهم بشكل جيد، كما قال جميع المختطفين، بل وتنتقي لهم إفطارًا جيدًا وصحيًّا، فلماذا العصابة إذن؟ هل لدى المسئول المختص في تلك الجهة حلم قديم من أيام أفلام زوار الفجر بأن يدخل على غرفة فيرى شخصًا معصوب العينين؟ ولماذا لا يجرب تلك النزوة في بيته بدلًا من أن يجربها على المواطنين الشرفاء الذين لم يرتكبوا جريمة سوى حلمهم بأن يروا بلادهم أقل عفنًا وفسادًا وتخلفًا؟

لي أصدقاء بلهاء كثيرون، سمعت أحدهم يقول تعليقًا على ما حدث، كلامًا من نوعية: «طبعًا ما هم مش عارفين يتشطروا على البرادعي.. لازم يتشطروا على شباب مش مسنودين دوليًّا»، فأحزنني أن يكون في هذه البلاد أناس سذج يتخيلون أن هناك حدودًا يمكن أن يقف عندها الاستبداد، ويظنون أن هناك كوابح يمكن أن تعرقل شهوة

القمع، قلت لصديقي الغافل: لكل مواطن عصابة تنتظر عينيه، سواء كان طبيبًا أو مريضًا أو رئيسًا سابقًا لهيئة الطاقة الذرية أو ساعيًا في بوفيه هيئة الطاقة النووية، وإذا كانت حكومتنا المباركة عادلة في شيء فستكون قطعًا عادلة في تعصيب أعين معارضيها الذين هم لديها سواسية كأسنان المشط، هم بدأوا بهؤلاء الشباب لكي تصل هذه الرسالة لملايين غيرهم: «لا تصدقوا أنفسكم وتعتقدون أن هذه البلاد بلادكم.. هذه عزبة تعيشون فيها دون حقوق.. يمكن أن يتم اختطافكم في أي لحظة دون أن يعرف أحد لكم طريق جُرة.. شايفين، هذا شاب عمه رئيس حزب معارض وشخص ذو حيثية في المجتمع.. وأبوه طبيب شهير وكاتب مهم.. وعائلته من أرفع وأهم العائلات في البلاد.. ومع ذلك لم يمتلك حتى حق أن يعرف إلى أين يتم اقتياده.. ولم يعرف أهله أين هو.. فإذا كان هذا هو حاله فكيف سيكون حالكم يا أبناء الغلابة والعمال والفلاحين والسكان الأصليين لمصر.. اصحوا وفوقوا ولا تصدقوا أن هناك شيئًا اسمه الحقوق القانونية والدستورية.. لا تمشوا وراء هذا الرجل البطال الذي يريد لكم أن تعيشوا في دولة لا تحكم بمنطق القرون الوسطى.. لا تظنوا أن أكبر مخاوفكم ستكون في اقتيادكم إلى أماكن معلومة، فنحن قادرون ودون حساب ولا عقاب أن نقتادكم إلى أماكن غير معلومة لا يعرف لها الذباب الأزرق طريق جُرة.. إذا أردتم أن تفتحوا أعينكم على اتساعها لتروا كيف يتغير العالم ويتطور فتذكروا دائمًا أن هناك عصابة يمكن أن توضع على أعينكم في أي وقت».

هذه هي الرسالة التي يريدون إيصالها إلى شباب مصر، وأظنها وصلت، وأظن أن الكثيرين قد خافوا وارتعبوا وانكمشوا وبدأوا يراجعون حساباتهم وبدأوا يفكرون في وسائل للهجرة من مصر، سواء كانت هجرة إلى مراكب الموت أو هجرة إلى ضبابات «الدرجز» اللذيذة، أو هجرة إلى حلم الجنة التي لا سبيل لها إلا بأن نقضي على المسيحيين ونفتش الكنائس بحثًا عن واحدة لها حسنة في ذقنها. لكنني أعتقد أن هناك شبابًا كثيرين لن يخافوا ولن يرتعبوا ولن يهاجروا أبدًا؛ لأنهم يدركون أن العالم المتقدم قد أغلق أبوابه في وجوهنا بالضبة والمفتاح، ولم يعد لدينا إلا هذه البلاد نأخذ حقوقنا فيها بالقانون والدستور أو نموت على ترابها أحسن وأشرف من الموت في بلاد غريبة، وأننا مهما خدرنا أنفسنا سنفيق يومًا على حقيقة أكثر بشاعة، وأننا لن ندخل جنة السماء إلا إذا صنعناها على الأرض أولًا. هؤلاء الشباب يعلمون أنهم لو خافوا من العصابة التي ستنزل على أعينهم وآثروا الطرمخة والطناش والتعامي، فإن أعينهم ستعمى حتمًا ولزمًا بفعل الفساد

والجهل والفقر والمرض، ولذلك سيتخذون لأنفسهم شعارًا قاله أجدادهم من زمان: «عصبوا الأعور على عينه.. قال أهي خسرانة خسرانة».

منذ سنين عندما تم اختطاف الكاتب الحر عبد الحليم قنديل وإلقاؤه في صحراء المقطم عاريًا، بدأ صديق لي من أشرس المعارضين بتدريب نفسه على تقبل فكرة أن يتم العثور عليه عاريًا في الشارع، قال لي: «لن أغير قناعاتي السياسية خوفًا من أن يراني أحد عاريًا.. سأغمض عيني وأتخيل أنني أسير على شاطئ للعراة في فرنسا وسأكمل مسيرة التغيير». والآن وبعد أن عادت ظاهرة العصابات التي تسدل على العينين، بدأ صديقي يمشي بنضارة احتياطية في جيبه لكي يقوم باستخدامها بعد رفع العصابة عن عينيه فور وصوله إلى المكان الغامض، لكنه لم يجد ذلك كافيًا على ما يبدو، فقد اتصل بي قبل يومين ليطلب مني أن أدبر له موعدًا لكي يجلس مع الموسيقار العظيم عمار الشريعي لعله يجهز نفسه نفسيًّا وروحيًّا للحظة الفقد المؤقت للبصر، وليس سرًّا أنني بعد كتابة هذا المقال سأحضر معه ذلك اللقاء لعله ينفعني في ذلك اليوم الذي قد يكون بعيدًا وقد يكون قريبًا، فلا أحد يعرف شيئًا في أزهى عصور الشفافية.

٢١ سبتمبر ٢٠١٠

طائرة السيد الرئيس

هل أنت ممن يخافون عند إقلاع الطائرة أو هبوطها أو تعرضها لمطبات هوائية؟ قل نعم ولا تخف فكلنا ذلك الرجل، عادي يعني، هناك من يتغلبون على خوفهم من الطيران بركوب البحر أو السفر برًّا أو عدم السفر أساسًا، وهناك من يحاولون الاسترخاء التام ويأخذون مهدئات لتجاوز محنتي الإقلاع والهبوط، وهناك من يغرق في الاستماع إلى الموسيقى الهادئة أو الصاخبة. أنا أتغلب على خوفي من الطيران بقراءة كل الأدعية التي أحفظها وأضيف إليها دعاء خاصًّا بأن يُعجل الله بموتي إذا أراد أن يكون في حادث طيران فلا أظل مرميًا في عرض البحر أو محصورًا في قمة جبل وسط الأشلاء في انتظار طائرات الإنقاذ التي لا تصل لمواطني العالم الثالث، يعني تقدر تقول إنني أداوي خوفي بالتي كانت هي الداء. قد تراني مجنونًا وقد أكون كذلك فعلًا، وقد تكون لديك طرق ألطف للتغلب على خوفك من الطيران والطائرات، لكن المؤكد أنه لا أنا ولا أنت نمتلك الوسيلة التي يمتلكها الرئيس مبارك للتغلب على متاعب الطيران، أعني رؤساء تحرير الصحف القومية.

هل سألت نفسك قبل ذلك لماذا يصر الرئيس مبارك على اصطحاب رؤساء تحرير الصحف القومية معه في أثناء سفره في رحلات خارجية، بدلًا من أن يسافر مندوبو الصحف في رئاسة الجمهورية، كما جرت العادة في أغلب دول العالم؟ أعلم أن الرئيس مبارك ورث هذه العادة عن سابقيه عبد الناصر والسادات، لكن ذلك لا يعني أنه لا يستمتع بهذه الصحبة، وإلا لكان قد قطع هذه العادة كما انقطعت عادات أخرى كثيرة لعبد الناصر والسادات في التواصل مع الإعلام والناس. وبما أن السؤال لم يحرم بعد كما حَرُم التظاهر والهتاف والاعتراض على توريث البلاد، دعنا نسأل أسئلة كثيرة من نفسنا عن هذه العادة التي نسأل المولى أن يقطعها رحمة بنا وبمراراتنا.

أول سؤال: لماذا يحرص الرئيس في رحلاته على اصطحاب رؤساء تحرير الصحف الحكومية المسماة زُورًا بالقومية دون أن يصطحب معه دائمًا كل رؤساء تحرير الصحف الحزبية والمستقلة؟ هل يتفاءل بهم دون غيرهم، أم أنه لا يحب أن يستمع إلى أصوات تضايقه وتعكننه وهو متغرب، أم أن رؤيته لوجوه الصحفيين الذين يوالون ويؤيدون ويبايعون طيلة السنة تريح أعصابه وتشعره بالأمان والطمأنينة؟ يعني الواحد منا عندما يتوتر على متن الطائرة يدوس على زرار استدعاء المُضيفة ليطلب منديلًا معطرًا أو حبة نعناع منعشة أو كوب ماء بارد، أما رئيس الجمهورية فهل يدوس على الزر ويقول: «هاتوا لي رؤساء التحرير»، ليس لدي أي اعتراض على ذلك فللرئيس مطلق الحق في أن يختار رفيق سفره كيفما شاء، خاصة والرفيق قبل الطريق، ولن أكون سعيدًا بأن يقضي رئيس دولتي ساعات طيرانه في نقاش سياسي مرهق مع صحفيين مستقلين ينقلون له هموم الناس فيزيدون همه، بينما بمقدوره أن يقضي ساعات سفر لذيذة على أنغام موالاة «القوميين» الذين ينتظرون من سيادته أن يتفوه بالتصريحات الخطيرة التي ينشرونها جميعًا في نفس المكان بنفس العناوين بنفس الألفاظ والعبارات، وهو ما يجعلك تسأل مجددًا: لماذا يسافر كل هؤلاء على نفقة الدولة؟ لماذا لا تكون هناك نوبتشية يسافر فيها واحد منهم كل مرة ويتملى الكلمتين من سيادة الرئيس ويوصلهم إلى زملائه لينشروهم بنفس الطريقة بدون أي داع للخيلة «الصادقة» التي تسافر مع سيادته كل مرة؟

ولكي لا يظن أحد أنني طمعان فيما يعتبره رؤساء التحرير الحكوميون طاقة قدر تنفتح لهم كذا مرة في السنة، دعني أتمنى لهم السلامة من كآبة المنظر وسوء المنقلب وقلة بدل السفر، لكن دعني أسأل أيضًا: ماذا يحدث لو فرضنا، لا قدر الله، أن طائرة سيادة الرئيس جرى لها ما يجري لباقي طائرات الدنيا من اضطرابات جوية حادة ومقلقة تجعل صدر الراكب ضيقًا حرجًا وهو يصعّد في السماء؟ هل يمكن في حالة كهذه أن يستيقظ ضمير أي راكب من ركاب طائرة الرئيس سواء كان من معاونيه ووزرائه أو من كُتابه ورؤساء تحريره فيدرك أي من هؤلاء أن ساعة لقاء الله قد حانت وأن عليه أن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، فيقول لرئيس البلاد الحقيقة التي سيسأله الله عز وجل لماذا كتمها، هل يمكن أن يقول أحد ركاب طائرة السيد الرئيس له بكل أدب وصدق: «سيادتك أنا آسف إني عشت معاك كل الوقت اللي فات باقول حاضر ونعم من غير ما أفكر إني أقول لسيادتك

كلمة حق تبصرك أو تنورك.. سيادتك أنا آسف إني عاملتك كفرعون مش كرئيس وخفت إني أقولك الحقيقة زي ما أنا شايفها.. سيادتك أنا آسف إني أقول لك إننا مش بخير، وإن البلد حالتها صعبة قوي، وإن الشعب تعبان وطالع عينه بسبب سياساتنا وقراراتنا الغلط، وإننا جربنا فيه كل البدع وأرهقناه وأتعبناه واستنزفناه ولازم نصارحه ونعتذر له.. سيادتك أنا آسف إني قلت لك إن مصر مش ممكن يحكمها حد غيرك.. وساعدتك على إنك تقعد على الحكم كل السنين دي من غير ما يحصل تداول سلمي للسلطة.. سعادتك أنا آسف إني أهنت قلمي وشرف مهنتي وما قلتلكش الحقيقة.. وحاولت أضحك على الناس وأقولهم إنك ما بتغلطش مع إن سعادتك بني آدم وكل ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون.. سيادتك ما يصحش اعتقال شباب مُسالم بيعبر عن رأيه بصوته من غير ما يلجأ للإرهاب أو العنف أو العمل السري، وما يصحش اعتقال بنات صدقوا اللي حضرتك بتقوله عن مشاركة المرأة في العمل السياسي.. سيادتك قلت إنك بتقدر تفرز المنافقين من الصادقين ليه سمحت لنا ننافقك بكلام ما يصحش يتقال في ظل عالم محترم بقى فيه مبادئ أساسية زي حرية الصحافة وتداول السلطة واحترام عقول الناس.. سيادتك ليه ما تفتحش قلبك للناس اللي أرهقهم الغلاء والفقر والمرض.. سيادتك ليه بتسمح بوسائل إعلام كلها جهل ونفاق وتفاهة وضعف مهني، وتسيب الناس تلجأ للتعصب والتطرف عشان الناس ما لقتش اللي يريحها في الدنيا فقررت تجري وراء أي حد يوعدها إنها ترتاح في الآخرة».

يااااه!! تخيل يا مواطن لو قرر أحد ركاب طائرة الرئيس في لحظة اقتراب من الموت على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق سطح البحر ووسط اهتزازات مطب هوائي مخيف أن يقول له كل هذا وهو غيض من فيض الحقيقة التي تثقل كاهل كل مواطن في مصر، ما الذي سيحدث له؟ هل سيرميه الرئيس من الطائرة، أم أنه سيصل مثله مثل غيره إلى مصر، فيكون قد أبرأ ذمته من الله؟ هل سيقال من منصبه؟ طيب وفيها إيه؟ هل سيموت من الجوع أم أن الذي خلقه قادر على أن يرزقه هو وأولاده؟ هل ستقتله الأجهزة التي يهمها أن لا يتواجد حول الرئيس مبارك سوى الذين يقولون له كلامًا يحبه ويرضاه؟ ألم يكن معرضًا لأن يموت هو ومن معه، بل هو والرئيس ذات نفسه، إذا اختار الله ذلك؟ فلماذا لا يموت وقد حجز لنفسه مكانًا أبديًّا إلى جوار الأنبياء والصديقين والشهداء؟ هل تبدو هذه الأسئلة بلهاء بدائية؟ ربما. وهل الرئيس لا يعلم حقيقة ما يحدث لشعب مصر وليس

محتاجًا لأن يذكره بذلك أحد؟ ربما أيضًا. وهل سأروح في داهية لأنني كتبت كلامًا مثل هذا؟ ربما أيضًا. هناك «ربماهات» كثيرة في الموضوع لكن المؤكد أن كثيرًا ممن هم حول الرئيس ينسون أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولو كانوا يتذكرون ذلك ويستشعرونه لقالوا له الحقيقة مع أول مطب هوائي تمر به الطائرة التي يركبونها معه. إلا إذا كانت طائرة السيد الرئيس مصممة ضد المطبات الهوائية.. وضد الحقيقة.

٢٣ سبتمبر ٢٠١٠

خلاص.. بَح

(١)

«يبدو أن الفُسحة أوشكت على الانتهاء. حتى لو لم تسمعوا صوت الجرس رسميًّا، هناك مؤشرات كثيرة تدل على اقتراب قرعه، مؤشرات لن أسردها لك لأن «إللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى»، لكن عندي إحساس بأن لديك إحساسًا بتلك المؤشرات المتصاعدة؛ لأن حضرتك «من هنا برضه وعارف».

في العالم المحترم تعتبر الفُسحة حقًّا أصيلًا للطالب، لا منحة من الناظر، ليس من حق الناظر أن يلغيها متى شاء ولا أن يقرر طبيعة ما يقال فيها وما يدور خلالها، أما في عالمنا التعبان فمن حق الناظر وحده أن يجعل أيامنا كلها فسحة، ومن حقه وحده أيضًا أن يلغي الفسحة إلى الأبد، فهو وحده الأدرى بمصلحة رعاياه وهو الأحن عليهم من أنفسهم.

قال لي رجل محترم يعرف كثيرًا من النافذين الذين يطلعون في نشرة ستة، التي ستظل تطلع حتى تطلع أرواحنا: «استمتعوا على قد ما تقدروا بهامش الحرية؛ لأنكم ستترحمون عليه عقب الانتخابات الرئاسية أيًّا كان اسم الذي سيقررون إنجاحه فيها»، ثم حكى عن حوار دار بينه وبين أحد أولئك النافذين الذي قال له بالنص: «إللي بيحصل دلوقتي كتير والبلد كلها في خطر. وخلاص ما عادش في مكان للصبر.. إحنا مش هنسيب شوية عيال يولعوا البلد.. ولا يهمنا لا ضغط دولي ولا نيلة.. مصلحة البلد فوق كل اعتبار».».

عندما كتبت هذه السطور اللعينة يوم ٤ أغسطس الماضي لم أكن عرافًا ولا منجمًا، ولم أكن حتى مطلعًا على بواطن الأمور كما قد تظن، كنت فقط أحاول قراءة شواهد تتراكم في سماء واقعنا الواقع والمتردي، ولكي لا أعيش في دور زرقاء اليمامة طويلًا، ولكي

لا أظلم الذين ظنوا يومها أنني متشائم أكثر من اللازم، أعترف أن جرس انتهاء الفسحة تم قرعه بأسرع مما توقع الجميع، ففي أسبوع واحد تم حجب برنامج المذيع اللامع عمرو أديب الشهير بـ«القاهرة اليوم» عن مشاهديه، وتمت «استقالة» الأستاذ إبراهيم عيسى من برنامج «بلدنا بالمصري» على قناة «أون تي في» المملوكة لرجل الأعمال نجيب ساويرس، وبدأت مضايقات تتراكم لبعض وسائل الإعلام والصحف، أصحابها هم الأولى بإعلانها ولست أنا، وعلى حد التعبير العبقري لصحيفة الفجر منذ أن تم «ضرب المتشفر»، وكل «المفتوح» في حالة من الارتباك لا يلام عليها.

لا أعلم، وربما لن يعلم أحد، من هو صاحب تخريجة إغلاق استديوهات «أوربت» بحجة أنها متأخرة في سداد مستحقاتها لمدينة الإنتاج الإعلامي؟ لكنني متأكد من أنه نال «شريطة» أو هبر علاوة كبيرة مكافأة له على اقتراحه الجهنمي الذي ألهى الرأي العام عن ملابسات القرار، ليضرب الناس كفًّا بكف متعجبين على أناس ميسوري الحال يجمعون مشكورين التبرعات بالملايين للمرضى والفقراء، بينما يتأخرون في سداد مستحقاتهم ودفع مرتبات العاملين لديهم، لكن للأسف في زحام التعجب المختلط بالسخرية تاهت حقائق كثيرة منها: أن إدارة القنوات حاولت دفع مستحقاتها بالأصول وفورًا ولم يتم الاستجابة لطلبها، وأن أزمة البث لم تكن متعلقة فقط باستديوهات مدينة الإنتاج الإعلامي؛ فقد كانت هناك محاولتان تمتا من قِبل إدارة «القاهرة اليوم» للبث على الهواء من مكانين معتمدين ومؤهلين للبث على الهواء، وتم إيقاف الحكاية قبل اكتمالها.

الذين سمعوا صوت المذيع والصحفي أحمد موسى يتحدث على الهواء مع المذيعة منى الشاذلي في العاشرة مساء في أول يوم تم حجب البرنامج فيه كادوا يشدون شعور حواجبهم من فرط الحيرة، وهم يسمعونه يتحدث غاضبًا على محاولة إسكات صوت «القاهرة اليوم»؛ فالكل يعلم أن الأستاذ أحمد من كبار مسئولي تحرير الأهرام، ويمتلك علاقات سياسية قوية ويستطيع الاتصال بكبار المسئولين في البلاد لمعرفة ما حدث بالضبط، كما أن هناك من نجوم البرنامج أيضًا الأستاذ حمدي رزق رئيس تحرير «المصور»، والأستاذة آمال عثمان رئيسة تحرير «أخبار النجوم»، والأستاذ جمال عنايت الذي استضاف في برنامجه كبار مسئولي الدولة وعلى رأسهم جمال مبارك، ومع وجود هذه الأسماء الكبيرة بكل علاقاتها وثقلها، وصلت الرسالة واضحة للجميع: في الفترة القادمة لن يكون هناك عزيز أبدًا. لعلكم تذكرون أن عمرو أديب كان يقول دائمًا لمشاهديه جملة شهيرة:

«ارسم لي خط وأنا أمشي عليه»، وها هو الخط قد تم رسمه، وعلى الجميع أن يمشي عليه في الفترة القادمة، وإلا فإن تلويح عمرو أديب بالاعتزال في عام ٢٠١١ والذي أطلقه في رمضان قبل الماضي في حواره مع طوني خليفة في قناة «القاهرة والناس»، يمكن ببساطة زي ما شفنا أن يتم تحويله إلى حقيقة واقعة، دون أن يفرق مع الدولة ببصلة.

لم يكن عمرو أديب مناضلًا سياسيًّا في يوم من الأيام، هو دائمًا يقول ذلك ولا ينكره. هناك أسباب كثيرة، شخصية وموضوعية، تجعل أقصى أحلامه أن يشاغب داخل المنظومة، يضرب أحيانًا ثم يلاقي سريعًا؛ لأن هدفه المشروع هو الاستمرار، دائمًا كنت أضحك عندما أسمع متصلًا بـ«القاهرة اليوم» يقول له: «إحنا خايفين عليك يا عمرو.. خلِّي بالك من نفسك يا عمرو»، ثم اتضح أن الناس لديها حق في مخاوفها، وأن عمرو كان لا بد أن يخلي باله من لسانه قبل نفسه. اتصلت بالأستاذ عمرو أديب يوم الثلاثاء الماضي لأفهم حقيقة ما يحدث منه مباشرة، لم أكن متابعًا للبرنامج خلال شهر رمضان؛ لأنني كنت مسافرًا خارج مصر، لذلك سألته إذا كان قد داس في هذه الفترة على «رِجل» أحد بالذات، فقال لي ضاحكًا وبدبلوماسية إنه يعتقد أن ما حدث «تكريم عن مجمل أعماله». كان هادئًا ومتماسكًا وفي نفس الوقت كان يشعر بالمرارة والأسى، ولم يكن متأكدًا من أي شيء سوى من كونه لن يغادر أبدًا للعمل خارج مصر، برغم العروض المغرية التي تلقاها فور إعلان خبر الحجب؛ عمرو رجل ذكي ويعرف أن من تخرج رجله بره الدايرة لا يعود إليها أبدًا، ولكم في الأستاذ حمدي قنديل أسوة حسنة، هناك مساحة للبقاء داخل الدائرة بشروط ما، تتغير تبعًا للظروف، لكن الدائرة يمكن أن تتسع فجأة ويمكن أن تضيق فجأة، وعلى الراغبين في البقاء أن يتقبلوا ذلك دائمًا وأبدًا ودون إحداث قدر مبالغ فيه من الضجيج.

بالبحث والتحري بين الأصدقاء المتابعين للبرنامج والعودة إلى المنتديات التي يتابع أعضاؤها «القاهرة اليوم» إلى حد الهوس، سمعت وقرأت أن هناك حلقة ما كانت خلال شهر رمضان ورد فيها على لسان متصل بالبرنامج حديث متجاوز قليلًا بحق جمال مبارك، أنهكني البحث عن تلك الحلقة على «اليوتيوب» وعلى جميع المنتديات، لكنني لم أجدها قطّ، مع أن ما يدخل «اليوتيوب» لا يخرج منه أبدًا، على الأقل حتى الآن، لا أدري إذا كانت تلك تشنيعة، ما يدفعني لمواصلة البحث أنني في أثناء سفري قرأت تعليقات في بعض المواقع الإلكترونية على تلك الحلقة عقب إذاعتها، لكنني لم أجدها على الإنترنت خلال الأيام التالية لقراءتي عنها، لا أدري هل هناك حلقة فعلًا، أم لا؟ للأسف لم يبدُ لي

الوقت مناسبًا لسؤال عمرو أديب عن ذلك، إللي فيه كان يكفيه، وربما يوجد بين القراء الكرام من يفيدنا في هذا الأمر لعلنا نفهم حقيقة ما حدث، دون أن نحرج أحدًا معنا.

على أي حال، انتهى الأسبوع الماضي وسط تزايد الأخبار التي تتحدث عن قرب انفراج أزمة «القاهرة اليوم»، خصوصًا وقد فهمت إدارة البرنامج الدرس جيدًا، واختارت حتى عند إعادتها لبعض الحلقات أن تحجب في بعضها فقرات المُقدمة التي كانت تحتوي مشاغبات لعمرو أديب. البعض من ذوي النفوس البريئة فسر ذلك أنه عدم رغبة في إعادة فقرات تجاوزها مرور الزمن، لكنني تلقيت ملاحظة من قارئ خبيث قال فيها إن البرنامج عندما كان يعيد حلقات خلال فترات توقفه في الإجازات، كان يختار إعادة الحلقات التي توجد بها فقرات ساخنة ولاذعة لضمان تكرر المشاهدة، لذا يبدو أن إدارة البرنامج أرادت توجيه رسالة إلى من يهمه الأمر، ولا تستطيع أن تلومها أبدًا، فأنت هنا تتحدث عن عمل إعلامي احترافي يكلف ملايين الدولارات ولا خيار أمامه سوى الاستمرار، وقد كان بالمناسبة ناجحًا عندما كان يهدف فقط إلى الإمتاع والمؤانسة، وعليه أن يظل ناجحًا ولو حتى بدرجة أقل من المشاغبة، خصوصًا أنه كان ينادي دائمًا: «ارسم لي خط وأنا أمشي عليه»، فلا يصح أن يلومه المشاهد الجدع لو مشى فعلًا على خط تم رسمه له.

أما حكاية استبعاد الأستاذ إبراهيم عيسى من قناة «أون تي في» فتلك قصة أخرى، نتكلم عنها غدًا إذا عشنا وكان لنا نشر.

٢٥ سبتمبر ٢٠١٠

خلاص يعني خلاص

(٢)

قبل حتى أن تنجلي زوابع حجب «القاهرة اليوم» جاء خبر استبعاد الكاتب الكبير الأستاذ إبراهيم عيسى من قناة «أون تي في» ليضيف خطوطًا داكنة مهيبة إلى اللوحة السوداء، مدير القناة «ألبير شفيق» قال كلامًا كوميديًّا جدًّا في البيان الجاد الذي نشرته الصحف، قالك إيه إنه «تلقى إخطارًا من إبراهيم عيسى بعدم قدرته على الاستمرار في تقديم البرنامج خلال الأيام المقبلة؛ لأنه يريد التفرغ لعمله كرئيس لتحرير صحيفة الدستور». كان الأفضل للأستاذ «ألبير» لو سكت قبل أن يقول هذا الهراء، فكل الذين يعرفون إبراهيم عيسى بشكل مباشر أو غير مباشر، يعلمون أنه رجل موسوعي وفياض العطاء وقادر على عمل أشياء كثيرة في وقت واحد، وأنه كان يقدم ثلاثة برامج مختلفة في رمضان، باسم الله ما شاء الله، دون أن ينزل توزيع الدستور عددًا واحدًا. كانت صحيفة الشروق قد نشرت أنها علمت أن هناك ضغوطًا مُورست على مالك القناة من أجل تهدئة نبرة البرنامج، ولا أعتقد أن «الشروق» يمكن أن تنشر كلامًا كهذا دون أن تكون متأكدة منه، ولا أعتقد أيضًا أن الأستاذ «ألبير» سينفي كلامها، هو كان لا بد أن يقول ما قاله وخلاص لزوم الإخراج الشيك للموقف الذي ليس كذلك.

يبقى السؤال: لماذا سكت الأستاذ إبراهيم عيسى على نشر هذا الكلام دون أن يُعلِّق عليه بما يستحقه، ربما كان وراء ذلك تقديره للحرج السياسي الواقع على إدارة القناة، ولعله لأسباب إنسانية لم يرد أن يجعل موقفها أصعب، خصوصًا أنها تحمَّلت ثمن جعله مذيعًا يظهر على الهواء مباشرة لأول مرة بعد أن ظل دائمًا تحت سكين التسجيل القابل للمونتاج، ربما كان ينتظر الوقت المناسب ليقول حقيقة ما حدث، كدت أتصل به لأسأله،

لكنه رفع عني وعن نفسه الحرج عندما كتب بعد إبعاده في مقاله اليومي في «الدستور» الذي عنونه بعبارة «يوم له صبح»، قائلًا في مقاله:

«يعتقد مسئولون في مصر الآن وهم يتبادلون التهاني وإشارات النصر أن قبضة النظام حكمت واستحكمت، وأن مصر كلها بعون الله تحت السيطرة؛ أجهزة أمنية طبعًا مننا وعلينا وتمسك بريموت كنترول حناجر الإعلام الحكومي، فضلًا عن عمليات الختان للإعلام الخاص الفضائي».

ثم أكمل في بقية مقاله الغاضب الحديث عن مظاهرات ١٨ و١٩ يناير، منهيًا المقال بالحنين إلى «صباح اليوم الذي لم يكن يتوقع فيه أحد أي شيء فيحدث فيه شيء يغير الأيام كلها».

تستطيع بسهولة أن تربط ما حدث لبرنامج الأستاذ إبراهيم عيسى، بما كتبه في مقاله الغاضب، ثم بما كتبه مؤخرًا عن أنه إذا تم تخييره بين الرئيس مبارك وبين نجله جمال فإنه سيختار الرئيس مبارك بكل تأكيد، فضلًا عن تصريحه ذي المغزى (والنغزى) لمجلة «الإذاعة والتلفزيون» في الأسبوع الماضي بأنه يحب الرئيس مبارك ويحترمه، لكنه يعارضه سياسيًّا، وعندما يقول كاتب كبير مثل إبراهيم عيسى تصريحًا كهذا وينشر بالبنط الحياني في مجلة حكومية وبعدها بأسبوع يمنع من الظهور على الهواء في برنامج كان سببًا في نجاحه، فإن المعنى واضح ولا يحتاج إلى فكاكة، لا يكفي إعلان حب الرئيس واحترامه، إذا كنت تعارض سياساته، لأ وكمان لا يعجبك ابنه. لم تعد المحبة وحدها كافية بدون موالاة، فشروط المرحلة تغيرت.

عمومًا، وبغض النظر عن أي تفاصيل، هناك حقيقة ساطعة سطوع الفساد في هذه البلاد، ألا وهي أن الخوف وصل إلى معدلات قياسية لم يصل إليها منذ سنين طويلة كاد الناس فيها يصدقون حكاية أزهى عصور الحريات. ماذا تنتظر من الناس عندما يتم خطف طبيب محترم وابن ناس من قلب مطار القاهرة دون أي سند قانوني ودون فتح تحقيق حول ما قاله بعد عودته التي عبر عنها موقع «اليوم السابع» في عنوان مضحك: «العثور على شادي الغزالي حرب في مطار القاهرة»؟! ماذا تنتظر منهم عندما يرون مجموعة من «الشحوطة» ينهالون ضربًا على رجل في عمر آبائهم اسمه محمد عبد القدوس، لا يحمل أسلحة في الحياة سوى ميكروفونه المشحون دائمًا وصوته المبحوح وابتسامته المشرقة وضميره

النقي، ثم بعدها يرون ما يحدث لبرامج ذائعة الانتشار تتوقف دون إحم ولا دستور؟! لا تلُمْهم إذن لو خافوا على أمانهم، ولا تطلب منهم أن يخرجوا للدفاع عن حرياتهم التي يتم انتقاصها، فلا تنسَ أنهم لم ينتزعوا هذه الحريات بأيديهم، بل صِحيوا من النوم فوجدوها أمامهم وظلوا طيلة الوقت يتعاملون معها بتوجس وعدم تصديق، لا تنسَ أنهم ظلوا يتعاملون مع أصحاب الأصوات الحرة لفترة طويلة على أساس أنهم يؤدون تمثيلية لحساب النظام، ثم بعد قليل بدأوا يتعاملون معهم على أنهم ناس غير طبيعيين يغامرون برزق أولادهم، ثم بعد قليل بدأوا يتفرجون عليهم ويصفقون لهم: «ربنا يحميكو.. إنتو والله بتقولوا اللي احنا عايزين نقوله.. بس تفتكروا هيحصل حاجة.. أكيد لأ».

لا تطلب الكثير من شعب أفقدوه الثقة في كل شيء، وأخرسوه سنين طويلة، ومسخوا وعيه، وأحبطوا إرادته، وأغرقوه بأكاذيب تقول له إنهم علموه العزة والكرامة، وإنهم منحوه النصر، وحققوا له التنمية، وأنعموا عليه بالاستقرار، لا تلم الناس إذا حلموا بالحل الجاهز السهل، لا تستكثر عليهم رغبتهم في أن يحصلوا على بعض حقوقهم: لقمة عيش، وفرشة نضيفة في مستشفى حكومي، ومواصلات معقولة، وأدنى قدر من البهدلة، لا تندهش إذا أداروا ظهورهم لواقعهم المتردي وقرروا العمل من أجل قضايا تضمن دخول الجنة للمسلمين إذا حرروا «أسيراتنا المسلمات في أقبية الكنائس»، وطعنوا في عقائد المسيحيين على ميكروفونات المساجد، وتضمن دخول الجنة للمسيحيين إذا تحولوا من مواطنين إلى رعايا للكنيسة وصمتوا على وقاحة آراء الأنبا بيشوي الذي يعتبر المواطنين المسلمين ضيوفًا، ويقرر أن يطعن في معتقداتهم ليصب الزيت على نيران الفتنة التي يراد لها أن تأكل اليابس بعد أن أكلت الأخضر قبل ذلك.

يا سيدي فليغلقوا كل البرامج، وليقرفوا الصحف في عيشتها حتى تكمم أفواه كتابها بأيديها، ما الذي سيحدث يعني؟ هل ستخرب الدنيا؟ هل ستخرج الجماهير زاحفة إلى الشوارع تدافع عن حرية لم تحققها هي أصلًا؟ كبيرك ستسمع أصواتًا تشكو هنا وأصواتًا تلعن هناك، لكنها ستختفي بعد قليل عندما تعلو أصوات تقول: «هي كانت الحرية فرقت معانا بإيه في عيشتنا لكي نبكي عليها.. إنت عارف دول كانوا بيقبضوا قد إيه وبيكسبوا قد إيه.. هم يتكلمون ويكتبون ويقبضون واحنا زي ما احنا.. يا عم دول كلهم ولاد لذين.. ربنا يولي من يصلح.. وبعدين الراجل كويس مش وحش برضه.. هي البلد دي كده وهتفضل طول عمرها كده.. ربنا يخرجنا منها على خير.. هتشوف الماتش فين النهارده».

لا عيب، أزعل منك لو قلتها، هذا ليس يأسًا ولا تشاؤمًا، هو بالعكس قمة الأمل، فلم يعد هناك ما هو أسوأ مما نحن فيه، وفي ظل ظروف كهذه، لن يُحدث التغيير كاتب أو عشرة أو برنامج أو مائة، التغيير للأسف لن يحدثه سوى انعدام الأمل، لن يحققه سوى خنق منافذ التنفيس وسد مسارب التعبير عن الرأي وتكريه الناس في عيشتها حتى لا يعود لديها اختيار آخر، وهو ما يمارسه الحزب الوطني حاليًا بنجاح ساحق. أما إذا كنت مهتمًّا بمعرفة موعد التغيير فعليك أن تعلم أن التغيير سيحدث عندما تدرك أنت أولًا أن التقدم ليس مجانيًّا، وأن حرية التعبير ليست رفاهية ولا منحة، بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا سبيل لتطور حياتهم بدونها، وأن الحرية ليست حرية الفرجة والقراءة والكتابة على مواقع النت بأسماء مستعارة، بل هي حرية التعبير والاعتراض والتظاهر والمشاركة السياسية الحقيقية. وإذا كنت لا تؤمن بذلك بعد وتظن أن لديك ما تخاف عليه، فتأكد أن التغيير لن يحدث على يديك، بل سيحدثه الشباب الحر الغاضب الذي لم يعد لديه شيء يخسره بعد أن خسَّروه كل شيء. هذه هي سُنة الحياة، ومهما بدا أن حكام بلادنا قادرون على التحايل عليها فلن يستطيعوا التحايل عليها إلى الأبد.

والله من وراء القصد. أو هكذا أزعم.

٢٦ سبتمبر ٢٠١٠

بعد فتح البتاع

لي صديق مُلحِّن شاب، يمتلك تجارب سيئة مع بعض الشعراء الغنائيين من أبناء جيله، ولذلك طلب مني أن أرشح له نصًّا شعريًّا يصلح لكي يكون أغنية ناجحة تظهر فيها مهاراته التلحينية الفذة. لم يحدد مواصفات معينة سوى طلبه أن تكون القصيدة «قريبة من الناس». وبعد تفكير طويل اخترت له قصيدة كتبها الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم، ونُشرت في أعماله الشعرية الكاملة، القصيدة اسمها «البتاع». وكان عم أحمد قد كتبها في سجن الاستئناف عام ١٩٨١. كان الشيخ إمام، رحمه الله، قد لحنها منذ سنين طويلة، لكن لحنها لم يشتهر قطّ، في حين اشتهرت القصيدة نفسها أكثر، فلا تتم استضافة عمنا أحمد فؤاد نجم في أي أمسية شعرية أو ندوة ثقافية أو برنامج تلفزيوني إلا وكانت «البتاع» واحدة من أبرز القصائد التي يطلبها منه الناس، حريصين على أن يسمعوا منه القفلة المميزة التي يختتم بها القصيدة، وهي قفلة لم يتم إيجاد معادل لغوي يترجمها إلى حروف مكتوبة. عندما قرأت القصيدة لصديقنا المُلحِّن الشاب استغربت أنه لم يكن قد سمع عنها من قبل، واستغربت أكثر أنه بعد سماعه لها ادعى أنها لا تصلح أن تكون أغنية ناجحة، ولن تدخل في دماغ المستمع المصري بنكلة؛ لأنها بعيدة كل البعد عنه، ولذلك قررت أن أنشرها لكي تكونوا حكمًا بيني وبين صديقي المُلحِّن، فربما كان لديه حق.

يقول أحمد فؤاد نجم في قصيدته:

يا اللي فتحت البتاع   فتحك على مقفول
لإن أصل البتاع   واصل على موصول
فأي شيء في البتاع   الناس تشوف على طول

والناس تموت في البتاع   فيبقى ميـن مسئول
وازاي هتفتح بتاع   فـي وسـط نـاس بتقول
بـــإن هــــذا الـبـتــاع   جاب الخراب بالطول
لإن حـــتـــة بـتـــاع   جـاهـل غـبـي مخبول
أمـــر بـفـتـح الـبـتـاع   لإنـــه كـــان مـسـطـول
وبـعــد فـتـح الـبـتـاع   جـابـوا الـهـوا المنقول
نَـكَـش عشوش البتاع   وهَـــــدّ كـــل أصـــول
وفـات في غيط البتاع   قـام سَـمِّـم المحصول
وخَـــلّا لـــون الـبـتـاع   أصـفـر حـزيـن مهزول
وســاد قـانـون البتاع   ولا عِـلّـة ولا معلول
فالقاضي تَـبَـع البتاع   فـالـحـق ع المقتول
والجهل زاد في البتاع   ولا مَقري ولا منقول
والخوف سَرَح في البتاع   خَـــلّا الـديـابـة تصول
يبقى البتاع في البتاع   والناس صايبها ذهول
وإن حد قـال ده البتاع   يـقـولـوا مـش معقول
ونــاس تعيش بالبتاع   ونـاس تموت بالفول
ونــاس تـنـام ع البتاع   ونـــاس تـنـام كشكول
آدي اللي جابه البتاع   جاب الخراب مشمول
لإن حــتــة بـتــاع   مخلب لـراس الغول
بـاع الـبـتـاع بالبتاع   وعشان يعيش على طول
عَـيِّـن حَـــرَس بالبتاع   وبـرضـه مـات مقتول

نُشرت بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠١٠،
عقب صدور حكم بإلغاء حكم الإعدام على رجل
الأعمال المُقرَّب من مبارك هشام طلعت مصطفى

الأغنية والسلطان

في أواخر عام ٢٠٠٤ وقبل سنوات من تدشين فيلم «الفكر الجديد»، عدت بعد انقطاع خمس سنوات إلى الكتابة الصحفية، وكتبت مقالين في هذه الصحيفة الغراء، وقت أن كان يرأس تحريرها الأستاذ أنور الهواري، وفي المقال الثاني والأخير الذي كان يحمل عنوان «نظرية نوال الزغبي في حكم الشعوب العربية»، كتبت في نهاية المقال الفقرة التالية تعليقًا على منع إصدار صحيفة أسبوعية لم أعد أذكر اسمها، كان مقررًا أن يرأس تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ إبراهيم عيسى.

قلت يومها:

«لماذا يخيفهم إبراهيم عيسى إلى هذا الحد؟ هل ستخرب البلد لو سمحت له أن يصدر صحيفة؟ لماذا تم منعه خلال ٨ سنوات من إصدار ١٠ صحف بشتى طرق المنع الديمقراطية والتشريعية؟ كان إبراهيم عيسى يصدر «الدستور» وكانت الأعلى توزيعًا في مصر، وكان الفساد منتشرًا والظلم سائدًا والاسمه إيه ولا مؤاخذة على ودنه، لم يتغير شيء ولم تتعدل الأحوال، وعندما أغلقت صحيفته لم يخرج الشعب في مظاهرات حاشدة يطالب بعودتها؛ لأن الشعب وقتها كان مشغولًا بمظاهرات حصول مصر على كأس الأمم الإفريقية، هل غاب عنكم ما فعلتموه بالشعب المصري الذي لم يعد يعترض في عهدكم إلا على حكام الكورة؟ هل لا زلتم تخافون من مارد رميتم به في قمقم الغلاء والبطالة والفقر والنكد والتفاهة، ورميتم المفتاح في بحر الطوارئ؟ لماذا وقد فعلتم كل ذلك يخيفكم وجود هذا الكاتب وحده بينما تسمحون لكل من هب وهبهب بالتواجد والانتشار؟ الإجابة: لأنه لا يعترف بقواعد اللعبة التي وضعتموها أنتم وحدكم؛ لأنكم تعلمون أنه كاتب ليس له أول، يعني لم يتم إطلاقه من خط الإنتاج إياه، وأنتم تريدون أناسًا

لها أول حتى يكون لها آخر عند اللزوم، ولأنه لا يؤمن بحرية الأستك التي اخترعتموها وصرنا بموجبها أحرارًا في أن نبدي مدى حبنا لهذا العهد، هل نحبه قوي أم هل نحبه بتحفظات، أما أن يكرهه إبراهيم ويسعى لتغييره أو حتى الاعتراض عليه في صحيفة من ورق وحبر فهذا ما لا تحتمله حرية الأستك أبدًا. كنت سأدعو أن يردكم الله إلى عقولكم، لكنني سألت نفسي ما إذا كان الله قد خلقكم بعقول أساسًا».

لو لم أكن أخبرك في بداية هذه الفقرة أنني كتبتها قبل حوالي سبعة أعوام، لظننت أنني كتبتها للتو واللحظة تعليقًا على إقالة الدكتور السيد البدوي رئيس حزب الوفد المعارض جدًّا للأستاذ إبراهيم عيسى من رئاسة تحرير الدستور بطريقة في غاية الليبرالية والشرف والرجولة والحنكة السياسية، بعد أقل من ٢٤ ساعة من نقل ملكية الدستور إلى الدكتور البدوي رسميًّا، وبعد محاولات فاشلة دامت أكثر من أسبوعين لإقناع صحفيين كبار بقبول منصب رئاسة تحرير الدستور فور أن يطلب منهم قبوله.

نهايته، ليس عندي كلام كثير يمكن أن يقال للدكتور السيد البدوي الذي لعله يعتقد أنه لم يرتكب خطأً على الإطلاق؛ لأن «من حكم في ماله ما ظلم»، لذلك سأترك مسئولية كهذه للشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم الذي ضمه البدوي لحزب الوفد؛ لعله يهديه الآن بعض قصائده الشهيرة. أما الأستاذ الكبير إبراهيم عيسى فلا يبدو كل كلام الدنيا كافيًا لمساندته وتقديره، ولا يحضرني الآن سوى قصيدة قديمة اسمها «الأغنية والسلطان» لأعظم شعراء العرب محمود درويش، هي التي تسعفني وحدها في هذه الظروف العصيبة، لأهديها إليه وإلى كل صحفي مصري شريف يضحي بحريته وأمانه من أجل ما يعتقد أنه الحقيقة. وإلى كل قلم حر يحارب العبودية للفساد والظلم والإفقار، وإلى كل من يمتهن الكتابة فيهينها عندما يعتقد أن الصمت على ذبح أقلام زملائه ـ حتى لو اختلف معهم ـ يمكن أن يكون منجاة في الدنيا والآخرة، وإلى كل مواطن لا يكتفي بالكلام، بل يسعى للعمل بكل ما بوسعه من أجل بلاد لا تصادر الرأي ولا تعتقل الكلمة ولا تفتش في الضمائر. وأخيرًا أهديها إلى كل قامعٍ فاسد العقل مُعتَلّ المزاج خَرِب الروح، كلما نظر إلى المرآة اعتقد أن العيب في المرآة:

«لم تَكُن أكثرَ من وصفٍ لميلادِ المطر.. ومناديلَ من البرقِ الذي يُشعلِ أسرارَ الشجر..

فلماذا قاوموها؟.. حين قالت إن شيئًا.. غير هذا الماء.. يجري في النَّهَر؟... ولماذا

عذَّبوها.. حين قالت إن في الغابة أسرارًا.. وسكينًا على صدر القمر.. ودمُ البلبل مهدور على ذاك الحجر؟

ولماذا حبسوها؟.. حين قالت إن وطني حَبلُ عَرَق.. وعلى قنطرة الميدانِ إنسانٌ يموتُ.. وظلامٌ يحترق؟

غَضِبَ السلطانُ.. والسلطانُ مخلوقٌ خيالي.. قال إن العيب في المرآة.. فليخلد إلى الصمت مغنيكم.. اسجنوا هذي القصيدة.. غرفة التوقيف خير من نشيد وجريدة..

أخبروا السلطان.. أن الريح لا تجرحها ضربة سيف.. وغيوم الصيف لا تسقي.. على جدرانه أعشاب صيف..

وملايين من الأشجار.. تَخضَرُّ على راحةِ حرفٍ..

أخبروا السلطان.. أن البرقَ لا يُحبَس في عُودِ ذُرَة..

للأغاني منطق الشمس وتاريخ الجداول.. ولها طبع الزلازل..

والأغاني كجذور الشجرة.. فإذا ماتت بأرضٍ.. أزهرت في كل أرض..

كانت الأغنية الزرقاء فكرة.. حاول السلطان أن يطمسها.. فغدت ميلاد جمرة..

كانت الأغنية الحمراء جمرة.. حاول السلطان أن يحبسها.. فإذا بالنار ثورة».

٦ أكتوبر ٢٠١٠

لو كُنَّا زَيّ

لعمنا أحمد فؤاد نجم ورفيق دربه الشيخ إمام أغنية جميلة اسمها «آه لو كنا زي» أطلقاها عقب الثورة الإيرانية، تقول كلماتها المتحسرة على حال مصر:

«آه ياخَيّ وآه ياخَيّ.. كُنّا نملا الدنيا ضَيّ.. بس آه لو كُنّا زيّ.. ألف آه وآه ياخي.. كُنّا جبنا الشمس من برج الأسد.. واديناها للعيال غزل البنات.. يطبعوها ع الهدوم والكراسات.. يشبكوها ورد في شعور البنات.. ينظموها عُقد من شر الحسد.. يضوي نوره لما يضوي في كل حارة وكل حي.. بس آه لو كنا زي.. ألف آه وآه ياخي.. كنا والمظلوم إذا هاجم جريء.. كُنّا لو كان الخميني عَمّنا.. والمعارضة يد واحدة عندنا.. دُسنا شاهنا وأمريكانه بنعلنا.. وابتدينا الثورة من أوسع طريق.. كان تمنتاشر يناير في الشوارع لسه حي.. بس آه لو كنا زي».

لأسباب كثيرة لم أعد مغرمًا بتلك الأغنية بنفس درجة غرامي القديم بها، حتى عشر سنوات مضت كنت أحب أكثر الكوبليه الثاني من الأغنية، الآن أصبحت أحب الكوبليه الأول أكثر، ربما لأنني أصبحت عجوزًا قبل الأوان، وربما لأن الفوضى لا يليق أن تكون حلمًا، وربما لأن ما آل إليه حال الشعب الإيراني تحت حكم الثورة الإسلامية بعد رحيل خاتمي عن السلطة، والقمع الوحشي للإصلاحيين، واضطهاد أصحاب الرأي والفكر، كل ذلك لم يعد مشجعًا على أن تستحضره وأنت تغني من قلبك قائلًا: «بس آه لو كنا زي». لا يتسع المقام هنا لشرح موقفي هذا تفصيلًا، لكن دعني أوجزه لك إذا كنت مهتمًّا بأنني عاهدت نفسي طالما عشت وكان لي عمر ألا أعطي ولائي ولا تعاطفي لنظام قمعي مستبد أيًّا كانت عظمة الشعارات التي يرفعها،

سواء كانت دينية أو قومية أو أممية، فيكفينا ما تجرعناه من خيبات الأمل على أيدي أنظمة كذابة ضحكت علينا بالشعارات والأحلام والخطب ثم سقتنا وسقت شعوبها الويل والسواد. بالطبع لن يتوقف بقاء أي نظام في الدنيا على ولائي له أو تعاطفي معه، لكن بقائي أنا متصالحًا مع ذاتي ومحترمًا لنفسي سيعتمد على ولائي الدائم لحرية الإنسان أنَّى وجدت في بقعة من بقاع الأرض، وعلى عدائي المطلق لكل هواة القمع وإن تخفوا تحت أقنعة الخوف على الدين أو حماية الوطن من الأفكار الشريرة أو عدم زعزعة الاستقرار.

تغير فهمي لأغنية نجم وإمام، لكن حبي لها لم يتغير قطّ، ولذلك لم أحذفها قطّ من قائمة الأغاني المفضلة في «البلاي ليست»، لكنني أصبحت أغنيها وأنا أستحضر شعوبًا أخرى، تتعدد وتتنوع مع تعدد وتنوع مظاهر التغيير التي تجتاح العالم، ولم تعد مقتصرة على شعوبه المتقدمة التي أصبح التغيير معلومًا لديها من الدين بالضرورة، بل وصل بي الحال إلى أن أغنيها وأنا أقول لنفسي بحرقة: بس آه لو كنا زي شعوب كنا نعدها حتى خمسة أعوام مضت قد مضت إلى غير رجعة وخرجت من حسابات الكون، فإذا بها تنتفض وتتغير وتقاوم وتتحدى ما ظنه البعض مصيرًا محتومًا لا فكاك منه.

في الأسبوع الماضي قلتها لنفسي بحرقة شديدة: بس آه لو كنا زي.. شعب فنزويلا الذي قرر حوالي نصف ناخبيه أن يوجهوا ضربة موجعة للرئيس «هوجو تشافيز»، فيمنعوه وحزبه من الاحتفاظ بالأغلبية البرلمانية التي يحتاجها لضمان تطبيق سياسات «اشتراكية القرن الواحد والعشرين» التي يدعو إليها منذ فترة، وسخّر من أجلها كل وسائل الإعلام والدعاية في بلاده، وقاد معارك سياسية ضارية من أجل اكتساح الانتخابات البرلمانية التي اعتبرها مقدمة لفوز كاسح في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠١٢ كان يعتبره في جيبه، لكن حصول المعارضة على حوالي ٥٢ في المائة من الأصوات بعد توحدها في اتحاد ديمقراطي أربك حسابات «تشافيز»، الذي لم يحصل على أغلبية الثلثين اللازمة لتمرير قوانين أساسية، أو إجراء تعيينات مهمة في مؤسسات مثل المحكمة العليا، من دون التفاوض مع المعارضة الموحدة، أو حتى محاولة شق صفها بتقديم تنازلات سياسية مهمة تجعله يكسب ولو خمسة أصوات إضافية تجعله يمرر قوانين تمنحه صلاحيات استثنائية لسن القوانين في شكل مباشر وسريع.

المعارضة التي تبدو منتعشة للغاية بانتصارها أعلنت أنها تدرك أهمية الانتصار الذي حققته؛ لأن نتيجة الانتخابات، كما قال الناطق باسم تحالف المعارضة لوكالات الأنباء: «أكدت وجود بديل أمام فنزويلا يفضل تلاقي أشخاص مختلفين جدًّا لكنهم يتشاركون في مبدأ إمكان التفاهم عبر الحوار». لم تحقق المعارضة ذلك الانتصار من فراغ، فقد انحاز لها شعب اختار الحركة على الفرجة، شعب اختار أن يموت على أبواب لجان الانتخابات بدلًا من أن يموت وهو جالس في بيته، شعب أدرك أن بقاءه مكتفيًا بمصمصة الشفايف والتوليع في بعضه البعض سيدفع به إلى الفناء، شعب طفح به الكيل من «أزمة الانقطاع المتكرر للتيار الكهربائي، والجمود الاقتصادي، والتضخم القياسي، وارتفاع الأسعار الجنوني، وارتفاع معدلات الجريمة لتصل إلى معدل قتيلين كل ساعة». وبالمناسبة هذه هي نُص الأسباب التي لخصت فيها تقارير وكالات الأنباء أسباب هزيمة «تشافيز» الذي كان قد اكتسب شعبيته الساحقة قبل ذلك، والتي لا زالت متنامية من دفاعه عن مصالح الطبقات الفقيرة وتركيزه على البرامج الاجتماعية الداعمة للطبقات الشعبية، ومع ذلك فإن كل وعوده وبرامجه وشعاراته لم تكف لمنحه الضمان المطلق لجعله المستبد العادل والمخلص لشعب فنزويلا، وكل ذلك بفضل فارق خمسة أصوات حققتها المعارضة.

لست فنزويليًّا لكي أقيم سياسات «تشافيز» أو أُصدر حكمًا عليه، صدقني كنت أحب أن يكتسح الانتخابات وينال ما يتمناه، على الأقل مكافأة له على دعمه الرجولي لفلسطين التي بعناها وربح البيع كما تعلم، لكن أنا أريد و«تشافيز» يريد والشعوب تفعل ما تريد، أتحدث عن الشعوب التي تريد أن تتطور وتتقدم وتعلم أنها لن تأكل من الشعارات ولا من الأونطة، الشعوب التي لا تعترف سوى بنتائج الواقع، ولا تشيل جمايل للحاكم طالما لم يقدم لها ما ينفعها، الشعوب التي لا تحن إلى الطغاة الزاهدين؛ لأنها ضجت من أشباه الطغاة الفاسدين، الشعوب التي لا تنظر إلى الماضي، بل تنظر دائمًا إلى المستقبل، الشعوب التي لا يسعدها أن تكون في قلب وعقل الرئيس طالما ظلت أحوالها منيلة بستين نيلة، الشعوب التي تؤمن بأن الله لم يخلقها فقط لكي تصلي وتصوم وتعتمر وتحج، بل لكي تعمر الأرض وتقيم فيها العدل وتصلح فيها بعد إفسادها، الشعوب التي لا تعتقد أن هناك مخلصًا سيهبط عليها من السماء إذا لم تصنعه هي على الأرض، الشعوب التي لا تستجيب للمستبدين عندما يضحكون عليها

ويفهمونها أن العيب فيها وليس في حكامها، ويوهمونها أن عليها أن تتغير جذريًّا إذا أرادت تغيير أحوالها، ماذا وإلا فهي تستحق حكامها إلى الأبد، بينما تمتلئ الأرض بشعوب كثيرة أدركت أن مفتاح صلاحها في تغيير حكامها أولًا، الشعوب التي عندما تقرأ كيف تتغير، وتتطور، وتتعلم كيف تطالب بحقوقها، ستجد نفسك تغني من أعماق قلبك مع نجم وإمام «آه ياخي وآه ياخي.. بس آه لو كنا زي».

٧ أكتوبر ٢٠١٠

السيد الليبرالي

ربما كان الوجه المشرق الوحيد لجريمة ذبح صحيفة الدستور هو أنها أكدت للمتشككين أن المسلمين والمسيحيين من أبناء هذا الوطن لا زالوا قادرين على العمل المشترك من أجل خفض هذا الوطن، بدليل أن رجل الفضاء والدواء السيد البدوي وشريكه رجل المدارس الغالية رضا إدوارد قررا دون ضجيج ولا صخب أن يقفا متعانقين على أنقاض صحيفة الدستور، ولم يفعلا ذلك مجانًا كما اعتاد زبائن موائد الوحدة الوطنية، بل دفعا فيه ستة عشر مليون جنيه، وشوف انت مبلغًا كهذا يعمل كام مائدة وحدة وطنية؟

الدكتور البدوي نفى مرارًا وتكرارًا أن تكون هناك صفقة من الحزب الوطني لإبعاد الأستاذ إبراهيم عيسى عن الصحيفة التي اصطنعها على عينه وجدد بها دماء الصحافة المصرية وكتب بها فصلًا مشرقًا ممتدًّا في تاريخها وأقض بها مضاجع المستبدين والفسدة وقدَّم للصحافة المصرية جيلًا مشرقًا لامعًا من الكتاب والصحفيين والفنانين. أنا بالطبع أصدق الدكتور البدوي، لكن معرفتي بعبقريته في مجال البيزنس، جعلتني أستشيط غضبًا عندما وجدت أنه قام بذبح صحيفة الدستور، في أغلى عملية ذبح في تاريخ الصحافة، وبدد آمال الكثيرين فيه كبديل جاد عن أراجوزات المعارضة، فضلًا عن هز الثقة التي بدأ الملايين يستعيدونها في حزب الوفد بشكل أقض مضجع الزعيم مصطفى النحاس في قبره، وكل ذلك ببلاااااااش، ثم يتصور أنه بإعلان بيع أسهمه في صحيفة الدستور لشريكه رضا سيعفي نفسه من مسئولية ذبح الصحيفة وإسكات صوت إبراهيم عيسى.

طيب، أنتم تعرفون الدكتور السيد البدوي، لكن هل تعرفون الأستاذ رضا إدوارد؟ لم أعرفه شخصيًّا لسوء حظي، لكن تصريحاته التي تنشر كثيرًا في الصحف هذه الأيام دون صور شخصية له، توحي بشخصية كوميدية من الطراز الرفيع، لدرجة أنني أفكر في

أن أقوم بتحويل أوراق أبناء أقاربي ومعارفي إلى المدارس التي كتبوا أنه يمتلكها، لعلهم «يلقطون» قدرته على صناعة النكتة، يقولون في الصحف إنه قال لصحفيي الدستور المحتجين على إقالة أستاذهم: «أنا ممكن أطلّع الجرنان ده برجلي بكرة»، نُشِر هذا الكلام في أكثر من موضع ولم أقرأ ردًّا منه عليه، فظننت أن من نشروه يفتئتون على الرجل، لكنني بعد أن شاهدت الأعداد الصادرة من الدستور بعد رحيل إبراهيم عيسى عنها، تأكدت أن «رِجل» الأستاذ رضا ضالعة في هذه الأعداد لا محالة، وأغلب الظن أنه لم يكن يرتدي جوارب في أثناء تطليعه لها.

الأستاذ رضا قال في تصريح لوذعي نشرته له صحيفة الشروق: «لو اجتمع الرئيس مبارك بكل رؤساء العالم وقرروا إعادة إبراهيم عيسى إلى رئاسة التحرير فلن أعيده». فكرت بعد قراءة التصريح أن أقوم بزيارة مفاجئة للدكتور مصطفى الفقي، لأستعير محموله أبو «برايفت نمبر» ثم أتصل منه بالأستاذ رضا وأقلد صوت الرئيس قائلًا بصوت غاضب: «إيه الكلام اللي بتقوله ده يا رضا.. هيّ حصَّلت.. رؤساء عالم إيه اللي أقعد معاهم عشان أتكلم عن إبراهيم عيسى.. رَجّع إبراهيم يا رضا»، ثم أقفل الخط فورًا، لنرى في اليوم التالي السيد رضا وهو يعانق إبراهيم عيسى ويحب على رأسه أمام عدسات الكاميرات، وإلى جوارهما الدكتور البدوي بابتسامته المشرقة الملتصقة بوجهه منذ عودة حزب الوفد الجديد، وهو يعلن للصحفيين والدموع تترقرق في عينيه بحكم عاطفته الجياشة التي تقلب بدموع كلما وقع قرار إقالة قائلًا: «يا إخواني ما جرى كان مجرد كابوس والحمد لله أننا أفقنا منه بفضل مكالمة السيد الرئيس، ولذلك أعلن استقالتي من الاستقالة التي قدمتها من رئاسة مجلس إدارة الدستور، وأعتذر للمائة وخمسة وثمانين صحفيًّا الذين حاولت إقناعهم خلال الأيام الماضية بأن يتولوا رئاسة تحرير الدستور بأي مبلغ يطلبونه، وأعلن عن إنتاج عمل تلفزيوني ضخم عن حياة الأستاذ رضا إدوارد يقوم ببطولته كلٌّ من الفنان رضا إدريس والفنان إدوارد اللذين سيلعبان معًا شخصية الأستاذ رضا، بعد الحصول على الموافقات اللازمة من الأجهزة المختصة».

نعم فكرت أن أفعلها وأكذب، وأنا أعرف أن الكذب خيبة، لكنهم يقولون إنه مباح إذا كان بغرض إصلاح ذات البين، فما بالك إذا جاء بهدف إنقاذ الدكتور السيد البدوي من ورطاته المتكررة التي بات يتعثر فيها كلما فتح فمه هذه الأيام، فهو يقول كلامًا ينفيه شريكه رضا بعدها بساعات، ثم يقول كلامًا قاسيًا بحق إبراهيم عيسى في غيابه، وعندما

يواجهه إبراهيم على الهواء كما رأينا في قناة المحور يلين له القول، وها نحن بعد أيام طويلة من الاستماع إلى تصريحات الدكتور البدوي لم نعد نأمل في أن نجد لديه حلولًا لمشاكل مصر، بقدر ما بتنا نأمل في أن نفهم منه كلمتين على بعض في موضوع إبراهيم عيسى الذي لم نفهم كيف يمكن أن تتفق إقالته مع مبادئ الليبرالية وثقافة الحوار وأخلاق الوفد العريقة، حتى بات الناس في بر مصر يسألون الله ألا يكتسح الدكتور البدوي انتخابات مجلس الشعب القادمة ويصل إلى كرسي الرئاسة، بعد أن اتضح أن الدكتور الليبرالي خُلقه ضيق، فعندما يختلف معه رئيس تحرير يقيله في اليوم التالي غيابيًّا، دون حتى أن يأخذ ويعطي معه في الكلام، لذلك يمكن للشعب أن يجد نفسه وقد تمت إقالته من البلد إذا اختلف مع رئيسه السيد البدوي، على أن يقوم شريكه السيد رضا إدوارد في اليوم التالي بتطليع الشعب برِجله.

١٠ أكتوبر ٢٠١٠

اللبش

رجاء حار: احرص على ألا تعتذر عن الكتابة هذه الأيام. أما إن كنت مريضًا أو على سفر أو مزنوقًا، فلا تنشر اعتذارًا عاديًّا أو غير محدد، لو سمحت اجعل صيغة الاعتذار هكذا «فلان يعتذر عن عدم كتابة مقاله لأن لديه ظرفًا خاصًّا شخصيًّا قد لا يهم حضرتك معرفته، لكن ما يهمك أن تعرف أنه لم يكتب مقالًا تم منعه من النشر ولا توجد عليه أية ضغوط قهرية، وحتى الآن لم يركب الوزة كما ركبها الذين من قبله». انشر الاعتذار هكذا لكي لا تتبرم إذا اعتذرت عن عدم الكتابة من عدم تصديق الناس لك بأنه لا توجد أي أسباب غامضة وراء عدم كتابة مقالك، وأولًا وأخيرًا احمد الله على إنعامه عليك بأن جعلك من الذين يسأل الناس عنهم إذا لم يكتبوا، وليس من الذين يسأل الناس عنهم «لماذا يكتبون أساسًا؟».

«لا مفيش.. أنا بس افتكرت إن في حاجة، أصل الأيام دي الدنيا فيها لبش». سمعت هذه الجملة أكثر من مرة يوم الأربعاء الماضي عقب نشر اعتذار لي عن عدم كتابة الاصطباحة، فوجدت نفسي مشغولًا بالبحث عن معنى محدد لكلمة «اللبش» التي تبدو أنسب كلمة لوصف ما نعيشه في هذه الأيام التي يسودها اللبش. ولكي لا أبدو كمن «فَسَّر الماءَ بعد الجهد بالماء»، ذهبت لأبحث في المراجع اللغوية المتاحة لي عن معنى اللبش، يبدو أنه ليس لكلمة اللبش أصل فصيح، وإلا لكنت وجدته هو أو أحد مشتقاته في «لسان العرب» لابن منظور أو في «المعجم الوسيط»، ربما كان له وجود في معاجم أخرى لم تكن في متناول يدي، لذا سأبحث عن معاجم اللهجة العامية في المكتبة التي تلبشت الكتب على رفوفها، أخذت أتأمل في المعاني المختلفة التي نتداولها لكلمة اللبش، هل هي أقرب إلى كلمة «مُلبَّد» الفصيحة، ألسنا نقول بالفصحى: إن الجو مُلبَّد بالغيوم، ونقول بالعامية: إن

الجو «مِلَبِّش اليومين دول»، لكننا نقول أيضًا: «جتتي اتلبِّشت»، ونقول عن بعض الناس إنهم «لَبَش»؛ أي أننا نستخدم نفس الكلمة للتعبير عن معنى القلق ومعنى الريبة ومعنى التجمد الذي يحدث بفعل الخوف، وأحيانًا يحدث بفعل الغموض.

أخيرًا وصلت إلى معجم فرج للعامية المصرية والتعبيرات الشعبية في النصف الثاني من القرن العشرين، فوجدت واضعه المهندس سامح فرج يؤكد أنه لم يجد كلمة اللبش في أي من معاجم اللغة العربية التي استعان بها، لكنه يُرجح أن تكون كلمة قبطية مستشهدًا بكتاب «التحليل العام في لغة العوام» لأيوب فرج إبراهيم، الذي يقول إن الكلمة أصلها باللغة القبطية «ليبش» ومن معانيها: عطارة، نفاية، تفل، راسب، كما يقال لبش لوبش أي لبشة قصب أي حزمة من القصب. ولذلك يقال «اتلبش مكانه» أي تجمد وتخشب في مكانه بسبب الفزع، يعني صار كلبشة القصب أو حزمة القصب من شدة الفزع، ويقال ناس لبش أي ناس سلوكهم مثل سلوك العصابات الإجرامية، أي أنه سلوك يدعو للفزع والخوف. أما التلبيش فهو: عمل حزم من عيدان الذرة لتدعيم المنحنيات على نهر النيل حتى لا يهدمها الفيضان. أما كلمة لبشة فهي تستخدم في الهندسة المعمارية وتعني الفرشة التي توضع لأساس المبنى، وتتكون من قاعدة واحدة مستمرة أسفل المبنى بكامل مساحته.

هكذا إذن يا سادة اتضح أن «اللبش» معنى مصري خالص ننفرد به دونًا عن باقي الشعوب العربية، وربما عن باقي شعوب الأرض والله أعلم. اللبش فلسفة حياة ورثناها عن أجدادنا الذين عايشوا اللبش أجيالًا وراء أجيال، لدرجة أنهم بنوا حياتنا على اللبش فصار أساسًا لها وقاعدة مستمرة، ولذلك يمكن أن تفهم لماذا نحن دائمًا نتوجس خيفة من كل شيء، وحتى عندما يبدو لنا أن الدنيا قد تغيرت وتطورت نختار أن نظل في حالة التلبش دون أن نفارقها؛ لأننا ندرك أن أسباب اللبش لم تزل بعد، وحتى عندما يقول لنا صانع اللبش إنه أصبح بمقدورنا أن نمارس حرية التعبير دون لبش نفضل ألا نصدقه، ونختار مواصلة الفرجة بإشفاق وتعاطف مع الذين اختاروا الخروج من التلبيشة الأبدية وقرروا ألا يكونوا عيدان قصب خائفة متجمدة، فنحن نعلم علم اليقين أن من الأفضل أن تكون عود قصب متجمد وقانع بمكانك في التلبيشة، خيرًا من أن تكون عود قصب معصور أو مكسور.

ربنا عادل، ولذلك في كل بلاد الله يتغير خلق الله ويتطورون وينكسرون ثم ينتصرون،

يقعون ثم يقفون مجددًا، فقط لأنهم اختاروا أن يكونوا كما خلقهم الله، بشرًا أصحاب إرادة وعزيمة واختيار. أما نحن فالاختيار الوحيد الذي قمنا به هو اختيارنا لأن نكون عيدان قصب «متلبشة»، يضعنا الحاكم في المكان المناسب لنا من حقول عزبته؛ لأنه الأدرى بمصلحتنا ونحن من غيره سنضيع في مهب الريح، ولذلك نحن نهتف له ولذريته من بعده بالبقاء وطولة العمر، ولذلك نحن دائمًا جاهزون من أجلهم بلافتاتنا وحناجرنا وبؤسنا وأكلنا لبعضنا البعض في داخل التلبيشة التي نظنها أبدية، دون أن ندرك أن تلبيشنا لن يحمينا إلى الأبد، بل كبيره أن يضمن لنا بعض الوقت الإضافي قبل أن يأتي علينا الدور في دخول العَصَّارة.

١٦ أكتوبر ٢٠١٠

الرئيس بخير.. عقبال مصر

متى ينصلح حالنا؟ بالتأكيد يشغل بالك هذا السؤال كثيرًا، تردده لنفسك كلما اصطدمت بأحوالنا المقلوبة، أو حاولت أن تتحاشى الاصطدام بها، أو سألت الله أن يكفيك شر الاصطدام بها. قد يرى البعض أنه لن توجد أبدًا إجابة محددة لهذا السؤال المركزي المصيري الذي حارت البرية فيه، لكنني أحب أن أفاجئك بأنني أمتلك تلك الإجابة، ليست هذه جهالة مني أو محاولة لاستعراض عضلات فكرية متوهمة ولا حتى ادعاء بامتلاك الحقيقة، أنا أمتلك الإجابة، حتى اقرأ وشوف وحاسبني بعد القراءة.

سينصلح حالنا يا سيدي عندما تصحو يومًا من النوم وتمضي سائر يومك وصولًا إلى موعد نومك في المساء دون أن تسمع الجمل الآتية: «بناء على توجيهات السيد الرئيس، لقد أنعم الله على مصر برئيس عظيم وقائد حكيم، وقد تفقد سيادته موقع الحادث في لمسة أبوية حانية، بفضل السياسة الحكيمة التي ينتهجها السيد الرئيس، حفظ الله لمصر رئيسها»، وما إلى ذلك من العبارات التي تتردد في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية والمشمومة، تلك العبارات التي تشعر عندما تسمعها أن هذا الوطن متوقف وجودًا وعدمًا وتعاسة وفرحًا وعظمة وشقاءً على شخص واحد، السعادة يصنعها هو والشقاء يمسحه هو والإنجازات نابعة منه والإخفاقات ليس مسئولًا عنها، كلامه حكمة وأحلامه أوامر وتوجيهاته حكيمة وقراراته تاريخية وزياراته حاسمة، يعدل الدستور وقتما يشاء ويضعه على الرف عندما يشاء، ليس من حق أحد أن يحاسبه أو يسأله عن قراراته أو يطلب فهمها، ليس من حق أحد أن يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، حاضر البلاد مرهون بإرادته ومستقبلها وقف على تفضيلاته واختياراته. أليس هذا واقعنا بالله عليك؟ ألسنا نعيش هذه الحالة المأساوية؟ فكيف إذن نطلب التقدم وننشده ونسعى إليه؟

وكيف سينصلح حالنا ونحن نعيش زمن حكم الفرد الذي لم يعد له مكان إلا في أحط بقاع الأرض، وقريبًا لن يعود له مكان حتى في أحط بقاع الأرض؟

بالمناسبة مستعد لسحب كل كلامي هنا لو أتى لي أحد بسطر أو قصاصة ورق من أي صحيفة أو وسيلة إعلام في أي دولة انصلح حالها في الغرب والشرق، بها جملة من الجمل الآنفة و«المؤنفة». بالطبع لن يجد أحد كلامًا من ذلك هناك على الإطلاق، ففي بلاد الله التي انصلح حالها لم يعد هناك رئيس ملهم ولا قائد تاريخي ولا زعيم أوتي الحكمة، الرؤساء بشر زائلون بالانتخابات وليس بعزرائيل، ولذلك فهم مخافة الزوال بالانتخابات، لا بد أن يذاكروا دروسهم جيدًا ويتحملوا مسئولياتهم بشجاعة، ولا بد أن يكون حولهم مستشارون لا يخافون من اطلاعهم على الحقيقة، ولا يختارون لهم من يقول لهم ما يريحهم، ولا بد أن يحسبوا حساب شعوبهم جيدًا في كل قرار يتخذونه، ويشرحوا لها لماذا اتخذوا هذا القرار ولماذا انتهجوا تلك السياسة.

ببساطة، الرؤساء هناك يعملون عند الشعوب، ولدينا الشعب يعمل عند الرئيس، لدرجة أنك تشعر عندما تقرأ للكثيرين من كُتاب الصحف القومية، أو عندما تتابع أداء الإعلام الرائد سابقًا، الشفاف حاليًا، أن أهله يتصورون أن المواطن لا بد عندما يصحو من نومه صباحًا أن يسجد لله شاكرًا على أنه حباه برئيسه المحبوب التاريخي، ولا بد أن يسأل نفسه وهو على سجادة الصلاة أو وهو يصلي قبل تناول طعام الإفطار: «يا ترى سيادة الرئيس مبسوط النهارده؟.. مزاجه حلو.. موده لطيف.. يومه عامل ازاي.. يا رب يكرمه ويرزقه برزقنا ويجعل استفتاحه لبن بإذن الله»، بينما الحقيقة أنه لا أحد يفعل ذلك حتى الذين مردوا على النفاق، فهم يصحون كأي إنسان طبيعي أو حتى شاذ، كل منهم يفكر في حاله ومآله، وكيف سيمضي يومه على خير، وكيف سيسرق إذا كان حراميًّا في موقع المسئولية، أو كيف سينجو من السرقة إذا كان مواطنًا، كل إنسان منغمس في مسئولياته وهمومه ومشاكله، تمامًا كما ينبغي أن يكون الرئيس منغمسًا في مسئولياته تجاه شعبه، وحاملًا لهمومهم ومشكلاتهم وأوجاعهم، وهو عندما يفعل ذلك ليس بحاجة لأن نشكره عليه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيه عنا.

ليس معقولًا يا ناس أن يصبح كل ما يهم مسئولي هذه البلاد وموظفيها ومنتسبيها وأغلب كتابها وإعلامييها هو أن يكون الرئيس بخير حتى لو لم يكن الوطن كذلك. ليس

معقولًا أن يكون مصير البلاد بيد شخص واحد في دولة يقولون إنها دولة مؤسسات، وإنها دولة متحضرة، وإنها تعبر إلى المستقبل. أي مستقبل هذا الذي يصنعه شخص واحد؟ أليس مُحزنًا أنك إذا سألت أحدًا في مصر عن مستقبلها سواء كان خراط مواسير أو خراط بنات أو وزيرًا سياديًّا أو زبالًا بمكافأة شهرية ستكون الإجابة واحدة لدى كل هؤلاء: «العلم عند الله.. ربنا يلطف بينا»؟! أليس مُخجلًا أن لا تمتلك بلد علمت العالم الحكمة والحضارة والتوحيد إجابة توحد الله عن مستقبلها؟! دعونا يا قوم نصارح أنفسنا ونبحث عن إجابات لهذه الأسئلة، بغض النظر عن رأينا في الرئيس مبارك، وما إذا كنا نؤيده أو نعارضه، دعونا بالله عليكم نخرج من أحكامنا حول شخصه لنفكر بجدية في مستقبل بلادنا، دعونا نتذكر أن التاريخ سيسجل أن مصر عاشت سنوات طويلة كأنها عبارة تسبح في بحر المجهول، لا أحد على متنها يدري ماذا سيحدث لها بعد لحظات، وماذا ستفعل لو اندلع بها، لا قدر الله، حريق مفاجئ أو تعطلت أجهزة القيادة أو اكتشف ركابها أنها تسير بالبركة.

إن المؤسف أن حكام بلادنا يظنون أن تقدمها سيأتي بتغيير الديكور السياسي لها، تمامًا كما يظنون أن تغيير برامج التلفزيون يأتي بتغيير ديكوراتها، وشقلبة تسريحات مذيعاتها، وتغيير المتعهد الذي يورد بدل مذيعيها. بينما التقدم لا يصنعه إلا أن يشعر كل مواطن أنه شريك في الوطن لا أجير في العزبة، وأن يدرك أنه قوي جدًّا لدرجة أنه يستطيع أن يحاسب أعلى رأس في الدولة ويحتج عليه ويحاكمه لو أخطأ، بل ويزيحه عن منصبه عبر صناديق الانتخابات لو وجد أنه عاث في الأرض فسادًا أو أنه لم يحقق له ما وعده به، عندها فقط سيشعر الإنسان المصري بأن له قيمة وكرامة ولازمة، والإنسان الذي يشعر بأن له قيمة وكرامة ولازمة لا محالة سيؤدي أفضل أداء ممكن في حياته، وسيكون عضوًا فاعلًا في المجتمع لا مجرد كائن «مرنَّخ» يزحف ذاهلًا عن كل ما حوله، وعندها سيفعل المواطن المصري ما عليه من التزامات على أكمل وجه؛ لأنه سيضمن أنه عندما يطالب بنيل حقوقه كاملة سينالها، ولو أدى كل إنسان في بلادنا ما عليه من التزامات ولم يسكت على ضياع حقوقه لأصبحنا أعظم الأمم كما كنا، ولما تطلب منا ذلك قرونًا، بل لحدث التغيير في سنين تمامًا كما حدث في بلاد الله المتقدمة.

لكننا بصراحة وللأسف الشديد نشبه حكامنا، نحن مثلهم نفضل حكم الفرد على حرية الفرد، ونعشق سحق الحرية الفردية التي جاءت كل الأديان لتكرسها وسعت كل

المذاهب الإنسانية النبيلة لإعلائها، ولذلك نقمع بعضنا البعض ونتخلى عن حرياتنا التي فطرنا الله عليها، من أجل أن تكون هناك حرية وحيدة لفرد واحد يتصرف كيف يشاء ويفعل بنا ما يشاء، ونضع أيدينا على خدودنا منتظرين ما سيفعله لكي نحدد مستقبلنا ومصيرنا، لو قرر أن يحارب ويغامر بالبلاد فليفعل، ولو قرر أن يسالم وينبطح فليفعل، ولو قرر أن يعدل الدستور فليعدله، ولو قرر أن يدعق الدستور فليتدعق الدستور، يفعل بنا ما يشاء، تاركين للأقدار أن تفعل به ما تشاء، ثم نظن أننا سنورد على جنة، ونحسب أنفسنا بشرًا، مع أن البشر من غير حرية ليسوا أكثر من سوائم. والغريب أن حكامنا وكتابهم وإعلامييهم لا يملون برغم كل هذا من الحديث عن عظمتنا وتفوقنا وحلاوتنا وجدعنتنا، مع أن الأمة التي يرتبط مصيرها بمصير شخص واحد هي أمة بائسة وثكلتها أمتها.

١٨ و١٩ أكتوبر ٢٠١٠

السيد والبلكونة

لا أريد أن أنافس الشيخ حسن البنا في مقولته الشهيرة: «لذلك خلق الله الندم»، التي اختارها أستاذنا وحيد حامد ببراعة لينهي مسلسله عن «الجماعة»، لكنني أجد نفسي هذه الأيام أردد كثيرًا مقولة أخرى هي «لذلك خلق الله العبط»؛ فالعبط وحده هو الذي يمكن أن يجعلنا نصدق ما يقوله رئيس حزب الوفد السيد البدوي عن براءته من ذبح صحيفة الدستور بإقالة مؤسسها ورئيس تحريرها الأستاذ إبراهيم عيسى.

البدوي يريد أن يقنعنا أن ما حدث لإبراهيم عيسى ليس وراءه ضغوط حكومية عليا ولا يحزنون، فكل الحكاية أن شريكه السابق رضا إدوارد فجأة لم يعد يستلطف إبراهيم عيسى، فقرر أن يقيله ويرمي الملايين التي دفعها على الأرض، وعلى الجميع ألا يربطوا أبدًا بين ما حدث في الدستور وبين إقالة إبراهيم عيسى من قناة «أون تي في»، وإغلاق برنامج «القاهرة اليوم»، ومنع الأستاذ حمدي قنديل من الكتابة في «الشروق»، ومحاولات تطفيش الدكتور علاء الأسواني منها، ومنع المحطات الإخبارية من البث المباشر استعدادًا لتزوير الانتخابات القادمة، وقمع القنوات الدينية بدلًا من ترشيدها، وتقييد الرسائل الإخبارية على التليفونات المحمولة، والبدء في سن السكين لذبح الضحية القادمة «الفيس بوك»، وأخيرًا التلميع المستمر للبدوي في صحف الحكومة وقنواتها، كل هذا يريد منا الدكتور البدوي أن ننساه لنصدق حدوتة أغلى خناقة في التاريخ «خناقة تكلفت ١٦ مليون جنيه»؟ فضلًا عن محاولات البدوي المستميتة لتشويه صورة إبراهيم عيسى بتصويره مرة أنه متهرب من الضرائب، ومرة بأنه يتحايل على القانون، ومرة بأنه فاسد إداريًّا، وما إلى ذلك من ترهات، وأقول «ترهات» بقلب جامد بعد أن استمعت إلى الأستاذ إبراهيم وهو يحكي مساء الاثنين داخل نقابة الصحفيين وأمام حشد من مثقفي

مصر وفنانيها القصة الكاملة لما حدث، كاشفًا تفاصيل مذهلة ومؤسفة عن دور السيد البدوي وشريكه رضا إدوارد في ذبح الدستور.

للأسف لن تقرأ كل التفاصيل التي قالها إبراهيم عيسى في أي من صحفنا الحكومية أو المستقلة، لكن وقبل أن يجد جهابذة الحزب الوطني حلًّا للتخلص من شبكة الإنترنت تستطيع أن تشاهد كلمته كاملة وبالصوت والصورة على العديد من مواقع الإنترنت، لتدرك أن السيد البدوي أخطأ عندما راهن على صمت إبراهيم عيسى الذي برأ ساحته من كل ما نسبه البدوي إليه، بل وكشف مفاجآت مذهلة، ليس فقط عن السيد البدوي، بل أيضًا عن محاولة شراء هشام طلعت مصطفى لكل من الدستور وصوت الأمة بثمانية ملايين دولار مُصرًّا على وجود إبراهيم ووائل الإبراشي فيهما لمدة سبع سنوات مقابل تغيير سياسة الصحيفتين التحريرية كهدية منه لوالده الرئيس مبارك بنص تعبيره المسجل لدى الأستاذ وائل الإبراشي.

كنت في كلمتي في تلك الأمسية التضامنية مع صحفيي الدستور قد قلت كلامًا عن الدكتور البدوي أتمنى أن يصله، إما عن طريق وسائل الإعلام وإما عن طريق نفس الوسائل التي أبلغته بأن هناك مقالًا للدكتور البرادعي وصل إلى إيميل إبراهيم عيسى بعد أقل من ساعة من وصول المقال، سأكرر هنا مما قلته أسئلة طرحتها على الدكتور البدوي وأتمنى أن يجيبني عنها: «يا دكتور إذا كنت تريد أن تقنعنا بأن ما حدث للدستور وراءه قفلة حصلت بين رضا إدوارد وإبراهيم عيسى ليس إلا، وبوصفك زعيمًا ليبراليًّا حريصًا على الحريات، ولا تعمل لمصلحة أحد، لماذا لم تتدخل لإنهاء الأزمة بشراء حصة إدوارد والحفاظ على الدستور وعلى إبراهيم عيسى، خصوصًا أنك كما قلت في صحيفة الفجر لا تشكو من أي أزمات مادية وثروتك ما شاء الله وصلت ٦٠٠ مليون جنيه وتزيد، ولا يبدو من طريقتك المدهشة في الإنفاق السخي على المسلسلات والبرامج أن لديك مشاكل مادية تمنعك من ذلك؟ أم أن المنهج الذي تقترحه في الإدارة السياسية هو منهج «كل ما تتزنق بيع نصيبك واخلع»؟ هل تريد مني أن أذكرك بالزعيم العظيم مصطفى النحاس الذي كان ينحاز دائمًا إلى الصحف المصادرة والمضطهدة ويدافع عنها ويتبناها، بل ويمولها من ميزانية الوفد لتعاود الصدور، ليقف على الدوام أسدًا هصورًا يحمي مبدأ سعد زغلول الخالد «الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة»، بدلًا من أن يفعل مثلما فعلت في برنامج العاشرة مساء فيصف صحيفة من أعظم التجارب الصحفية في تاريخ مصر بأنها بلكونة وقعت على

راسه وهو ماشي في الشارع؟ وإذا كان زعيم الوفد سيواجه وقوع بلكونة على رأسه بهذا الشكل المرتبك والمتعثر والمؤسف فكيف ننتظر منه إنقاذ أمة؟».

وإلى أن تجيب عن هذه الأسئلة يا دكتور لا يبقى إلا أن أترحم على الزعيم مصطفى النحاس الذي لم يكن من مبادئه أبدًا أن «كل حاجة تخلص بالفلوس». الفاتحة للنحاس أمانة والنبي.

٢٠ أكتوبر ٢٠١٠

حتى آخر قمر

يا أيها الناس، من قال لكم إن القمر الصناعي المصري «إيجبت سات ١» قد اختفى في ظروف فنية غامضة؟ أو أنه قرر أن يهرب كما هرب المهندسون الذين يشغلونه إلى دول عربية لكي يتمكنوا من شراء الطماطم لأولادهم؟

الحكاية وما فيها أن القمر الصناعي كان على ما يبدو من المؤيدين لتوريث مقعد الرئاسة لجمال مبارك، وبينما كان يجلس في مداره الفضائي يحلم بيوم التغيير القريب، سمع صوتًا هاتفًا في البرية، وقادمًا من جهة شقيقه القمر الصناعي «نايل سات» الذي لم يفكر بعد في الهرب برغم كل ما ينوء بحمله من أكاذيب، أو ربما أنه لم يعد قادرًا على الهرب من فرط ما ينوء بحمله من أكاذيب، بالطبع لم يكن الصوت الهاتف غريبًا على القمر «إيجبت سات»؛ فقد كان صوت قطب الحزب الوطني وشيخ الطريقة الصفرية الدكتور علي الدين هلال الذي كان يعلن في قناة الحرة أن الرئيس مبارك باق باق، وأن الذين يؤيدون رئاسة جمال مبارك إما منافقون وإما واهمون، لذلك قرر «إيجبت سات ١» أن ينفد بجلده من المذبحة القادمة التي كان البعض يظن أنها ستطال مؤيدي الدكتور البرادعي فقط، فإذا بها ستطال كل من تسول له نفسه أن يختلف مع منهج «حتى آخر نفس» الذي كان الرئيس مبارك قد أعلنه في خطاب تاريخي لم أعد أذكر تاريخ إلقائه بالضبط، لكنني أذكر أنني صدقت ما قاله الرئيس، مع أن البعض يومها ظن أنه كلام يمكن أن يندرج تحت بند الكلام المرحلي الذي يمكن أن تغيره الظروف، كما غيرت من قبل تعهد الرئيس بألا يرشح نفسه لفترة رئاسية أخرى، ثم أجبرته الظروف على الاستمرار في الحكم خمس فترات رئاسية كاملة، وها نحن بحمد الله داخلون على الفترة السادسة.

أسمعك تقول لي: «طيب وانت زعلان ليه.. ألم تكن من المعارضين للتوريث..

ألا ينبغي أن تسجد لله شكرًا وتحمده على أن وفق الرئيس إلى هذا القرار التاريخي الذي أنهى كل أحلام البعض في تحويل مصر إلى عزبة.. ألا ينبغي أن تشكر الرئيس مبارك لأنه قال فصدق، ووعد فأوفى بما قاله منذ سنين في حوار مع مجلة أكتوبر، أن مسألة التوريث ليست مطروحة على الإطلاق لأن مصر ليست سوريا». إذا كنت قد قلت لي ذلك فعلًا، فدعني أبشرك بأنني لست بحاجة إلى مناسبة لكي أحمد الله، فقد أوصانا الله بأن نحمده في السراء والضراء، وهو سبحانه الذي لا يحمد على مكروه سواه. أما عن شكر الرئيس مبارك فصدقني أنني كنت سأشكره من أعماق قلبي لو كان قد قرر أن يدخل التاريخ كأول رئيس سابق في تاريخ مصر، بعد أن يكون آخر قراراته التاريخية إجراء تعديلات دستورية تقصر مدة الرئاسة على فترتين رئاسيتين فقط، وأقسم بالله غير حانث إنني ساعتها سأحشد كل ما أملكه من قدرات مادية ومعنوية من أجل دعم المرشح الرئاسي الذي يختاره الرئيس مبارك؛ لكي لا تقع مصر في يد قوى التطرف أو تدخل في نفق مظلم كما يقول بعض الخائفين من التغيير، سواء كانوا مخلصين أو غير ذلك، بشرط ألا يكون هذا المرشح نجله جمال أو أحد أصحاب نجله من أصحاب الأعمال، لاحظ أنني قلت نجله ولم أقل ابنه؛ لكي يعطيني الأستاذ مفيد فوزي درجة في الأدب مع الرئيس، ولاحظ أنني قلت أصحاب ولم أقل رجال؛ لأن الرجولة أدب وليست مليارات جاءت ببركة قروض المودعين، ولاحظ أنني لم أقل أسماء المرشحين المحتملين؛ لأنني أؤمن أن دوائر الحكم مليئة برجال محترمين أكفاء يصلحون لتولي مسئولية البلاد، وأنت تعلمهم وأنا أعلمهم، وتعلم لماذا لا أذكر أسماءهم، وحتى لو كانت الأيام ستثبت عدم صلاحية أحدهم أو جميعهم لتولي الرئاسة، فإن ضمان عدم تأبيد الرئاسة بعد تعديل الدستور يكفي لضمان مستقبل البلاد التي عندما نقول مرارًا وتكرارًا إنها بحاجة ماسة إلى التغيير، فنحن نقصد أنها بالضرورة تحتاج إلى تغيير الرئيس، وليس إلى تغيير رقم فترته الرئاسية من خمسة إلى ستة.

يبقى عندي سؤال أخير، إذا قاطعتني وقلت لي: «سؤال إيه تاني في يومك اللي مش فايت ده؟»، وهنا دعني أطمئنك أنه سؤال لا يخص مستقبل مصر التي ما المسئول عنها بأعلم من السائل، اعتبره السؤال الوحيد الذي أصبحت مهتمًا بالعثور على إجابة له: «طب القمر «إيجبت سات ١» واختفى، فين بقه «إيجبت سات ٢»؟ ولَّا مفيش «إيجبت سات ٢» أساسًا؟».

٢٥ أكتوبر ٢٠١٠

حرية الأستك

لماذا لم يتعاطف الكثير من كتابنا وإعلاميينا الذين يرفعون شعارات الليبرالية مع القنوات الفضائية الدينية التي تعرضت للإغلاق بقرارات تعسفية؟ ببساطة لأنهم أناس مننا وعلينا، يؤمنون مثلنا بالحرية أُم أستك التي نقوم بمطها حسب الطلب لكي تصبح فقط على مقاس الأفكار التي نؤمن بها، في أعماقنا يقبع «هتلر» متعدد المقاسات، يرفع دائمًا شعار «لا حرية لأعداء الحرية»، أو «لا حرية لأعداء الدين»، أو بمعنى أصح «لا حرية لأعداء رأيي»، ودائمًا نحن مستعدون وجاهزون لتدبيج عرائض منطقية لتبرير قرارات القمع والمصادرة التي تخص المختلفين معنا في الرأي.

«خلي المكنجي يرجع المنظر»؛ لكي نتذكر أغلب تفاصيله المحزنة معًا: المسلمون غاضبون من قناة مسيحية ينعق فيها صوت سفيه يتطاول على الإسلام. والقيادات الكنسية تدين ذلك الصوت أحيانًا وتتجاهل إدانته أحيانًا أخرى، وتطالب دائمًا بإغلاق قنوات إسلامية تهاجم دينهم وتمارس التمييز ضدهم. أهل السُّنة يغضبون من رأي لشيعي موتور يتطاول فيه على السيدة عائشة فيطالبون بقوة بإغلاق القنوات الشيعية، وعندما تغلق الحكومة القنوات الدينية السُّنية والشيعية معًا، ينسى الليبراليون والعلمانيون والمختلفون مع هذه القنوات مقولة التنويري الحقيقي «فولتير»: «قد أختلف معك في الرأي لكنني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمنًا لحقك في إعلان رأيك»، فمن وجهة نظرهم أن هذه القنوات تستحق الإغلاق لأنها «تنشر التطرف والجهل والخرافة والشعوذة»، وكان ينبغي أن تغلق من زمان. والمتدينون غاضبون ويرون أن الأولى بالإغلاق قنوات الانحلال والخلاعة والمجون وهي من وجهة نظرهم قنوات الأغاني والأفلام التي يطلبون إغلاقها بدلًا من أن يكتفوا بإدانة إغلاق قنواتهم فقط. والحكومة المباركة حققت أغراضها كاملة تحت

غطاء «قنابل الدخان الكثيف» على حد التعبير العبقري للإعلامي الكبير حسين عبد الغني، وضربت منابر الاختلاف والشغب، لكي يسود صوت واحد هو صوت الاستمرار من أجل الاستقرار؛ استقرار الرئيس على كرسي الحكم.

لست محتاجًا لأن أذكرك بأنني لست من المعجبين بالقنوات الدينية التي أُغلقت، لكنني بأمانة ضد قرار إغلاقها؛ لأن تأييد إغلاقها بهذه الصورة المتعسفة لا يستقيم أبدًا في رأيي مع أي إيمان حقيقي بالحرية. وإذا كنت معارضًا لما تذيعه هذه القنوات فإن من واجبي أن أواجهه بالحجة والمنطق والرأي وليس بالإغلاق والقمع، وليس من حقي أو حق أحد وصف مَن فيها بالتطرف والجهل والتخلف؛ لأن هذه أحكام مطلقة تشبه وصف بعض من في تلك القنوات للمختلفين معهم بالكفر والإلحاد والعلمانية، وكان من الأولى أن نبذل مجهودًا في التعامل مع تلك القنوات بأن نحدد البرامج التي تحتوي على ما نقول إنه جهل وتطرف وتخلف، مثلما حددنا البرامج التي تنشر الشعوذة وتمارس مهنة الطب زُورًا وعدوانًا، لنقوم بعدها بمواجهة هذه البرامج قضائيًّا وإعلاميًّا، وندخل في حالة من الجدل والحوار معها، بدلًا من أن نصفق لإغلاق قنوات بأكملها كانت تقدم لملايين المتدينين مادة دينية وروحية من حقهم أن يتلقوها حتى لو لم يكن ذلك يعجب بعضنا. سيرد البعض بأن هذه القنوات تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الاختلاف معها؛ لأنها تتحدث باسم الدين، وفي بلادنا التي يسودها التدين الشكلي ويسهل فيها جذب الجماهير باسم الدين، تكتسب هذه القنوات سطوة لم يعد من المقبول السكوت عليها، ولهؤلاء أقول إنهم مخطئون إذا ظنوا أن إغلاق تلك القنوات سيكون في خدمة المجتمع، بل إنني أعتقد أن ذلك القمع قدم خدمة مجانية للفكر المتشدد الذي سيكتسب شرعية إضافية من كونه ممنوعًا، والممنوع مرغوب، خصوصًا إذا كان ممنوعًا يأخذك إلى الجنة بعد أن أغلقت في وجهك أبواب الدنيا. ببساطة، هذا الفكر المتشدد لم يعد مطالبًا الآن بأن يعمل في النور تحت رقابة المجتمع ومظلة القانون، بل سيكون بمقدوره أن يتمطى ويتمطع ويأخذ راحته على الآخر عبر مواقع الإنترنت التي تستحيل رقابتها، والسيديهات التي ورثت إمبراطورية كاسيتات التشدد، وبدلًا من أن نسمح بوجود تلك القنوات في النور ونخضعها لقانون حاسم وحازم، سنُنشئ في كل زاوية قناة سرية لا يعرف أحد ما تبثه، ولا يعلم إلا الله كم تنظيمًا تكفيريًّا سيخرج لنا على أيدي تلك القنوات السرية.

كل هذا بالطبع لا يفكر فيه عباقرة المنع في أروقة الحكم الذين يظنوننا عُبطًا لكي

نصدق أنهم خائفون على العقل المصري، مع أنهم هم الذين خربوه طيلة السنين الماضية بتعليم مهترئ، وإعلام مدجن، وثقافة نخبوية، وسياسات أمنية تظن أن السلاح أخطر على المجتمع من الفكر، ولو كان هؤلاء صادقين حقًّا في خوفهم على العقل المصري لبادروا منذ إطلاق النايل سات إلى إنشاء منظومة تشريعية تُجرم التمييز الديني والتكفير، وتمنع ممارسة الدعوة والطب والفتوى دون ترخيص ولا مؤهلات، ولوضعوا منظومة إجرائية تجعل الظهور على شاشة تلك القنوات أمرًا يخضع للعلم والتخصص والثقافة والموهبة وليس لأمن الدولة، الذي لم يكن شيخ من أولئك الشيوخ يظهر دون رضاه، كما قال الدكتور صفوت حجازي في صوت الأمة قبل أسبوع. لو كان ذلك قد حدث منذ البداية لما كانت قد ظهرت تلك القنوات التي تاجرت في الدين واتخذته بضاعة، ولكانت الساحة ستظل مقصورة على القنوات الدينية التي تمارس رسالتها الحقيقية في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والارتقاء بعقول الناس وأخلاقهم، ونشر المعرفة الدينية الواعية والوسطية التي لا يمكن أن يكرهها رجل رشيد.

لكن من قال إن ذلك لو حدث كان سيكون في مصلحة نظام يعرف أن بقاءه مرهون بالجهل والتطرف و«التدين المنقوص»، حتى لو كان في ذلك فناء البلاد والعباد.

الثلاثاء ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠

حكاية لها العجب

«استولى على الابن خوف رهيب عندما طلبه أبوه للقائه فجأة، كان يعلم أن والده لن يتسامح مع غرامه الرهيب بالاستحواذ على كرسي العرش، كان يعلم أيضًا أن الأب لن يفلت الكرسي بسهولة، وأن عواقب غرامه باحتلال مقعد أبيه ستكون وخيمة، كان الخلاف بينهما قد وصل إلى أقصى ذروة قبلها بأسابيع، عندما تلقى من أبيه خطابًا قاسيًا حافلًا بالاتهامات آلمه بشدة، ومن ساعتها كما يقول المقربون منه لم يعد ينام الليل؛ لأنه أصبح يرى كوابيس تقول له إنه يمكن أن يسبق والده إلى القبر بفعل فاعل.

تنفس الابن الصعداء بعد أن خرج من قصر والده سالمًا غانمًا، لكن الأحلام والكوابيس عادت لتتصارع في عقله من جديد، لم يكن ينكر قطّ أن والده قدم الكثير لمصر، لكنه كان يحلم لها بما هو أفضل، يروي خلصاؤه كيف بكى عندما رأى جمال وسحر الريف الأوربي لأول مرة قائلًا لهم: «إنني أبكي لأنني أرى هذه البلاد تنعم بالرخاء بينما مصر تعاني من البؤس برغم أن أرضها أكثر خصوبة، سوف أغير كل ذلك إذا أمد الله في عمري». كانت فكرة وقوع مصر البائسة لعشرات السنين تحت يدي والده القاسيتين تطارده في كل رحلاته إلى أوربا، يحكون أنه وقف في رحلة أخرى فجأة وهو يجلس أمام رسام يقوم برسم لوحة له ليضرب مقعدي الكرسي بيديه ويصرخ قائلًا: «لا لن أموت، لقد خلقني الله لخير مصر ولجعلها غنية، وكي يعم الرخاء فيها لن يكون من الإنصاف أن يدعوني الله إلى جواره قبل أن أعيد الحياة إلى مصر وأجعلها سعيدة».

يومًا بعد يوم كان يشعر أن الوقت قد تأخر على وصوله إلى العرش، وأن والده قد

تأخر كثيرًا في التنازل له عن مكانه، كانت تطارده نبوءة غامضة سمعها أن «حياة والده ستكون أطول من حياته»، ولذلك انتابته مشاعر غامضة عندما عرف أن والده قد مرض بـ«الدوسنتاريا»، وأن الأطباء الذين نجحوا في وقف المرض أعطوه أدوية أثرت على قدراته العقلية، لكن والده كان قادرًا دائمًا على أن يحتفظ بهيبته ومظهره المتماسك. صحيح أنه في فترات مرض والده كان هو الذي يسير أمور البلاد فعليًّا، لكنه لم يقتنع بذلك، بل أراد أن تكون له السلطة الفعلية، فبدأ يعزل أباه عن الناس لكي تصبح حركته محدودة داخل قصره، ولذلك كان يخشى من فكرة شفاء والده الذي سيجعله يدفع حياته ثمنًا لكل عمل فعله لتدعيم سلطته رسميًّا، كان يعلم أن أباه سيعتبر ما قام به اغتصابًا للسلطة، ولذلك بدأ يفكر في اللجوء إلى قوى خارجية لكي تساعده على تشكيل مجلس وصاية يسيطر به على الحكم، لكن مساعيه كلها خابت عندما تعرض فجأة لمرض عضال في الرئة، وبدأت تنتابه نوبات نزيف حاد تصاحبها حمى تدفعه إلى الهذيان علنًا بأحلامه في احتلال كرسي العرش والإطاحة بأبيه وهو يستعرض ما فعله للبلاد من خير، وما ينتظرها من خير أكثر لو حكمها بدلًا من أبيه.

لكن النبوءة الغامضة تحققت واختاره الله إلى جواره قبل أبيه بعد أن تغلب عليه المرض الغامض الذي لم يعلم أحد من أين جاءه ولا كيف جاءه، والغريب أن كل الذين كانوا إلى جواره ويغذون خيالاته بالوصول إلى كرسي الحكم تخلوا عنه بعد وفاته، ليتم دفنه في مشهد مهين تجنبًا لغضب أبيه الذي كان الابن قد عزله عن مقاليد الحكم، والأب لم يُخفِ سعادته عندما علم بوفاة ابنه في لحظة من لحظات الصفاء الذهني التي كانت تنتابه أحيانًا بين فترات الخرف الطويلة، فقال لمن حوله: «لقد عاقبه الله وأماته لأنه حبسني، لكنني أجد نفسي لكوني أباه مجبرًا على أن أترحم عليه وأدعو له».».

الحكاية يرويها بحذافيرها، بل وبِنَصِّ عباراتها السياسي الأسطورة نوبار باشا في مذكراته المذهلة التي ترجمها عن الأرمنية «جارو روبير طبقيان» وأصدرتها «دار الشروق» منذ عام ونصف. أما الابن فهو القائد العسكري الشهير إبراهيم باشا، والأب هو محمد علي باشا الذي تشبث بكرسي الحكم حتى آخر لحظة برغم حالته الصحية المزرية، وكان في لحظات إفاقته القليلة يطلب من حرسه أن يطوفوا به شوارع القاهرة لكي يلتقي بشعبه الذي كان ينظر إليه بوصفه مجذوبًا بركة، فيما كانت تستولي عليه خيالات أحلام

لم تتحقق له بأنه يفتح مدنًا بعيدة ويستولي على عروش أكبر من عرش مصر الذي أجلسه المصريون عليه بأنفسهم، ثم تفرغوا بعد ذلك لممارسة دور المحكومين ومتابعة الصراع على العرش بينه وبين ابنه، ثم بعد أن رحل بعد ابنه بشهور استسلموا لحفيده عباس ثم للذي يليه ثم للذي يليه، أما باقي الحكاية فأنت تعرفها، أم أنك تريد أن أذكرك بها لكي أقلب عليك المواجع؟

٣١ أكتوبر ٢٠١٠

تحالف المرضى

إن أنس لا أنس أبدًا ذلك الرجل مهيب الطلعة الذي قابلني في معمل تحاليل كبير وأنا بصحبة والدتي، كان قد خرج لتوه دائخًا من عملية أخذ عينة، وعندما لمحني وأنا أجلس في غرفة الانتظار المزدحمة بأناس من مختلف الفئات والطبقات والأعمار وَحّد بينهم المرض والأمل في الشافي المعافي، اتجه نحوي وهو يغالب الدوار الناتج عن البنج، وقال لي دون مقدمات: «بص بقه أنا عايز أقول لك حاجة لازم تقولها لكل الناس اللي في البلد دي.. ممكن تيجي معايا لحظة بره»، اعتذرت له لأنني بصحبة والدتي ولا أريد تركها وحيدة، فنظر إليها وقال لها: «ألف سلامة يا افندم.. بص بقه عشان ما أعطلكش لازم تقول للناس كلها إن رجال الأعمال الـ...» وقال شتيمة بذيئة ثم نظر إلى والدتي معتذرًا: «أنا آسف يا افندم.. بس ما لقيتش كلمة تانية تنفع.. خربوا البلد بالمبيدات والكيماويات والأكل البايظ.. والحكومة الـ...» قال شتيمة أكثر بذاءة ثم لم يكلف نفسه عناء الاعتذار ونحن لم نزعل بصراحة لأنه حتى أمي عفة اللسان تدرك أن الحكومة تستحق. «... سايبالهم الحبل على الغارب وعشان كده عمالين يأكِّلوا الناس في سموم جابت لنا الأمراض المهببة دي اللي عمرنا ما كنا بنعاني منها بالشكل ده». قطع حديثه المتدفق الغاضب صوت رجل فقير يرتدي جلابية رثة وينام بالعرض على ثلاثة كراسي ويتألم بشدة، كنت قد علمت أن صاحب المركز سمح له مشكورًا بالانتظار لكي يجري له التحاليل مجانًا، ولكن بعد أن يأخذ الذين يدفعون الشيء الفلاني دورهم، لم تكن تنقصنا تلك الآهات بالطبع لكي نزداد كآبة وغضبًا، عاد الرجل المهيب ليقول لي: «تقدر تقول لي ده هيلاقي ازاي مين يعالجه هو والملايين اللي زيه.. إحنا فالحين نتبرع بس لمستشفيات الأورام ومش قادرين نحط إيدينا على أساس المشكلة اللي هتخلينا مهما تبرعنا ودفعنا

في فلوس مش قادرين نوقف اللي بيحصل لنا.. عشان احنا مش قادرين نقف وقفة حياة وموت قصاد كل اللي بيبيعوا أكل غلط في أكياس وقزايز بتتباع لولادنا تحت سمع وبصر الحكومة.. مش قادرين نعرف هل اللي احنا بناكله ده صح ولَّا غلط.. مش قادرين نواجه إن اللي احنا فيه ده سببه إننا بعدنا عن الطبيعة اللي ربنا خلق بيها الأكل والشرب.. ولما لعبنا فيها عشان نكسب أكتر رحنا في داهية».

نظرت إلى أمي التي اكتفت بهز رأسها بحماس، وأدركت أنها لو لم تكن متعبة لما تركت هذا الرجل يتكلم لوحده، ولقاطعته بمداخلة طويلة حول السموم التي نأكلها في غذائنا ونتنفسها في هوائنا، ظن الرجل نظرتي مللًا فقال لي: «أنا عارف إني طولت عليك.. بس أنا موجوع أوي.. واللي واجعني مش المرض لأنه ابتلاء من ربنا.. إللي واجعني إني حاسس إنه كان ممكن ما نعياش كده وبالشكل ده لو كنا في بلد بيحكمها ناس عندهم ضمير وما بيبيعوش كل حاجة بالفلوس.. عايزك تعرف إني مش هاسكت.. مش عارف لسه هاعمل إيه.. بس مش هاسكت». ثم تركنا ومضى وهو يتسند على مرافقه.

قضيت أيام وليالي وأنا أفكر في جملته الأخيرة الموجعة: «مش عارف لسه هاعمل إيه.. بس مش هاسكت»، وأسأل نفسي عن الذي ينبغي أن نفعله جميعًا لكي لا نظل نمرض من سكات، قلت لنفسي في البداية ما ستقوله لنفسك الآن: «وماذا في أيدينا أن نفعله كمواطنين لا يملكون سوى ألسنتهم وأحيانًا أقلامهم؟». وبعد تفكير قلت لنفسي ما أتمنى أن تقوله لنفسك من الآن فصاعدًا: «لماذا لا تكون البداية في القضاء العادل الذي نثق فيه؟.. ألسنا نلجأ إليه لكي يوقف فساد الحكومة عندما تبيع أراضي البلاد برخص التراب؟.. لماذا لا نلجأ إليه لكي يوقف فساد الحكومة التي تسمح بهذا التخريب المنظم لصحة المصريين؟.. لماذا لا يتجمع ولو حتى المئات من الذين أصيبوا بهذا المرض اللعين وغيره من الأمراض الناتجة عن تلوث الغذاء والماء والهواء ويؤسسوا تجمعًا شعبيًّا يقوم بتوكيل عدد من المحامين البارعين ليلاحقوا هذه الحكومة قضائيًّا لكي تتحمل مسئوليتها تجاه تلوث الغذاء والماء والهواء؟ نريد أن نرى وزير الزراعة أمام المحكمة وهو يثبت للقضاء أنه فعل ما عليه وزيادة في ملف إفساد الزراعة، وإلا فإن عليه أن يدفع ثمن إهماله وتقصيره، نريد أن نرى وزراء التجارة والتضامن الاجتماعي والداخلية والصحة أمام المحكمة وهم يثبتون أنهم يقومون بكل ما ينبغي فعله في ملف الرقابة على الأغذية المحلية والمستوردة، نريد أن نرى كل مسئول في هذه البلاد وهو يقف أمام القضاء ليثبت

أنه أدى ما عليه في مجال عمله، ببساطة إذا كنا خائفين وعاجزين عن مساندة دعوات تغيير رأس هذا النظام الذي يتسبب في كل هذه المصائب التي تحدث لنا، فهل ينبغي أن نمرض في صمت حتى نموت؟! ولماذا لا نلجأ إلى الضغط على هذه الحكومة بكل ما في أيدينا من وسائل شرعية وقانونية؟ إنها دعوة لتشكيل تحالف للمرضى في وجه من يسببون لهم المرض، فهل تلاقي تلك الدعوة آذانًا صاغية؟ ألا هل بلغت اللهم فاشهد، ولا تأخذ كل الذين في بالي يا رب، إلا بعد أن نأخذهم إلى المحكمة؛ لأن الموت سيكون راحة لهم من شر الوقوع في شر أعمالهم».

١٤ نوفمبر ٢٠١٠

شيء من الخوف

في عصير فرغلي التقينا، وعند عصير فرغلي يطيب اللقاء. احتضنني بحرارة مبديًا إعجابه بكتابتي ومواقفي وببعض أفلامي، حمَّلني السلام إلى عدد مهول من الكتاب والفنانين والممثلين والمُخرجين والمغنين، ثم عزمني على عصير قصب، وعندما أصررت على أن أرد له العزومة طلب «فراولة حبّ»، وعندما طلبت لنفسي واحد «فخفخينا» قال لعامل المحل: «خلِّيهم اتنين فخفخينا»، ثم حدثني عن غرامه بعدد مهول من الكتاب في عدد لا بأس به من الصحف والمجلات والمواقع، كدت أدلق قطعة موز غارقة في «الفخفخينا» على التيشيرت من فرط سعادتي بتسميعه لي فقرات كاملة كتبتها في مواضع مختلفة وتواريخ متباعدة، وبعد أن كاد صدر عاصري «فرغلي» يضيق بنا ضيق المحل نفسه، احتضنني مجددًا وقبل أن يمشي قال لي بجدية من أوشك على أن يجيب التايهة: «بس انتو متفقين مع الحكومة.. صح؟.. وإلا ما كانتش تسيبكو كده؟».

نظرت إليه نظرة رأس حربة لحكم لم يحتسب «بلانتي» صريحًا، تذكرت كيف سيكون منظري أمام محل فرغلي فرع ميدان الدقي وأمام ميدان الدقي نفسه لو اشتبكت معه بدنيًّا، لأشفي غليلي على الوقت الذي ضاع معه وعلى الأمل الذي انبثق من كلامه ثم تبدد، وعلى «الفخفخينا» التي لهطها على حسابي، لو كان لفرغلي فروع كثيرة لتهورت، لكنهما فرعان فقط، ومنعي من دخولهما سيكون أمرًا شاقًّا على النفس، كنت أستطيع أن أعتمد على عصير «توت إكسبريس» مدى الحياة، لكنني كنت مؤمنًا دائمًا بتنويع مصادر العصير، ولذلك أخذت نفسًا عميقًا وطلبت خروبًا دون أن أسأل صاحبنا هذه المرة عما يريد أن يشربه، وهو ظل حائرًا ينتظر إجابتي دون

فهم لِما ألم بي، ضربت العصير على بُقّ واحد ثم قلت له: «ألّا أنا ما اتعرفتش على اسم حضرتك صحيح»، ارتبك للغاية وأخذ ثواني ليرتجل اسمًا لا علاقة له باسمه، ولم يسعفه الوقت ليخترع سوى اسم «صادق نبيل» الذي كنت قد قرأته قبلها بيوم في بريد الجمعة، أمسكت بيده وقلت له: «شوف، أنا أهنئك على ذكائك الساحق يا أخ صادق، ومكافأة لك قررت إني مش هاسيبك لأني ما صدقت لقيتك، بكرة سأصحبك إلى تحقيق سأمثل فيه أمام النيابة العامة غدًا، وبالتأكيد ستستمتع للغاية عندما تشاهد كيف سنجلس أنا ووكيل النيابة لكي نتفق على التحقيق وكيف سنقوم بإخراجه معًا، وبعدها بيومين سأصطحبك إلى جلسة لمحاكمة إبراهيم عيسى، وبعدها بأسبوع في جلسة لمحاكمة وائل الإبراشي. يعني هتهيص بقه وانت بتشوف بنفسك لعبة السياسة قدام عينيك». كانت عيناه تزدادان زوغانًا مع كل كلمة أنطق بها، انتزع يده من يدي راجعًا إلى الخلف ومرتطمًا بشخص يرتشف بتلذذ عصير كيوي، وقبل أن يطبق الرجل في زمارة رقبته ليحمله مسئولية توسخ هدومه كان صادق الكاذب قد اختفى من المحل والميدان والدقي.

لم يكن ما قاله أخونا الطيب جديدًا بالنسبة لي وإن كان مريرًا، كنت قد تكبدت عناء الرد على كلام يشبهه بشكل منطقي مهذب في إيميلات كثيرة، وكان يخف يومًا بعد يوم مع كل حملة صحفية عاتية واطية تشن ضدي أو ضد غيري من الكُتاب، أو بعد كل سلسلة قضايا تُجرجر فيها الصحافة إلى المحاكم، أو بعد كل تصريح يطلقه مسئول ضيق الصدر بحرية الصحافة التي يعتبرها منحة من الرئيس مبارك، والذي آن له أن يسترد منحته، لكنه ظل موجودًا بشكل أو بآخر لدى قطاع من القراء الذين لم يستوعبوا بعد كل هذه السنين من معاشرة العفن الصحفي، أن هناك من يؤمن بأن حرية الصحافة ليست منحة من الحاكم، بل هي حق يجب انتزاعه بمزيد من التضحيات التي يجب أن تدفع عن طيب خاطر لكل من يريد لمصر ألّا تُهان مجددًا بنسبتها إلى حاكم أيًا كان.

اليوم وفي ظل هذه الحملات العاتية التي تواجهها الصحافة الحرة، وفي ظل هذا الإرهاب الذي يرفع شعار «كفاية عليكو لحد كده»، أتذكر صديقي المختبئ تحت اسم صادق نبيل، فأتخيله مكسوفًا من نفسه بعد أن أدرك أن ما كانت تفعله الصحف المستقلة والحزبية لم يكن لعبة قطّ، وإنما كان كفاحًا لتوسيع هامش حرية الصحافة الذي ظل ضيقًا سنين طويلة، وتوسّع بجرأة مئات الصحفيين المصريين وجدعنتهم وإيمانهم أن الصحافة

موقف بكسر القاف لا موقف بفتح القاف «يركن» فيه كل صاحب سلطة أو ثروة أو طموح سياسي حسب الطلب وعند اللزوم.

أقول لنفسي: رب ضارة نافعة، متأملًا كيف فرزت هذه الضارة مواقف الرجال ومواقف القواعد من أنصاف الرجال، وكيف كشفت من يؤمن حقًّا بحتمية التغيير الشامل في مصر، التي آن لها أن تلفظ كل من يفكر فيها كعزبة أو أبعدية، وبين من يعتنق التغيير فقط كمبدأ يستبدل فيه الوزير الفاسد حتى النخاع الذي يبيع البلد لمصلحته الشخصية بالوزير الشيك الذي يبيع البلد لمصلحة المفسدين الكبار ويكتفي بعمولته. وكيف أثبتت هذه الضارة الإعلامية هطل وخطل كل الدعاوي التي كانت تقول إن نظام مبارك كان مستفيدًا من جرأة الصحافة المصرية، وإنه يوظفها لخدمته طالما أنها لا تهز له شعرة، وهو ما كانت تتناقض معه كل الوقت حملات إرهاب الصحفيين الأحرار في بعض النشرات الأمنية، ثم أتت هذه العاصفة العاتية لتكشف أن النظام لم يكن مؤمنًا يومًا بالحرية الشاملة الكاملة للصحافة، وأنه يريدها ديكورًا يعرف مهندسو ذلك الديكور حدودهم جيدًا، ويعرفون متى يقسون ويشتدون ومتى يطبطبون ويدلعون. وكيف لا يتمتع هذا النظام بأي ذكاء يدفعنا لأن نأمل فيه خيرًا، فلو كان ذكيًّا لاستمر في التظاهر بامتلاكه ميزة سعة الصدر والإيمان بالحرية، ولاستمر في لعب دور الواثق من نفسه الذي لا تهزه رياح النقد، ولاستغل جيدًا ما أوصل إليه الناس من عدم الثقة في أي شيء، ليزيد لديهم يومًا بعد يوم الانطباع أن الحكاية فعلًا لعبة متفق عليها بدليل أن «هؤلاء مهما تكلموا دوكهمه ساكتين عليهم، وبالتالي كالعادة مفيش فايدة واحنا صح في اختيارنا السلبية والفرجة العاجزة». لو كان هذا النظام ذكيًّا لرفع سياسة الطناش بعد الأحكام القضائية الأخيرة قائلًا وبراءة الأطفال في عينيه «إنه لا تدخل في أحكام القضاء، وإنه إن كان عليه لا يوافق على ما حدث، لكن هنعمل إيه آدي القضاء وآدي حكمه!»، بدلًا من أن يخرج رأس النظام ورئيسه ليكرس هذه الأحكام في حوار صحفي لا يدع مجالًا للشك أن ما حدث كان ضمن توجه حكومي شامل؛ حوار وردت به جملة تعيدنا ثانية إلى منطق كنا نظن أن صروف الدهر قد تجاوزته: «نريد نقدًا يهدف لمصلحة المجتمع وليس لتقويض إنجازاته»؛ جملة يمكن أن يحبس على أساسها من ينتقد كوبري غمرة باعتباره من إنجازات مبارك، فما بالك بمن يمكن أن يتساءل عن طبيعة هذه الإنجازات أساسًا، جملة تعيدنا ثانية إلى عصر التفتيش عن النوايا والديمقراطية ذات الأنياب

والمخالب، حتى وإن تخفت خلف قفازات القانون، جملة تصيب من كان لا يزال مطمئنًا بالهلع؛ لأن قيادة هذه البلد لا تشعر بأن سكانه الأصليين قاربوا على التوليع في أنفسهم بجازات من شدة وطأة الإنجازات.

لقد أغلق النظام بهذه المذبحة الصحفية منفذ تنفيس الضغط الذي كان يحكم سيطرته على الطنجرة طيلة ربع القرن الماضي، دون أن يدرك خطورة ما فعله، لا أتحدث هنا عما يحذر منه البعض من انفجار قريب، فأنا لا أعتقد بأن ذلك سيحدث في مصر، فضلًا عن أنني لا أتمناه لا أنا ولا غيري؛ لأنه سيكون مدمرًا للجميع لا قدر الله، بل أتحدث عن أن منفذ تنفيس الضغط كان يحافظ بشكل من الأشكال على درجة مقبولة من فساد ما بداخل الطنجرة، وإغلاقه سيؤدي إلى المزيد من الفساد والعفونة والتحلل السريع، وهو أمر والله العظيم محزن جدًّا؛ لأن هذه البلد تستحق ما هو أفضل من أن تنظر بغيرة إلى دبي ورأس الخيمة وموريتانيا.

للأسف يعتقد النظام أن ما حدث مؤخرًا يمكن أن يخيف أصحاب الأقلام الحرة الشريفة في مصر، وهو محق في ذلك؛ فالخوف شعور طبيعي إنساني خلقه الله فينا ولا نخجل من وجوده أبدًا. لا أحد يتمنى أن تقيد حريته أو يحرم من أبنائه أو يخرس صوته، لكن الشجاعة دائمًا، واقرأوا التاريخ، كانت تنبثق من نفوس يظنها الناس خائفة، والأيدي الباطشة نجحت دائمًا في تأخير التغيير، لكنها لم تنجح ولو لمرة في إلغائه، والسجون لم تنجح في دفن الأفكار حتى الخاطئ منها، والمنافي لم تنجح في أكثر من نفي الأجساد لتزداد الأرواح تألقًا وحضورًا، والذي يؤمن بالله حقًّا وصدقًا لا مظهرة ومنظرة، لا بد أن يؤمن دائمًا وأبدًا أنه لا نافع بحق إلا الله ولا ضار بحق إلا الله، وإلا فليفضها سيرة ولا يتعب نفسه بالصوم والصلاة طالما كان يظن أن رزقه ومصيره يمكن أن يحدده أحد غير الله سبحانه وتعالى. ومصر ستظل أكبر من كل من يتصور أنه يعمل فيها جميلًا بحكمها. ونحن سنسعى لأن نكون دائمًا أكبر من خوفنا، وسنظل نحلم لها بالأفضل والأنضف، مستعينين على وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب بمولانا الشيخ إمام وهو يغني وجع مصر اليوم:

«كان جدي كبير السن.. وكان بيقول لي كلام زي القرآن.. الحق عجوز وقديم ويغرّ.. لكن ما يموتش وليه طلّاب.. والتار قنطار فوق كتف الحر.. والصبر في وقت البلوى

عذاب.. والعزم صديق في الوقت المر.. ولا غير العزم تلقى صحاب.. والأرض براح وإن داسها الذل.. تضيق بالناس والخضرة تموت.. ويعربد فيها البوم أجناس.. ولا تبقى حياة.. ولا يبقى نظام.. ولا خطوة تسير بالناس قدام.. ولا تعرف بكرة هييجي بإيه.. ولا تفهم معنى لأي كلام».

مقالة كتبتها وحياتك في عام ٢٠٠٧،
وأجريت عليها بعض التعديلات الطفيفة
فصارت كأنها مكتوبة بالأمس. ١٥ و١٦ نوفمبر ٢٠١٠

احترس.. هذا المقال به جُرعة من الأمل!

هل ستتغير مصر ونحن على قيد الحياة؟ يصادفني هذا السؤال دائمًا من أناس من مختلف الأعمار والطبقات والثقافات يجمعهم معنى وحيد هو اليأس، ودائمًا يستغرب هؤلاء عندما أقول لهم إن مصر تغيرت بالفعل وتواصل التغير كل يوم ونحن على قيد الحياة، لكن يبقى الأمر هل نريد أن ندرك هذا التغير وهل نريد أن نتفاعل معه، أم نفضل الركون لراحة اليأس ونعيم الاستموات؟

غالبًا يسخر مني بعض من أقول لهم هذا الكلام، ويتعاطف معي البعض الآخر على أساس أني «لازم يقول كده عشان يعرف يكمل»، ودائمًا أقول للساخرين والمتعاطفين إنني لو لم أكن أشعر بأمل أو جدوى من الكتابة لما كتبت، ومع أنني أدرك أن اليأس شعور إنساني طبيعي، خصوصًا في بلد كمصر تشجع عليه ويتربح القابضون على مقاليدها من ترويجه وانتشاره، كما أنني لا أعرف مُصلحًا أو ثائرًا أو حالمًا في مصر لم يصبه اليأس في فترة من فترات حياته، لكنني أيضا لم أحب مصلحًا أو ثائرًا أو حالمًا في مصر إلا ووجدته مستمرًّا في مقاومة اليأس والإحباط حتى الرمق الأخير من حياته، ولذلك مهما شهدت «وما سأشهد» من إحباطات أو تعثرات أو بلاوي مهببة، فإنني أوقن دائمًا أن مصر تتغير بالفعل إلى الأفضل؛ لأنه لا يمكن أن تموت بلد فيها هذا القدر الرهيب من المواهب في الآداب والفنون والعلوم، وهي مواهب لا يدري بها أولئك الذين لا يسعون لقراءة وسماع ومشاهدة الجديد، بل يظلون قابعين في كهوفهم التي يأنسون لها ثم يسألون لماذا يخيم الظلام دائمًا.

طب والله العظيم ثلاثة لا أذكر أنني كتبت يومًا، على كثرة ما كتبت، في مجال كنت أتخيل أنه جديد وغير مطروق إلا وجاءتني رسائل من مواطنين مصريين أغلبهم شباب،

وبعضهم ما زال يقاوم داخل مصر، وبعضهم انتشر في الأرض لطلب العلم والرزق، لأعرف من تلك الرسائل أنهم حققوا درجات علمية أو خبرات عملية في كل مجال كتبت عنه. لذلك ومن خلال هذه الخبرة الشخصية أؤمن أنه برغم كل ما تمت ممارسته من تخريب وتجهيل وتدمير للشخصية المصرية طيلة سنوات القهر والاستبداد، فإن العنصر البشري في مصر لا يزال قادرًا على صنع التغيير، وإذا سألتني متى وكيف وبأمارة إيه وأنت تظن أن أسئلتك ستدفعني لليأس فدعني أقل لك من جديد إنني لا يمكن أن أيأس وأنا أرى هذا الكم المدهش من الشباب الذي يتفاعل مع دعوات التغيير، ليس تفضلًا منه، بل لإدراكه أن مصلحته ورزقه وأمانه ومستقبله يرتبطون ارتباطًا عضويًا بالتغيير، وهؤلاء الشباب وحدهم هم الذين سيغيرون واقع مصر، أو في أسوأ الأحوال سيجبرون من يختطفونها على تحسين أوضاع المخطوفين تمهيدًا لتحريرهم في يوم من الأيام يتوقف موعده على رغبة المخطوفين في التحرر السريع.

لماذا أفتح لك سيرة الأمل والتفاؤل التي «تموِّع النِّفس» على الصُّبح؟ لأنني مؤخرًا كتبت مقالًا بعنوان «نكاح الأفكار» تحدثت فيه عن منتدى تقيمه مؤسسة اسمها «TED» لتداول الأفكار الجديدة التي يمكن أن تغير شيئًا في العالم، سواء كانت أفكارًا جنينية في طور التشكل، أو أفكارًا قابلة للتنفيذ الفوري وتحويلها إلى منتجات يتداولها الناس، كنت أتصور من خلال الرسائل والاتصالات التي جاءتني أنني جئت بالتايهة وقدمت للقراء شيئًا لا «يسدكه عكل» على رأي ستنا شويكار، لكن عددًا من الرسائل التي جاءتني كشفت لي أنني أنا المتخلف عن مسايرة حركة الواقع في مصر؛ لأنني أنا أيضًا مثل القارئ؛ ضحية لواقع الجُزر المنعزلة التي يعيش عليها أناس يحاولون أن يقدموا شيئًا ينقذنا من الغرق في بحر الظلمات العظيم المحيط بنا. ولو وجدت تلك الجزر المنعزلة من يقوم بربط أصحابها ببعضهم لقدمنا شيئًا لبلادنا غير اليأس، مع مراعاة أنني لم أكن قطّ ولن أكون من أنصار نظرية «بدلًا من أن تلعن الظلام أشعل شمعة»؛ لأنني أؤمن بوجوب لعن الظلام الذي رفع أسعار الشموع وتسبب في تدهور صناعة الكبريت.

الرسالة الأولى جاءتني من الأستاذة يامن العوامري مديرة مشروع بأحد المراكز التنموية؛ الذي فشلت في ترجمة اسمه بدقة تقول فيها:

«أردت أن أخبرك بأن «TED» ومجتمعها وجدت طريقها إلى مصر من خلال مجموعة

من الشباب الطموح، الذين أطلقوا بالفعل المنتدى الأول في مايو الماضي، ويعدون الآن للمنتدى الثاني، ويمكن أن تزور موقعهم لمزيد من المعلومات على الموقع الآتي: «http://www.tedxcairo.com».

بعدها جاءتني رسالة من الأستاذ أحمد الجوهري جاء فيها:

«أحببت أن أخبرك أن هناك مجموعة من الشباب حديثي التخرج من كلية الهندسة جامعة عين شمس قاموا بإعداد وإطلاق منتدى «TED» في مايو ٢٠١٠، ويعدون الآن للدورة الثانية منه خلال أشهر، وأنا نفسي جزء من فريق العمل الذي أطلق الحدث الأول، ويمكن أن تجد تفاصيل وافية عن المناقشات التي تمَّت فيه، والأفكار التي تم تقديمها بالفعل على موقع المنتدى (الذي نشرته سلفًا) وعلى الجروب الخاص به في «الفيس بوك»، بل وتشاهدها على «اليوتيوب» بالصوت والصورة، أخيرًا أريد أن أشكرك على الإشارة إلى هذا الموضوع في مقالك بصفتك شخصًا تقوم دائمًا بنشر الأفكار الجديدة واللامعة، وأعترف أنك دائمًا كنت تلهمني بكتابتك، وبالمناسبة ستجد على الموقع قسمًا خاصًّا للقصص الجديدة التي يروي أصحابها كيف أثرت فيهم الخطابات التي قدمها متحدثونا على الجمهور وهل كانت ملهمة فعلًا، ولك أن تعلم أنني كنت فعلًا من الأشخاص الذين ألهموا الحضور كما قيل، وأنا سعيد بذلك، يمكن أن تراجع هذه القصص على الرابط التالي: http://www.tedxcairo.com/stories/mboard.php. وأتمنى أن تنضم إلينا كمتحدث في المنتدى القادم الذي سنقوم به».

الأستاذ أحمد عيسى من الإسكندرية قال إنه كان مع أصدقاء له من إسكندرية يريدون عمل مؤتمر آخر في المكتبة بالتعاون مع «TED» «بس لظروف امتحاناتنا اللي لسه ما خلصتش ما قدرناش، بس هنحاول نعمله قريبًا إن شاء الله»، ما أثلج صدري ليس فقط أن هناك مؤتمرًا كهذا يمكن أن يقام في الإسكندرية، بل أن من يعد لإقامته طالب في مرحلة دراسية ما، حتى لو كانت مرحلة دراسات عليا، فهذا أمر يشرح القلب المخنوق.

أما الأستاذ أحمد جاد فقد أشار في رسالته إلى واحد من كُتابي المفضلين هو الأستاذ معتز بالله عبد الفتاح الذي أشارك الأستاذ أحمد وكثيرين في الحرص على قراءة مقاله اليومي الممتع والمهم في صحيفة الشروق، وكان الأستاذ معتز قد كتب أكثر من مقال عن ضرورة تشكيل بنك للأفكار في مصر يتم فيه تداول الأفكار المصرية «لعلنا نحفظ

قريحتنا الجمعية من الضياع»، ثم شكرني لأنني دللته على موقع «TED» الذي استمع فيه إلى عدة محاضرات مهمة منها: محاضرة «جوزيف ناي» صاحب مصطلح القوة الناعمة، ومحاضرة مهمة أخرى للسيدة «جيسيكا جاكلي» عن بنوك الفقراء «لا أريد أن أستبق المشاعر التي ستغمرك بعد الاستماع إليها»، لكن لا يسعني إلا أن أدعو للمسلم العظيم محمد يونس مؤسس «جرامين بنك» أو بنك الفقراء الذي حصل بسببه على جائزة نوبل للسلام، وألهم أمريكية مسيحية مخلصة هي ملقية المحاضرة لكي تنشئ موقعًا فريدًا هو «kiva.org» وقد أصبح بمثابة «فيس بوك» خاص ببنوك الفقراء في العالم. ويمكن مشاهدتها هنا:

http://www.ted.com/talks/jessica_jackley_poverty_money_and_love.html

الأستاذ باسم راشد تحدث بالإنجليزية في رسالته عن بعض الأفكار التكنولوجية التي أشرت إليها في مقالي قائلًا:

«أحب أن أؤكد أن هذه المشروعات تتطلب معيارين اثنين هما تحويل ومعالجة الصورة وخلق البيئة. خلق البيئة أمر سهل وقد بدأ منذ أن بدأت ألعاب الكمبيوتر تدخل كل بيت في العالم. لكن الجزء الأصعب هو معالجة الصور، وهي عملية تكنولوجية نادرة الاستخدام، ليس في مصر، بل وفي العالم، وأنا فخور أن أقول إننا في الجامعة الألمانية في القاهرة لدينا خبرة جيدة في معالجة الصور وقطعنا خطوات عديدة في هذا الجانب».

أما الدكتور نبيل محمد شلبي فقد تحدث عن مشروع اسمه «نبع الأفكار»؛ تم إطلاقه يوم ١ نوفمبر الجاري «لكي يرتوي منه الباحثون عن الأفكار الجديدة والجيدة لمشروعات صغيرة»، والمشروع مقتبس من كتابه «ابدأ مشروعك ولا تتردد»، والذي يبدو أنه حقق إقبالًا؛ لأنه طبع خمس طبعات، وستجد إن أحببت المشروع على «الفيس بوك» لو بحثت عنه.

أما الأستاذ أحمد عزت فقد قال في رسالة له:

«من خلال عملنا في التنمية كمؤسسة أهلية تستهدف دعم ريادة الأعمال والشركات الصغيرة والمتوسطة نجد أن أكبر الصعوبات التي نواجهها هي تغيير النهج الفكري للشباب».

ثم قال لي إن المؤسسة التي يعمل بها قامت خلال الأيام الماضية بتجربة شبيهة لما تم في «TED» ولكن بشكل مختلف قليلًا يستهدف تغيير فكر الشباب عن طريق التقائهم مع «أشخاص عاديين يتحدثون عن تجربتهم» بدون محاضرات أو تلقين للحديث في الجوانب الآتية: «الإخفاق، التأثير، الإنصاف، المشاركة، الحظ، السرعة، الثقة»، وكلها جوانب تكتسب بُعدًا خاصًّا عندما نسمع عنها من خلال تجارب قام بها أناس عاديون، قائلًا إن مؤسسته تأمل من خلال هذه الفعالية أن تزرع «في الشباب هذه القيم الأرضية والتي اضمحلت نتيجة لتوارث الاستبداد ورسوخه في وجدان الجيل السابق لشباب اليوم». أتمنى أن يرسل الأستاذ أحمد في المستقبل إلى «المصري اليوم» دعوة لتغطية الفعالية القادمة التي ستقوم بها المؤسسة ليتسنى لمن يرغب الحضور والمشاركة.

الأستاذ إبراهيم التهامي الذي لم ينورني بمعلومات حول طبيعة دراسته أو خبرته أراد أن يشرح لي فكرة الاختراع الذي توصلت إليه المخترعة «تان لي»؛ وهو عبارة عن سماعة أذن يمكنها قراءة موجات العقل وترجمتها إلى تصرفات فعلية، بحيث يمكننا مثلًا إسدال الستائر بمجرد التفكير في ذلك، وقبل أن تقول وإيه الفكاكة دي ما أقوم أقفل الستارة بنفسي، دعني أذكرك أن هذا الاختراع سيقدم خدمات عظيمة لمن يتحدون الإعاقة البدنية، بحيث يمكنهم حتى تشغيل كرسي متحرك عن طريق استخدام تعبيرات الوجه فضلًا عن العديد من الأعمال اليدوية التي لا يمكنهم القيام بها، كنت في مقالي قد تساءلت عن فكرة عمل هذه السماعة، والأستاذ إبراهيم يشرح لي أنها: «معتمدة على فكرة سلسلة الكلام «Speech Chain» أو الخطوات التي يمر بها الكلام بداية من كونه أفكارًا في مخ المتحدث إلى أن تصل إلى مخ المستمع. تبدأ الحكاية بأن يقوم المتحدث بتنظيم أفكاره ويقرر ما يريد أن يقول، ثم يضع ما يريد أن يقوله في شكل لغوي. توضع الرسالة في شكل لغوي عن طريق اختيار الكلمات والتعبيرات المناسبة للتعبير عن المعنى. هذه العملية مرتبطة بنشاط معين في مخ المتحدث الذي يقوم بتحويل هذه الأفكار أو تلك الرسالة إلى نبضات يرسلها عبر الأعصاب الحركية إلى عضلات أعضاء النطق مثل اللسان والشفتين والأوتار الصوتية. تقوم النبضات العصبية بتحريك عضلات أعضاء النطق، والتي بدورها تحدث تغيرات معينة في ضغط الهواء المحيط وهو ما نسميه بالموجات الصوتية. تنتج الحركة التي

تقوم بها أعضاء النطق موجات صوتية تنتقل عبر الهواء بين المتحدث والمستمع. هذه التغيرات التي تحدث في الضغط عند أذن المستمع تنشِّط أعضاء السمع عند المستمع، والتي تقوم بدورها بإنتاج نبضات عصبية تُنتقل عبر الأعصاب السمعية إلى مخ المستمع. وفي مخ المستمع تحدث مجموعة من الأنشطة العصبية تُعدل طبقًا للنبضات العصبية القادمة من الأذن. وهذا ما يجعلنا ندرك رسالة المتحدث. يعني هذا أن الرسالة تأخذ أشكالًا متعددة بناءً على الوسيط الذي تمر فيه، فهي في شكل نبضات كهربية وعصبية في مخ وأعصاب المتحدث تنتهي عند المتحدث بإنتاج موجات صوتية وتكتمل السلسلة عند المستمع بأن يقوم بعكس الخطوات التي فعلها المتحدث. فإذا كسرنا السلسلة في أي حلقة من حلقاتها ووضعنا وسيطًا مختلفًا يحول النبضات إلى شكل آخر غير حركة أعضاء النطق فإن الرسالة تُنقل بشكل آخر. فعلى سبيل المثال لو أن هناك جهازًا يخلق وسيطًا يمكن أن يستقبل النبضات العصبية من مخ وأعصاب الشخص المتحدث بشكل معين ويحولها إلى رسالة في شكل آخر مثل أوامر أو كلمات تكتب على الكمبيوتر مثلًا بدون أن نتكلم أو أن يكون الشخص غير قادر على الكلام نتيجة لعجز في أعضاء نطقه، ولكن ليس هناك مشكلة في باقي السلسلة فإن هذه على ما أعتقد نفس فكرة عمل السماعة التي تحدثت عنها. الأدهى من ذلك أن هناك تجارب متقدمة جدًّا لنقل تلك النبضات عبر وسيط إلى جهاز كمبيوتر يكتب ما نفكر فيه دون أن نتحدث، وأعتقد أن هذه الفكرة ستنال إعجاب مسئولي أمن الدولة في بلادنا البهية حيث إنهم لن يضطروا إلى تعذيب أي شخص للحصول على معلومات منه دون أن «يشعروا بالذنب» في أثناء التعذيب. منذ عدة سنوات وأنا في المرحلة الثانوية وقبل أن أعرف هذا الذي يسمى بسلسلة الكلام كنت أفكر في فكرة تجعلني أتمكن من نقل كل ما هو واجب عليَّ أن أحشو رأسي به من معلومات غير مفيدة حتى أضعها في ورقة الإجابة، وكنت أتخيل جهازًا يتصل برأسي وبالكمبيوتر، ونقوم بعمل عملية نسخ لكل المناهج ببساطة ونلصقها في المخ ثم نمحوها بعد الامتحان مباشرة، وواضح أن هذا سيكون متاحًا في أسواق الثانوية العامة المصرية في القريب العاجل ولا الحاجة إلى محاربة الكتب الخارجية والدروس الخصوصية لأن الطلاب بأنفسهم سيكونون في غير حاجة إلى ذلك».

انتهت رسالة الأستاذ إبراهيم التهامي المفيدة والممتعة، ولا أدري إذا كنت بعد نشر

كل هذه الرسائل تشاركني الأمل بمستقبل مصر أم لا. أنت حر في قرارك، لكن أنا عن نفسي سأغني مع فيروز وزياد الرحباني: «فيه أمل.. إيه في أمل.. أوقات بيطلع من ملل.. وأوقات بيرجع من شي حنين.. لحظات تا يخفف زعل.. وبيذكِّرني فيك لون شبابيك.. بس ما بينسيني شو حصل». وكم هو عبقري المعنى الذي التقطه زياد الرحباني العظيم: «من قال إن الأمل يجب أن ينسينا أبدًا ما حصل».

٢١ نوفمبر ٢٠١٠

عبقرية الرئيس مبارك

بالأمس شاهدت فيلمًا وثائقيًّا أمريكيًّا يقدم رؤية علمية يمكن أن تقنعك بأن العالم سيفنى فعلًا عام ٢٠١٢، كان مخرج الفيلم يسأل بحرقة عما فعلته شعوب الأرض للاستعداد لهذه النهاية الكارثية الوشيكة، لكنني لم أتفاعل مع مخاوفه لأنني كنت مطمئنًا جدًّا لأن العالم سيفنى بينما الرئيس مبارك سيكون في العام الأول من فترته السادسة بإذن الله، وسيكون وعده للمصريين قد تحقق فعلًا بأن يظل معهم حتى آخر نفس.

يشهد الله أنني لست منافقًا ولا متهكمًا عندما أشهد للرئيس مبارك بأنه يمتلك نوعًا خاصًّا وفريدًا من العبقرية. حتى لو لم تصدقني، فالله يعلم أنني صادق وجاد أيضًا، ولو قررت أن تمنح نفسك إطلالة على التاريخ المعاصر للعالم، كما فعلت أنا، ستصل إلى النتيجة التي وصلت إليها دون أن يتم منحك جزيرة في النيل أو صحيفة قومية في وسط البلد. انظر كيف كان حال العالم وقت أن تولى الرئيس مبارك حكمه، وكيف أصبح الآن. ليس أمامي أطلس ولا منفذ إلى الإنترنت، أكتب ما تسعفني به الذاكرة ولعله يكفي لإيضاح فكرتي: سقط الاتحاد السوفيتي والاتحاد اليوغوسلافي واتحاد التشيك والسلوفاك وسور برلين ونظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا، ورحل طغاة أبديون من أمثال التشيلي بينوشيه، والفلبيني ماركوس، والإثيوبي مانجستو هيلا مريام، والعراقي صدام حسين، والبنمي نورييجا، والهاييتي دوفالييه، ولن أضيع وقتك بتعداد قادة الدول الديمقراطية الذين رحلوا عن كراسي الحكم طواعية وكلهم عرفوا الرئيس مبارك والتقطوا صورًا تذكارية ضاحكة معه وأبدوا إعجابهم بحكمته، وتوقفت الحرب الأهلية في أيرلندا، وقفزت النمور الآسيوية من المجهول، وأصبحت الصين قوة عالمية ضاربة بعد سنوات من الغموض، وتوارت سطوة العسكر في تركيا شيئًا فشيئًا وخرج

المارد التركي من قمقمه، كل هذا والرئيس مبارك لا يزال باقيًا في كرسي الحكم، ثم يأتي بعضنا لينكر عليه استحقاقه عن جدارة وصفه بالعبقرية، عبقرية البقاء والاستمرار.

بمعيار عبقرية البقاء، هناك زعماء عرب ينافسون الرئيس بقوة، بل وربما تفوقوا عليه: القذافي، وعلي عبد الله صالح، والأسد ممثلًا في امتداده بشار، لكن هل تصح مقارنة الرئيس مبارك بأي من هؤلاء، أعتقد أن المقارنة ستكون ظالمة ومتعسفة، على سبيل المثال في الكام مرة التي سافرت فيها إلى سوريا وبرغم عشقي للبشر والطبيعة والثقافة والفن والمقبلات كنت أعود من هناك وأنا على شفا حفرة من الانضمام طواعية إلى الحزب الوطني، منذ سنين كتبت أنه لو قابلني أحد باستمارة عضوية للحزب الوطني على سلم الطائرة بعد عودتي من دمشق لانضممت إليه فورًا، وبالطبع لم يقابلني أحد بالاستمارة؛ لأنني لم أكن معتوهًا لكي أسافر ثانية بعد ما كتبته.

لكن بما أننا فتحنا باب المقارنات المغري دعنا نواربه بالقول إن حكمك على الرئيس مبارك يتوقف على زاوية النظر التي تنظر منها، إذا كنت ستضع مصر مثلًا في مقارنة مع الصومال وأفغانستان واليمن والعراق ولبنان فأنت يجب أن تبوس يدك وجهًا وظهرًا على نعمة الاستقرار التي ترفل فيها مصر مقارنة بهذه الدول، لكن كيف سيكون رأيك في حالنا لو قارنته بتركيا والهند وماليزيا وسنغافورة والبرازيل وغيرها من الدول التي تتطور كل لحظة. وكذلك الحال لو قارنت الصحافة المصرية بأحوال الصحافة في جميع الدول العربية، بينما يمكنك أن تقارنها بأحوال الصحافة في دول كانت متخلفة مثلنا ثم منحت الصحافة حرية كاملة غير محكومة بمزاج شخصي لحاكم الدولة، أو ممنوعة من الحصول الشرعي على المعلومات، أو مهددة بترسانة قوانين يمكن أن تذهب بالصحفي إلى ستين داهية، وإنما حرية كاملة وحقيقية لا تعرف خطوطًا حمراء، ولا مؤسسات محظورة؛ حرية يكفلها قانون حازم وعادل يسري على الهلفوت قبل المسنود. ثم بعد كل هذه الأسئلة يأتي السؤال الأهم الذي يجب أن يسأله كل مصري لنفسه: هل مصر تستحق أن نقارنها بالدول المتكحولة لكي نحمد الله على ما لدينا من بلاوي، أم تستحق أن نقارنها بالدول التي تتطور لكي نلحق مثلها بركب الحضارة ونعلن فك الارتباط مع التخلف.

ربما ستكون المرة الأولى التي أقول فيها نعم فيما يخص الرئيس مبارك، نعم نجح الرئيس مبارك في إبقاء مصر مستقرة على الأرض، لكنه لم ينجح ـ وهو الطيار الماهر ـ

في أن يُحَلِّق بها إلى آفاق رحبة كالتي طارت إليها دول كانت تعيش في وكسة أعمق من وكستنا. نعم نجح الرئيس في أن يبقى على كرسي الحكم دون أن تشهد مصر انقلابات دراماتيكية حادة؛ وذلك بفضل قراءته الجيدة لتجربة الرئيس السادات. نجح الرئيس في تطوير بذور الديمقراطية الشكلية التي غرسها السادات، لكن السادات لم ينجح في جني ثمارها بسبب طبيعته الشخصية الانفعالية التي جعلت أعصاب الفنان تغلب على برود السياسي. نجح الرئيس في استخدام أنياب ومخالب الديمقراطية دون أن يقوم بإعلان ذلك كما فعل السادات. نجح في فهم وإدارة مفاتيح العلاقة مع الغرب وعلى رأسه الولايات «المصلحجية» الأمريكية بحيث يأخذ الغرب كل ما يريده ويأخذ النظام أيضًا كل ما يريده. نجح في فهم واستغلال الضعف الإنساني للنخبة المثقفة المصرية وهو ما لم يحققه كلٌّ من عبد الناصر والسادات اللذين كانا أكثر التصاقًا بالمثقفين، ولكن أقل فهمًا لهم. كل هذا نجح الرئيس في تحقيقه، ولكن يا ليته مثلًا نجح في إصلاح التعليم أو حتى إعادته إلى ما كان عليه في الخمسينيات والستينيات، نعم قام الرئيس بتطوير البنية الأساسية، ولكن هل تطور الإنسان الذي يستخدمها ثقافيًّا وصحيًّا ونفسيًّا؟ نعم لا توجد لدينا اضطرابات أمنية حادة كالتي تشهدها دول أخرى، لكن ألا يريد أحد أن يتنبه إلى أن السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يمارسها هذا العهد تؤدي إلى نحر متواصل في بنيان المجتمع لا يعلم إلا الله كيف ستكون نتائجه؟

بالتأكيد ينوي الرئيس لمصر كل الخير، لكن هل أوصلت هذه النية مصر إلى ما تستحقه، أو حتى إلى ما حققته دول أقل منها في المكانة والإمكانات، هذا سؤال مركزي أعتقد أن الرئيس لو فكر فيه بروح قائد الطيران في حرب أكتوبر، لبادر إلى إصلاحات دستورية حقيقية وشاملة، يترك بعدها الشعب لكي يقرر مصيره في انتخابات برلمانية غير ملعوب فيها من الأجهزة العلنية والسرية؛ انتخابات بجد تخضع لإشراف قضائي ورقابة دولية كالتي تخضع لها الانتخابات الأمريكية مثلًا، ثم نشهد بعدها انتخابات رئاسية يرشح الرئيس مبارك فيها «رجلًا» محترمًا من قلب النظام لكي يتنافس مع معارضين حقيقيين، ومع أن كلمتي هنا لن تقدم ولن تؤخر، لكنني مستعد لأن أحلف على المصحف أن أي رجل محترم صاحب رؤية يرشحه الرئيس مبارك سينجح في تلك الانتخابات أيًّا كان منافسه؛ لأن أي عاقل مخلص سيفضل دولة يحكمها رجل قوي صاحب مشروع على دولة يحكمها رجل ضعيف صاحب شعارات. وبعدين يا سيدي حتى لو طلع حِلفاني

على الفاضي، ما حصلش حاجة، يكفي أن مصر ستشهد تغييرًا سيكون في صالحها في كل الأحوال، فضلًا عن أن الرئيس مبارك سيدخل التاريخ كأول رئيس مصري سابق على قيد الحياة، وعندها قطعًا ستكون المرة الأولى التي يسمع فيها كلمة نعم من معارضيه، وليس من المنتفعين من حكمه.

أيوه يا سيدي، هذا خيال رومانسي حالم أو حتى ساذج، ولكن بذمتك هل عاد حيلتنا غيره؟

٢٢ نوفمبر ٢٠١٠

باتمان والجوكر

من بعيد يبدو للرائي أن هناك صراعًا عميقًا وحادًّا وعنيفًا بين نظام الحزب الوطني وجماعة الإخوان المسلمين، لكنك لو أمعنت النظر وتأملت في كيفية إدارة هذا الصراع طيلة عهد الرئيس مبارك لاكتشفت أن السر الأول لبقاء نظامه قويًّا وصامدًا هو جماعة الإخوان المسلمين نفسها. عندما أقول هذا فلست آتي بجديد، فقد سبقني إليه العديد من الباحثين والكتاب، وها هي الأيام تثبت كل يوم صدقه، خذ عندك ما يدور هذه الأيام من صراعات حول شعار «الإسلام هو الحل» الذي ترفعه الجماعة وتدعي الحكومة أنها تناهضه، بينما هي تعلم أن رفع ذلك الشعار طوق نجاة لها لتحقيق الإقناع الدرامي اللازم خلال عرض المسرحية الانتخابية القادمة، وبالإضافة إلى ضرورة استخدام الفزاعة الإسلامية للحصول على الشرعية الدولية اللازمة لبقاء الحال على ما هو عليه.

مؤخرًا قرأت كتابًا صغيرًا وشديد الأهمية والإمتاع لشاب من شباب الإخوان اسمه أسامة درة، حمل عنوان «من داخل الإخوان أتكلم»، وقد أثار الكتاب عند صدوره جدلًا شديدًا داخل صفوف الجماعة، وقد توقفت طويلًا عند فصل من فصول الكتاب حمل عنوان «باتمان والجوكر»، توجه الكاتب فيه بالحديث لزملائه في الجماعة، مقدمًا ببراءة وصدق رؤية تؤكد فكرة أهمية وجود واستمرار جماعة الإخوان في وضعها الحالي كصمام أمان لبقاء نظام الحزب الوطني، وهنا أعيد نشر هذا الفصل، وأتمنى أن يكون ذلك مفيدًا وممتعًا كما أرجو:

«كنت أتساءل دومًا وبمنتهى القرف:... لماذا يلوموننا على شعار «الإسلام هو الحل»؟! لكني الآن أعرف لماذا.. هذا الشعار يُشعرهم وكأن الإسلام «بتاعنا»، فلا عجب أنْ تعسفت الدولة ضد كل ما هو إسلامي.. وليس ما هو إخواني فقط. فالمساجد يغلقونها فور

انتهاء الصلاة.. والدين في المناهج الدراسية جعلوه أقل أهمية من الـرسم.. ولا تجد مذيعة واحدة في تلفزيون البلد مُحجبة.. والتعليم الديني يقلصون ميزانيته، و... و... و... و... هل يبدو لكم هذا منطقيًّا في بلد فيه الأزهر، ورئيسه اسمه محمد؟

لكني أسأل: تُرى هل نحن السبب؟ نحن رفعنا الإسلام شعارًا حزبيًّا، نحن جعلنا الإسلام سلاحًا نقاتل به «وهو سلاح قاطع جبار..» فهل أصبحنا بذلك حاجزًا بين الحاكم وبين الإسلام؟.. هل صددنا عن سبيل الله دون أن ندري؟.. هل أردنا أن نهدي الناس بالإسلام، فأشعلنا به حربًا عنيفة دون أن نقصد؟.. أتعرفون؟.. أنا أشعر أننا نشبه الرجل الوطواط!!.. نعم، نعم.. بـاتـمـان.. كلكم يعرفه.. أنا شاهدت فيلمه الأخير «فارس الظلام»، إنتاج ٢٠٠٨.. هل شاهدتموه؟.. أعرف، أعرف.. أنتم ـ أيها الإخوان ـ لا تشاهدون هذه الأشياء، لكني أوصيكم، عندما تشاهدون الفيلم، لا تصدقوا باتمان... هو شخصيًّا لا يعرف أنه السبب، ولو سألتموه سيقسم لكم إنه بريء من الجرائم الشنيعة التي اجتاحت مدينته «جوثام». سيقول لكم إن «الجوكر» ـ أعتى وأظرف مجرمي المدينة ـ هو مَن فعلها. لقد أراد باتمان الخير، ويصعب أن نتخيل أن كل هذا الشر جاء من تحت عباءته السوداء، لكني أؤكد لكم: باتمان ليس بريئًا تمامًا كما يدعي.

دعونا نتكلم بصراحة... لماذا يعيش باتمان تحت الأرض؟ لماذا لا يظهر إلا في الظلام؟ لماذا لا يحب أن يساعده متطوعون آخرون في محاربة الجريمة؟ لماذا يلقب نفسه «الرجل الوطواط»؟ لماذا سماه المخرج كريستوفر نولان «فارس الظلام»؟ هل يبدو لكم هذا اسم شخص طيب؟ ثم... ثم ماذا لو لم يكن هناك باتمان؟ هل كان يمكن أن تصبح الأمور أسوأ؟ وهل هناك ما هو أسوأ؟ يا سادة... لقد أشعل باتمان منافسة سوداء، شاهدوا الفيلم مرة أخرى وستعرفون ماذا أقصد، أنا أجرؤ على القول: لو لم يوجد باتمان لما ظهر الجوكر، فالبطل الخارق يستدعي المجرم الخارق، والمدينة التي يظهر فيها بطل أكبر من اللازم، يظهر فيها مخرب على قدر البطل.

باتمان تبرَّع بإدخال قوة مفرطة غير ضرورية إلى الساحة.. فأتى الجوكر كرد فعل. لهذا حصل «هيث ليدجر» على أوسكار أحسن ممثل مساعد عن دور «الجوكر»، بينما بدا «كريستيان بيل» باهتًا في الفيلم في دور باتمان.. فالأول مجرم دعته الأحداث، والثاني بطل لم يدعُـه أحد. ولو كان باتمان ترك الآليات المجتمعية الطبيعية تعمل.. لحوصرت

الجريمة في «جوثام». لكنه كان كلما خطا، أشعل النار من خلفه... وكلما اشتعلت النار، أصرَّ أكثر على إطفائها. والسؤال: هل نفعل ـ نحن الإخوان ـ مثلما فعل باتمان ونحن لا ندري؟ كان نجم الدين أربكان يقول للأتراك يومًا: «المسلم الحق يصوّت لحزب الرفاة». كم يبدو هذا سخيفًا اليوم! وكأن «الرفاة» كان شعيرة من شعائر الله. وكأن أربكان كان الوكيل الحصري للإسلام في تركيا، ولا عجب أن مشروعه مات في مهده، فمن يظنون أنهم يحتكرون الحقيقة لا تصلح بهم أوطانهم.

وهنا أسأل: هل نفعل ـ نحن الإخوان ـ مثلما فعل أربكان ونحن لا ندري؟ المصيبة أننا لا نحتمل أي نقد.. فلو قال لنا قائل: «شعاركم استغلال للدين، وإخلال بمبدأ تكافؤ الفرص»... نحتمي فورًا بدروع الأيديولوجيا ونقول: «هذا يريد أن يطمس هويتنا ويحرفَنا عن أهدافنا ويُنسيَنا منطلقاتنا». أصبحنا كالذي تزوج، فأنجبت زوجته بعد شهرين اثنين، فقال له الناس: «إزاي؟!»، فقال مغتاظًا: «يا نهار اسود عالحسد».. أصبحنا ـ مثل هذا الرجل ـ لا نميز بين الناصح والكاره. منذ ٨٠ سنة ونحن نصطدم بالأنظمة الحاكمة... الأنظمة كلها... وبلا استثناء واحد... هل الحكام هم المخطئون كل مرة؟ أم فينا ما يخيفهم ولا بد من تغييره؟

يا إخواني... أخشى أننا ـ ربما ـ نؤدي ببراعة دور «فارس الظلام»، لكنه هنا له لحية، ويقول: الإسلام هو الحل».

٢٣ نوفمبر ٢٠١٠

غثيان

لا تتوقع مني أن أكتب اليوم عن الانتخابات؛ فأنا للأسف لست متخصصًا في النقد المسرحي.

صدقني الموضوع بِرُمّته ـ تمشي برضه بكسر الراء ـ لا يستحق أن نتوقف عنده طويلًا، خصوصًا أننا نعرف نتيجته سلفًا، لكن إذا كنت مصممًا على أن تعرف رأيي، فلن أجد أفضل ولا أصدق ولا أوجع من مقال بعنوان «غثيان»؛ كتبه أحد كتابي المفضلين العبقري د.أحمد خالد توفيق في مدونته بعد أن توقف عن الكتابة في صحيفة الدستور المغدورة، وأتشرف هنا بإعادة نشره، ليس فقط لأن الدال على الكتابة الحلوة ككاتبها، ولكن أيضًا لكي لا يغضب مني الذين سألوني مرارًا وتكرارًا لماذا لم أكتب عن الانتخابات؟ فأنا بأمانة حتى لو حاولت أن أكتب لما كنت نجحت في أن أكتب شيئًا عبقريًّا كالذي ستقرأه الآن:

««ليت الكلاب لنا كانت مجاورة.. وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا». الإمام الشافعي.

الشارع مسدود تمامًا والسيارات توشك على أن تمتطي بعضها بعضًا، بينما هناك سيارة نصف نقل كئيبة المنظر عتيقة الطراز تسدّ الشارع، وعليها سمّاعتان بحجم خزانة الثياب، ومن السماعتين يُدوي صوت شادية مترنمًا: يا حبيبتي يا مصر.. يا مصر.. الأغنية جميلة، بل رائعة، وفي ظروف معينة قد تدمع عيناك لسماعها، لكن خشونة السماعات والصخب وارتفاع الصوت جعلوها شيئًا حكوميًّا سوقيًّا منفّرًا، دعك من قدرتها العجيبة على تنشيط الأمعاء لتتحول إلى أغنية «مُليّنة» بالمعنى الحرفي للكلمة.

فوق السيارة يقف عدة رجال وقد بدت عليهم الخطورة والإرهاق، وهم يعلّقون صورة

رجل راضٍ عن نفسه بشكل مرعب.. «معًا من أجل مش عارف إيه.. ومن أجل إيه...».. تتحرك السيارة أخيرًا فتكتشف أن وراءها موكبًا من راكبي الدراجات البخارية.. نوعية الفتية الذين يُطلقون على ما يركبونه «مَكَنة»، وكل وجه فيه ندوب جرح مطواة قديم.. وفي لحظة يتحول الشارع إلى جحيم هو خليط من غاز العادم وصوت المحركات والكلاكسات وسباب الأمهات!

«ليت الكلاب لنا كانت مجاورة.. وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا».

الإمام الشافعي العظيم في لحظة قرف حقيقية من البشر، يتمنى فيها ذلك الأمل العزيز: ألا يرى أحدًا ممن هو مرغم على أن يراهم، وألا يجد من حوله سوى الكلاب بوجوهها الحساسة ونظراتها الذكية.

لم أعد صغير السن.. يمكن القول إن لي أربعين عامًا من الوعي إذا اعتبرنا السنوات الأولى فترة غيبوبة. طيلة الأربعين عامًا يتكرر نفس المشهد السخيف المملّ.. نفس الصخب.. نفس الوجوه القبيحة.. تتغير الأسماء بينما لا شيء يتغير.. لا.. لقد تغيّرت أشياء كثيرة.. في الحملة الانتخابية الحالية تقدَّم فنٌّ طباعة اللافتات جدًّا، والإعلانات تملأ الشوارع عن طرق جديدة لطباعة «البانر».. وفنون الجرافيكس واضحة في كل لافتة، والجديد هو الأغاني الملحَّنة والمؤلَّفة بالكامل تمجيدًا لمرشح بعينه.. لو على الانتخابات ناوي.. خليك مع الشتشماوي.. إللي يحب المساكين.. ينتخب عبده أمين...إلخ.

ضوضاء بصرية تدمي العينين فعلًا.. بعض الوجوه يوحي لك بأن هذه ليست حملة انتخابية، بل هي قائمة طعام «مصمط» يعرض قائمته من «لحمة الراس»... ووجوه تمزق سلامك النفسي وتخدش حياءك (هناك وجوه تخدش الحياء في حدِّ ذاتها). أذكر في إحدى الحملات أن أحدهم وزَّع كتيبًا بعد صلاة الجمعة يقول فيه: «يقولوا (هكذا في الأصل) إن انا أزرع البانجو وأنا لا أزرع البانجو لأن زرع البانجو ممنوع»!!.. منطق مقنع جدًّا ويقضي على أية فكرة تساورك.

في النهاية أنت تعرف النتيجة، وأحد أصدقائي تلقَّى علقة من الأمن عندما توجَّه للجنة الانتخابات ليمارس دوره كمواطن، وواحد آخر (أستاذ جامعي) قال له الضابط: «امشِ ياله.. مفيش انتخابات هنا..». دعك بالطبع من المسجَّلات خطر اللاتي «يحشون» الفتيات بالشطة إذا دنون من اللجنة، كما حكى لي مخرج سكندري معروف رأى هذا

المشهد مرارًا بعينه ومنذ كان في العاشرة من عمره، وهو مشهد عرضه بلال فضل مخففًا جدًّا في فيلم «خالتي فرنسا»..

إذن لماذا؟ ما جدوى هذه التمثيلية السخيفة؟ وما جدوى الإنفاق والضوضاء والعرق؟ هل الغرض إنعاش حالة الخطاطين ومكاتب الكمبيوتر والمطربين والملحِّنين وبائعي الشطة اقتصاديًّا؟ هل الغرض هو إقناع الغرب بأننا ديمقراطيون؟ لا أعتقد أنك قادر على خداع «فيسك» وأمثاله؛ فهم ليسوا بُلهاء.. السفير الأمريكي السابق كان يهوى حضور مولد السيد البدوي في طنطا، فعلَّقت جريدة العربي الناصري قائلة: «يعني هذا أنه رجل «موالدي صايع» ولا يستطيع أحد خداعه.. فقط هو يلاحظ ما يريد ملاحظته».

منذ أعوام كان اسم اللعبة الديمقراطية، لهذا جاءت «أبلة كونداليزا» حاملة الخيزرانة للمنطقة، ومن ثم أفلت ثمانون مرشحًا من الإخوان بمعجزة ما.. دخلوا المجلس، لكن أمريكا تلقَّت درسًا: اتركوا كل شيء كما هو وإلا سيطر الإخوان على مصر، لهذا تعلمت ألا تتدخل ثانية إلا ببضع كلمات لا طائل من ورائها.

«ليت الكلاب لنا كانت مجاورة.. وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا».

كيف يملك إنسان هذه القدرة العبقرية على ممارسة الهراء؟ ولماذا تبلغ القدرة على خداع الذات هذا المبلغ العبقري؟ أربعون عامًا من هذا.. نفس الكلام والوعود بالمزيد من الشرف والجرأة البرلمانية وحياة أفضل للجميع.. تكلَّم السادات كثيرًا عن الرخاء الذي سينهال علينا عام ١٩٨٠.. لا أشعر أن هذا الوعد تحقق حرفيًّا في الواقع. هناك الكثير من الهواتف المحمولة، وحسابات فيس بوك، والكليبات على القنوات الفضائية.. لكن لا أرى ما هو أكثر.

ثم المحليات! هذه الكلمة التي صرت أكرهها بجوارحي، وأشعر أنها مرادف للفظة «فساد»، بعد ما قاسيت منها أربعين عامًا.. كلما سمعت الكلمة تخيلت رجالًا بالبذلة الصيفية طويلة الكمين إياها ينزلون من سيارة نصف نقل حكومية، ويقفون بوجوه مليئة بالجدية لساعات عند مطعم الكباب، يعدُّون الوجبات التي ستقدم في الغداء أو حفل الإفطار الجماعي. نفس الوجوه الخبيثة، والعيون الزائغة التي تبحث عن فرصة للكسب غير المشروع في موضوع الانتخابات هذا.. الكل سعيد.. الكل مفعم بالأمل ما عداي. كل الوجوه تصيح بحماس: هذا بلدنا! هذه مصالحنا.. نعم من القلب لزراعة البانجو..

نعم من القلب للاختلاس وغشّ حديد التسليح.. نعم من القلب للأطعمة الفاسدة المسرطنة.. نعم من أجل تجريف الأراضي.. نعم.. نعم.. نعم.... ترى في وجوههم رائحة التهريب، والتأشيرات المضروبة، وتقسيم الأراضي غير القانوني، وأذون الاستيراد والمضاربة و... و... ترى في وجوههم كل ما أفقرك، وعذَّبك، وبهدل كرامتك، وأهانك بين الدول، وملأك بالخوف على مستقبل أطفالك، وجعل أعزة أهلك أذلة.

«ليت الكلاب لنا كانت مجاورة.. وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا».

لكن الكلاب صارت عزيزة جدًّا.. لن تجدها بسهولة؛ لأن أصحاب مطاعم الكباب قضوا عليها جميعًا من أجل تحضير عزومات المحليات.. فقط أدعو الله ألا يختفي الليمون، أو عقار «الميتاكلوبراميد» المضاد للقيء؛ لأنني بصراحة لم أعد أتحمل».

انتهى مقال الدكتور أحمد خالد توفيق دون أن يقول لنا شيئًا مهمًّا للغاية: كم قرصًا يفترض أن نأخذه من «الميتاكلوبراميد» من هنا لحد ما المولد ينفض.

٢٨ نوفمبر ٢٠١٠

إلى ذوي القلوب الرحيمة

مبروك لسيادة الرئيس مبارك نجاحه باكتساح ومن أول جولة في انتخابات الرئاسة.

أرجوك يعني بليز يعني باردون، لا تقل إنني خرفت وإن الانتخابات الرئاسية لم يأتِ أوانها بعد. لا تقنعني أنك قلق على نتيجة انتخابات الجالسين على الشعب. أرجوك احترم غبائي ولا تقنعني أنك ستندهش عندما تسمع السيد المستشار رئيس اللجنة العليا للانتخابات وهو يعلن بصوت متهدج مفاجأة أن الحزب الوطني حصل على الأغلبية الكاسحة (ربما مع تضحيته ببعض رموزه في دوائر محسوبة لزوم تحلية البضاعة عند تصديرها للخارج)، وأن المعارضة (مع مراعاة وضع النقطة على الضاد) حصلت على فتات من المقاعد هي بالأمانة لا تستحق أكثر منه، وأن الجماعة المحظورة خاضت معركة انتخابية شرسة مع الحزب الحاظر انتهت لمصلحة الاثنين معًا؛ فالحزب حصل على الشرعية الدولية اللازمة وأكد كونه البديل الوحيد لبقاء الأوضاع في البلاد كما ترضاها القوى المانحة، والجماعة جددت دماءها ورممت جبهتها الداخلية وكسبت عددًا مهولًا من الأنصار خلال فترة الانتخابات ووجدت منافذ لتدوير رأس المال الإخواني في مسارب علنية، وفوق «البيعة» نال أنصارها كميات ضخمة يصعب حصرها من الحسنات.

أتمنى أن تكون قلقًا مثلي مما هو أخطر بكثير من نتيجة الانتخابات، من أمر يهدد مصير مصر كلها، وسأدخل في الموضوع مباشرة لأن الأمر لا يحتمل الهزل ولا «السسبنس»، أنا يا سيدي ترتعد فرائصي الآن من فكرة أن الدكتور أحمد فتحي سرور لن يتم تعيينه رئيسًا لمجلس الشعب بعد الانتخابات، أرجوك لا تقل لي إن الدكتور سرور لن ينجح؛ لأن ذلك لو حدث لن تكتفي فرائصي بالارتعاد، بل ستسارع فرائصي بالركض حتى مجلس الشعب وستقطع شرايينها حتى تطرطش دماؤها على قبة المجلس الذي طلوه

باللون الذهبي ربما تبشيرًا لنا بأنه لن «يذهب» أحد من منصبه خلال السنوات المتبقية من عمر مجرة درب التبانة.

بالأمس سمعت شخصًا عليمًا بأحشاء الأمور يقول إن الحزب الوطني اتخذ بالفعل قرارًا داخليًّا بتعيين الدكتور مفيد شهاب رئيسًا لمجلس الشعب (لا تقل لي أرجوك إنك تعتقد أنه سيخسر الانتخابات لأنه لم تعد لديَّ فرائص لكي أضحي بها) واستدل ذلك العليم بالتصريح الذي أطلقه الدكتور سرور قبل رفع الستار عن خشبة العملية الانتخابية حيث قال إنه يضع نفسه تحت تصرف القيادة السياسية، وإنه مستعد لأن يخدم الوطن حتى آخر قطرة من دمه، أو آخر نفس، أو آخر كوباية ماء يشربها، أو آخر شيء لم أعد أذكره من كثرة الأواخر التي يتم التعهد دائمًا بالبقاء حتى آخرها، وهو التصريح الذي اعتبره صديقنا العليم بمثابة إشارة «إس أو إس» من الدكتور سرور إلى قائد سفينة الوطن لكي لا يتم التخلص منه في عرض بحر الحياة.

أعترف أنني في السابق لم أكن مقدرًا لعطاء الدكتور سرور ووصفته بأنه «زعيم حركة كفاية أصحى على ابتسامتك»، وأن الدكتور مفيد شهاب كان أستاذًا لي في كلية الإعلام فضلًا عن كونه إسكندرانيًّا، ومن علَّمني حرفًا صرت له عبدًا، لكنني بجد أخشى على مصر من عواقب التغيير الوخيمة، دعونا نصارح أنفسنا: ما الذي جنته مصر مثلًا من تغيير السيد راشد وإزاحته عن مقعد وكيل مجلس الشعب؟ هل شفنا يومًا حلوًا منذ أن تم تغيير الدكتور عاطف صدقي مثلًا؟ هل استفدنا شيئًا من اللخبطة التي جعلت السيد صفوت الشريف ينتقل من ماسبيرو إلى شارع القصر العيني؟ هل اكتفينا ذاتيًّا من القمح عندما نقلنا الدكتور يوسف والي من الوزارة إلى البلكونة؟ هل فرق شيء في حياتنا عندما نقلنا السيد كمال الشاذلي من صدارة الصورة إلى المجالس القومية المتخصصة في نقل أعضائها إلى رحاب الله؟

لذلك، ولذلك كله، هذه السطور بمثابة نداء إلى ذوي القلوب الرحيمة في جميع مواقع القرار، نناديكم، نشد على أياديكم، نبوس الأرض تحت نعالكم، لا تفكروا ولو لـ«نهلة» في إزاحة الدكتور فتحي سرور عن موقعه، لا تدعوا شيطانًا من شياطين الأنس يصور لكم أن مشكلتنا مثلًا تنحصر في الدكتورة آمال عثمان وابتسامتها الموناليزية الغامضة، أو أننا نحلم في نومنا برحيل السيد صفوت الشريف الرجل الذي فتح السموات

ففتح الله عليه الأرض. وأيّم الله لقد كبرنا ونضجنا واستوينا وعندما يئسنا من الوصول إلى راحة الاحتراق تعلمنا أن مشكلتنا لن يحلها أبدًا رحيل أحد منكم، وأن الله أراد لنا أن نكون معًا في هذا الجزء من العالم حتى يُفني العالم كله، لذلك لا تلعبوا أبدًا في تركيبة القدر التي شاءت أن نظل معًا إلى الأبد، ولا تتغيروا أبدًا في هذه الأجواء المتقلبة التي نعلم أنها أجواء عيا، وتذكروا أننا أصبحنا «مِعَلِّمين» هذه البلاد بكم، ونخشى لو غيرتم أحدًا فيها أن نتوه عنها ونحن مروحين.

نرجوكم ابقوا معنا.

٢٩ نوفمبر ٢٠١٠

إللي نعيده نزيده

ـ حصل ناخب على قرص فياجرا هدية من أحد مرشحي الحزب الوطني فعاد مسرعًا إلى بيته ليعيش أزهى عصور الفوسفور مع زوجته التي لم يعجبها أداؤه وطلبت جولة إعادة.

ـ قالت الأم لبنتها في ليلة الدخلة التي جاءت بعد يوم الانتخابات مباشرة: إيه الأخبار طمنيني، قالت لها باكية: زي الزفت، طول الليل قاعد جنب زرار النور رافع صباعه ويطفي ويولع في النور ويقول لي شفتي الحبر الفوسفوري بينور ازاي في الضلمة.

ـ بعد أن اعترف التلفزيون الحكومي بظاهرة شراء أصوات المواطنين عيانًا بيانًا في الانتخابات الأخيرة، لا تستبعدوا لو خرج علينا الموالسون ليشيدوا بالرئيس مبارك الذي رفع سعر المواطن المصري إلى خمسمائة جنيه.

ـ كنا نظن قبل الانتخابات أن الحبر الفوسفوري يمنح حصانة ضد التزوير.. بعد التجربة اتضح أن الفوسفور اللي فيه بيدي طاقة لزيادة التزوير.

ـ في أحد المؤتمرات الانتخابية لأحد الوزراء أراد أحد مواطني الدائرة أن يتتع واجب موالسة جامد مع الوزير، فأخذ الميكروفون وحكى للناس كيف أنه كان صديقًا للوزير من زمان، وفي أثناء حضورهما أيام الشباب لأحد الأفراح انصرف الوزير بمجرد حضور الغازية من شدة ورعه وتقواه. ربما لو أتيحت للغازية الفرصة لتقول شهادتها على التاريخ لقالت لنا إن سيادته ترك الفرح ليسبقها إلى البيت.

ـ في أكثر من لجنة في شمال سيناء رصد المراقبون ظاهرة السماح للسيدات بالتصويت أكثر من مرة لصالح مرشح الحزب الوطني على أساس أن الشرع محلل له لحد أربعة.

ـ القارئة أسماء البحراوي تقترح على ولي النعم أمين لجنة السياسات أن يتقدم باقتراح يجعل عمر مجلس الشعب لا يتجاوز الستة شهور، حتى تقام انتخابات كل ستة شهور فيتاح للمواطن أن يسترزق بعد أن وصل الصوت الانتخابي إلى ٥٠٠ جنيه، بشرط أن يتم زيادة سعر الصوت كل دورة حسب معدلات التضخم ومواكبة لفكر اقتصاديات السوق الذي يؤمن به سيادته. كما أن استعانة الحكومة بالبلطجية لمساعدتها في الانتخابات جعل أسماء تقترح على سيادته أن يتبنى إنشاء أكاديمية للبلطجة من الروضة وحتى الثانوية العامة، شريطة أن تظل تحت مظلة مجانية التعليم، وإسهامًا من الحزب الوطني في تنفيذ وعده الذي ظنه البعض خرافيًّا بتشغيل ٤ ملايين ونصف عامل، مع أنه في الانتخابات الماضية أدخل وفي زمن قياسي إلى سوق العمل ما يقرب من ربع مليون بلطجي والبركة في الجايات.

ـ نشرت صحيفة الوفد أن الناخبين في شمال سيناء فوجئوا بوجود حبر فوسفوري على أصابع العشرات من جنود الأمن المركزي مما يرجح القيام بإشراكهم في الانتخابات. طبعًا سترد الداخلية بأن سر ظهور الحبر الفوسفوري على أصابع جنودها هو أنهم اتغدوا سمك.

ـ الرسالة التي أراد الحزب الوطني توجيهها بإشاعة مظاهر البلطجة المحمية بالأمن خلال الانتخابات، وصلت جيدًا إلى المصريين: «ابقوا في بيوتكم أضمن وآمن، ونحن سنختار لكم من يُمَثِّل بكم». أرسل إليَّ شباب كثيرون رسائل حزينة يشتكون فيها من أن أهاليهم قاموا بفرض حظر صارم على نزولهم من البيت للمشاركة في الانتخابات، حتى إن قارئًا قال لي إن أمه جلست أمام باب البيت وهي تبكي وتحلفه بالله ألا ينزل لأنها تحتاج إليه، أب آخر أقفل الباب بالمفتاح على ابنه وخرج من البيت، لم يفعل الأهل ذلك إلا خوفًا على حياة أبنائهم الغالية من أن تروح هدرًا بضربة سيف أو رمية رمح أو طلقة رصاص حي أو مطاطي، ولا ألومهم على ذلك، لكن يبقى سؤال للحزب الوطني ورئيسه وحكومته: طب على إيه ما كنتو تمشوها تزوير من الأول وخلاص، لماذا كل ما جرى إذن إذا كان سيقودنا إلى مزيد من الخوف ومزيد من السلبية ومزيد من الطرمخة، ما كان بناقص ذلك المزيد؟

ـ لا أفهم كيف يكون لجميع مسئولي الدولة عين وهم يتحدثون عن الوحدة الوطنية

في نفس الوقت الذي قام الحزب الوطني بترشيح عدد قليل جدًّا من الأقباط فقط في مصر بحالها، إلا إذا كان مفهومهم للوحدة الوطنية هو أن يشعر الأقباط بالوحدة في وطنهم.

ـ لماذا يستغرب الإخوان من فوز مرشحي الحزن الوطني برغم حصولهم على أصوات قليلة، مع أنهم المفروض أكثر ناس يدركون أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة. (من رسالة للقارئ الدكتور شهاب المصري).

ـ صار من حق حزب الله أن يحتج على من يطلب نزع سلاح المقاومة بأن يتم نزع سلاح البلطجية في مصر أولًا.

ـ لا توجد أدنى فائدة من وجود حركة «شايفينكم» طالما استمرت في حكمنا جماعة «عارفين».

ـ عندما أتأمل أحوال مصر الآن أجدني لا أدري لماذا ألوم السيدة الفاضلة ياسمين الخيام وأحملها مسئولية ما أصبحنا عليه الآن بسبب غنائها للأغنية الخالدة «مبروك عليكم وعلينا»، إذ إنها كان ينبغي عليها أن تدرك خطورة ما تغنيه وتمتنع عن غناء ذلك الشطر من أغنيتها الذي تدعو فيه الله قائلة: «وعلى قد نيتنا ادينا»، إذ يبدو أنها كانت تغني في ساعة استجابة.

(إذا وجدت شيئًا مُضحكًا في هذه الفقرات ستجدها في منتهى البواخة عندما تعرف أنني سبق أن نشرتها في عام ٢٠٠٥ عقب «الانتحابات» البرلمانية، وكل ما أتمناه من الله أن تتوقف البواخة عند هذا الحد فلا تظل صالحة لإعادة النشر بعد «انتحابات» ٢٠١٥).

٣٠ نوفمبر ٢٠١٠

إنهم يكتبونني

نصيحة: لا تقرأ لي اليوم. اقرأ لهم، إنهم يكتبونني:

«الكتابة مهنة شاقة حقًّا، والدليل على هذا أن بعض كتابنا يقومون بمعجزات لا يستطيعها كاتب من الشرق أو من الغرب، أوَليست معجزة أن تظل تكتب كل يوم أو كل أسبوع ولمدة عشر سنوات أو ربما عشرين دون أن تقول للناس شيئًا. إنها لقدرة خارقة فعلًا أن تكتب دون أن تكتب، أن تقول كثيرًا دون أن تقول شيئًا، أن تصر على أن تظل صاحب قلم وأحيانًا صاحب مبادئ، دون أن يخطئ قلمك مرة ويأتي برأي مفيد أو بوجهة نظر تورطك في قضية أو من اتجاه. إنها لعبة تشبه لعبة المشي على السلك المعلق على السيرك، كل ما في الأمر أن لاعب السيرك يسير أمام عينيك فعلًا، أما لاعب القلم فيُمَثِّل أمامك بدقة متناهية وبتقمص زائد أنه أمامك يسير، دون أن يسير».

ـ العملاق يوسف إدريس من كتاب «أهمية أن نتثقف يا ناس»

«الثقافة هي المعرفة الممزوجة بالكرامة، فلو كانت الثقافة تعني المعرفة فقط لما اهتاجت السلطة، فماذا يهمها من سابلة الثقافة ورعاعها، إنما الذي يصنع الأزمة الدائمة هي الثقافة ذات الكرامة.. لها إشعاعها الخاص تلمحه في بريق العيون ووضاءة الجبهة وجلال العقل ونصاعة الموقف، إشعاع يكشف الزيف ويصارع التلفيق ويضرب المخاتلة».

ـ عمنا محمد مستجاب من كتابه الجميل «بوابة جبر الخاطر»

«السياسيون، إنهم كارثة وطنية، كل شيء يمثل الفقر والتخلف والظلم، إما ناتج عن هذه الكارثة وإما مُستَثمر من قِبَلها».

ـ ليوبولد لوغونس

«الشخص الثائر هو المتفائل حقًّا، يحيا ويموت في مسعى يائس وانتحاري لإقناع كل

الناس الآخرين كم هم طيبون. كل الثائرين العظام من إسايا إلى شيللي كانوا متفائلين، لقد كانوا ناقمين، لا على الشر في الوجود، بل على تراخي البشر في إدراك طيبتهم».

ـ تشسترتون

«بعد خطيئة آدم، تفكك الفردوس إلى شظايا عديدة وصغيرة فوق كل الأرض، لهذا من المستحيل العثور عليه».

ـ نوفاليس. نقلًا عن يوميات القراءة

«الخدعة الكبرى التي تقترفها الروايات العظيمة هي إقناعنا بأن العالم هو كما ترويه هي.. ليس مهمًّا في الكتابة أن يكون الأسلوب سليمًا أو غير سليم، المهم هو أن يكون فعالًا ومناسبًا لمهمته وهي نفخ وهم الحياة في القصص التي يرويها».

ـ ماريو بارغاس يوسا. رسائل إلى روائي ناشئ

«المصيبة تتضخم من كون المرء عالقًا بحرمان واحد، بخيبة أمل واحدة، بتوق واحد، إذا كان البستان لا يعطي خسًّا فهذا لا يعني أن علينا أن نتركه بورًا، بل أن نزرعه بخضراوات أخرى ونجد فيها تعويضًا عنه».

ـ أنطونيو غالا. من روايته «الوله التركي»

«معوقات الحب دائمًا هي من صنع الإنسان.. العائق الأكبر للحب هو الخوف من التغيير.. على المرء ألا يقنع أبدًا بقدرته على الحب، فمهما بلغ شأنها فهي دائمًا مجرد بداية، وكما يقول الهايكو الياباني: «بعد أن احترق مخزن حبوبي وأصبح أنقاضًا باستطاعتي الآن رؤية القمر».».

ـ ليو بوسكالجيا. من كتاب الحب

«يُخَيَّل للسُّذَّج الأغرار أنه كلما زادت ضخامة الظواهر الاجتماعية زادت مقدرتهم على كشف سريرة الناس، والأمر على العكس، ينبغي أن يدركوا أن فهمهم لهذه الظواهر لا يتاح لهم إلا بفضل قلب إنسان واحد تنفذ فيه نظرتهم حتى تبلغ أعماقه».

ـ مارسيل بروست

«لو النملة بلعت جوز حمام، والناموسة ولدت دكر نعام، عُمر ديل الكلب ما ينقام».

ـ مثل شعبي بألف مما تعدون

١ ديسمبر ٢٠١٠

إجهاض الضغط!

أموت على نفسي من الضحك كلما شاهدت في إحدى القنوات الفضائية أو الفعاليات السياسية ناشطًا سياسيًّا أو كاتبًا كبيرًا أو مثقفًا عتيدًا يتحدث بحماس مرير وممرور عن أحوال مصر المحروسة التي تسر العدو وتجلِط الحبيب، ثم ينهي حديثه الموجع المتشائم بتحذير قاطع، أحيانًا يرفع فيه إصبعه وأحيانًا لا يرفعه، لكنه في كلتا الحالتين يكسي وجهه بملامح متجهمة وهو يقول محذرًا حكام مصر بتلك القاعدة العلمية الجليلة الرهيبة التي أصبحت منذ اكتشافها على يد من لا أدريه قابلة للتطبيق في كل المجالات والأصعدة، أتحدث بالطبع عن قاعدة «الضغط يولد الانفجار».

سر ضحكي المرير أنني منذ أن وعيت على الدنيا وأنا أسمع هذه القاعدة وهي تتردد في معرض التحذير من خطورة السياسات الحكومية التي تسحق المواطن المصري البسيط تحت قدميها، وسنة بعد سنة تواصل الحكومة السحق والضغط والفرم والبعج والعصر والهرس للمواطن المصري المسكين، وسنة بعد سنة لا يتولد الانفجار ولا غير الانفجار، فقط بين العِقد والعِقد يتمخض جبل الاستقرار الراسي على نفوسنا ليلد فأر تعديل دستوري أو جُرذ تغيير وزاري، وكما قال الشاعر: «تيتي تيتي زي ما رحتي يا أم الدنيا زي ما جيتي». بالطبع لا أقول كلامي هذا لأنني لا سمح الله راغب في أن يولد الانفجار، فليس هناك عاقل يتمنى لبلاده أن يولد فيها انفجار، بل لأنني أشفق على كثيرين من أصدقائي الذين ينفقون وقتًا طويلًا من أعمارهم في انتظار انفجار لن يأتي.

لي صديق طيب من هؤلاء قال لي مرة: «أنا مش عايزك تيأس.. النظام خلاص بينهار وعلامات انهياره كثيرة». ليس مهمًّا أن أعدد لك علامات الانهيار التي ذكرها، لكن من المهم أن أقول لك إنه قال هذا الكلام ذات يوم ذات قهوة قبل تسعة عشر عامًا، ومن

يومها وأنا كلما قابلته يختلي بي ليؤكد لي بذات التصميم وذات العلامات ـ يزيدوا واحدة ينقصوا واحدة أحيانًا ـ أن النظام خلاص بينهار، وأن علينا جميعًا أن نجهز الزنابيل التي سنشيل فيها هدد هذا النظام الغاشم. كنت دائمًا أحترم أمله وتفاؤله، لكنني اتخنقت بعد سنين من الاستماع إلى نفس الكلام بحذافيره، فهبيت في وجهه قائلًا: «باقولك إيه أنا لو فضلت أسمع منك الكلام ده هاروح أملا استمارة عضوية في الحزب الوطني بكرة». انتفض مأخوذًا من كلامي كمن اغتصبه أمين شرطة وقال لي: «أعوذ بالله.. ليه بس؟». قلت له ساخطًا: «عشان بكلامك ده هتخليني أنبهر بقدرة النظام السحرية على تأخير الانهيار إلى الأبد». جعلتني ملامح الذهول المرتسمة على وجه صديقي أشعر بأنه سيقاطعني القاطوعة الفاصولة فاستغفرت الله وتوسلت إلى صديقي ألا يسمع كلامي وأنا غضبان، قائلًا له إنني ضحية من ضحايا التعرض الزائد للأمل الكاذب، وإنني أحب طبعًا أن أسمع منه كلما تقابلنا على القهوة دلائل انهيار نظام يحمي الفساد ويحكم بالظلم وينشر الضلالة والجهل، لكنني أريد أن أرى مؤشرات ملموسة تجعلني أصدق فعلًا أن ذلك الانهيار سيحدث، قال لي ببراءة: «بسيطة.. مش محتاجة مؤشرات كتيرة.. ببساطة ده نظام بيضغط على الشعب بشتى الوسائل.. ومعروف طبعًا إن الضغط يولد الانفجار».

لم أرد أن أخسره يومها فقمت لآخذه بالحضن لأنه أوضح لي ما كان خافيًا عني، وقطعت علاقتي به من ساعتها، وظللت سنين لا أراه، ثم قابلته بالصدفة عند بائع جرائد بعد مسرحية الانتخابات الرئاسية التي عُرضت عام ٢٠٠٥، وبعد السلامات والأحضان قال لي كأن شيئًا لم يكن، وكأن سنوات عجافًا لم تمر هباء من أعمارنا: «شفت مش قلت لك خلاص النظام ده بينهار». لا أحب هنا أن أقول لك ما رددت به عليه، يكفي فقط أن أقول لك إن بائع الجرائد الذي لا تفارق البذاءة لسانه قال لي يومها وهو يحجز في الخناقة: «عيب كده يا باشا.. شتيمة الأم ليها حدود برضه». يومها سألني صديق مشترك تمزق قميصه في الخناقة: «يا أخي إنت يائس كده ليه.. مش جايز يكون كلامه صح؟». قلت له وقد هدأت ثائرتي بحيث لم تعد راغبة في خناقة جديدة: «يا صديقي المسألة أن طبيعة الشعب المصري مختلفة بحيث لن يقدر أجعص ضغط في الدنيا أن يولد منه بُمبة يفرقعها طفل عابث في العيد الصغير». سألني: «إزاي.. مش انت كل شوية تصدعنا بإن الشعب المصري ربنا خلقه زي أي شعب في الدنيا وتمشي عليه سنن ربنا اللي تمشي على أي شعب؟!». قلت له: «ومن قال لك إن ده يتناقض مع ما أؤمن به.. يا سيدي

لا أدعي أنني خبير أنثروبولوجي أو عالم في الجغرافيا السياسية كجمال حمدان رحمه الله، لكنني أعتقد أن الشعب المصري بحكم الظروف السياسية المعقدة التي شاهدها عبر تاريخه الطويل بات يمتلك خصوصية عن غيره من الشعوب، جعلته زي ما تقول بالبلدي كده معمول على سوست، بحيث يحتمل أي ضغط أيًّا كان، وبحيث يتعايش معه ويمتصه ويكيف حياته بناء عليه، والسر في رأيي أنه كان دائمًا عندما ينفجر يجد من يخون انفجاره ويركب على أكتافه فيقبض الثمن بينما يعود الشعب إلى بيوته بعد هدأة الانفجار مُثخنًا بالجراح وخيبات الأمل، وفي التاريخ شواهد لا حصر لها على ذلك. من الذي استفاد من ثورة ١٩، ومن الذي عاون القصر والإنجليز على تجاوز انتفاضات ١٩٣٥ و١٩٤٦، ومن الذي ساعد المماليك الجدد على قمع انتفاضات العمال والفلاحين في ١٩٥٤، ومن الذي أجهض مظاهرات ٦٩، ومن الذي نزع فتيل مظاهرات ١٨ و١٩ يناير، ومن الذي باع القضية كلها على بعضها بعد ٨١؟ وانت نازل ومنحدر في زمن جاء فيه حكم ابتدع ضغطًا من نوع خاص مستفيدًا من تجارب الانفجارات «الزُّغننة» الاستثنائية، ضغطًا يضرب فيه المربوط على ثقة تامة أن السايب سيخاف، يكفر الناس في عيشتهم لكنه يبني لهم المزيد من المساجد ويزيد عدد ساعات إرسال البرامج الدينية، يرفع الأسعار وهو يقسم إنه يحركها فقط، ويستبدل الفاسد الفقير بفاسد غني بزعم أنه شبعان، ويصمد على الضغوط الأمريكية المتعلقة بالديمقراطية لأنه يعلم أن ديمقراطية الأمريكان شكلية مثل الديمقراطية التي يتبناها؛ ديمقراطية للأغنياء وأصحاب النفوذ فقط، ويندد بالعدوان الإسرائيلي الغاشم بينما يوقِّع أكبر صفقة لتوريد الغاز مع إسرائيل يبيع فيها الغاز برُخص المواطن، ويُقسِم مسئولوه بالمصحف الشريف إنه نظام ضد التوريث بينما يتوحش مشروع التوريث يومًا بعد يوم، ويسحق أي محاولة سياسية للنزول إلى الشارع ولو من خمسة أنفار بينما هو يلوم أحزاب المعارضة لأنها بعيدة عن الشارع.

ولأن هذا النظام يعلم أنه لا يوجد انفجار في الدنيا يمكن أن يولد من غير وجود العامل الحفاز المسمى بالمثقفين، لذلك فقد حرص، وهذه لعبته الأخطر، على أن يعزل النخبة المثقفة عن الناس، لا أتحدث هنا عن المثقفين طبقًا لتعريف وزير الثقافة الضيق الذي يعتقد أن كل المثقفين «عندنا في حظيرة المجلس»، أتحدث عن مئات الآلاف من المصريين الذين حظوا بفرص تعليم رفيعة في داخل البلاد وخارجها، وجميعهم انتظرت مصر منهم أن يغيروا واقعها ويصنعوا مستقبلها فباعوها على أول ناصية. انظر

إليهم سواء كانوا أكاديميين أو مهنيين أو كُتابًا أو مفكرين أو قانونيين، تعلموا في أرفع جامعات دول العالم المتقدم، أو حتى درسوا هنا أحدث ما أنتجه العالم من أفكار، لكنهم برغم تعليمهم العالي وثقافتهم الرفيعة قرروا أن يعملوا طواعية في خدمة التخلف طالما سيؤمِّن مصالحهم المباشرة ويضمن توريث أبناءهم من بعدهم في مواقعهم دون وجه حق. انظر إلى أسمائهم التي تتغير بين حين وآخر، ولاحظ الألقاب الرفيعة التي تسبق أسماءهم، ثم بعد أن تتعجب من قدرة النظام على تفريخهم بهذه المهارة منقطعة النظير اسأل نفسك: ألا يشعرون بالخجل ولو للحظة، ألا يدركون أنهم بتكريس التزوير وتأبيد الفساد يساعدون على انتحار بلادهم أخلاقيًّا، ألا يفكرون في الموت.. في الآخرة.. في ربنا.. في أي قيمة دينية أو أخلاقية من أي نوع؟ هل يظنون أنهم بتحالفهم على هذا الشعب الفقير المرهق سيضمنون لأنفسهم السعادة الأبدية؟ هل فكروا في أن ينقلوا إلى هذه البلاد شيئًا من القيم والمعاني والمبادئ التي يرونها تسود في البلاد التي تعلموا فيها وصارت الآن مكانًا يقضون فيه إجازاتهم، وتلد فيه نساؤهم، ويستشفون فيه ويخططون فيه لتأمين مستقبل أنجالهم وأنجال أنجالهم.

ربما تقول لنفسك: هؤلاء في الأول وفي الآخر موظفون يتقاضون أجورهم من الدولة، ولن يجرؤ أحدهم على الوقوف ضدها، لكن لماذا يتواطؤ معهم بالصمت الموالس حينًا وبالتأييد المخجل أحيانًا مفكرون وكُتاب وفنانون يفترض أنهم يمثلون ضمير هذه الأمة ووجدانها؟ لماذا لا يفعل هؤلاء شيئًا من أجل إنقاذ هذه البلاد التي يحلبون من خيرها ليل نهار، ولولا هي وشعبها لظلوا نسيًا منسيًا؟ ستجد الإجابة على أسئلتك الملتاعة عندما تتأمل كيف «داق» النظام أغلب هؤلاء فعرف ديتهم وأصبح يدرك أن أجعص جعيص منهم سينزل على مفيش عندما تأتيه دعوة لحضور لقاء يسمونه فكريًّا، مع أنه لا أحد من الحضور سيفكر في أن يقاطع الفرد الواحد الذي يتكلم فيه ويقف أمامه رجال مرتعشون ليسألوه أسئلة لا تختلف عن تلك التي تُكتب لأبنائه الطلبة أو أبنائه العمال في اللقاءات الفكرية والفوزية الدائمة. يكون الواحد منهم ـ اللهم إلا في بعض الاستثناءات ـ أسدًا هصورًا هزبرًا إذا كتب في صحيفة معارضة أو تكلم في لقاء مغلق، ثم إذا قرأت له مقاله في الصحيفة القومية وجدته لا يكتب شيئًا من ذلك، بل يكتب فقط عن العمارة القوطية، أو عن ذكريات حبه الأول، أو عن مستقبل العولمة في عصر الحوكمة، أو عن أي شيء يبدو نافعًا طالما ليس فيه قولة حق عند سلطان جائر. (راجع المقولة التي نشرتها بالأمس

للدكتور يوسف إدريس لكي تتبين كيف وضع يده بعبقرية على هذا المعنى منذ أكثر من ثلاثين عامًا).

قل لي بالله عليك كيف إذن سيجدي الضغط؟ وكيف سيولد الانفجار عندما يفتقد الناس من يضع مصالحه الصغيرة خلفه ويفكر بذمة وأمانة في أن يكون قدوة للناس ويكون لسانًا لهم خصوصًا وقد بدأوا يتكلمون ثانية بعد سنوات من الخرس الإجباري الذي تحول مع الوقت إلى خرس اختياري؟ كيف نطلب من بسطاء الناس أن يتذكروا المبادئ والأخلاق ويحافظوا على الشرف والأمانة والنزاهة إذا كانوا يرون كل هذه القيم تضيع وتندثر كل لحظة على صفحات الصحف وفي هواء التغطيات الخانعة للبرامج التي تفوح منها رائحة الخوف المقبضة؟ لماذا نلوم الناس لأنهم ينظرون تحت أقدامهم، ويفكرون في مصالحهم المباشرة، بينما هم يرون من تعلموا أحسن تعليم وتثقفوا أرفع ثقافة وخرجوا من عائلات راقية وهم يساهمون بدم بارد في ذبح قيمة الشرف ومعنى النزاهة وروح العدالة، وهي معان قد تبدو مثيرة للسخرية الآن، لكن لم يثبت أن تقدم وطن في الكون بدونها؟

يا صديقي لم تعد الجماهير تنفجر بعد كل هذا الضغط؛ لأنها تعلم أنها لو انفجرت فستأكل الطريحة لوحدها، ولن تجد في ظهرها من يفترض أن تقتدي بهم وتتعلم منهم، لم تعد الجماهير ترد على من يسألها: لماذا لا ترفع العصا في وجه مَن يظلمها ويقمعها ويسرقها؟ لأنها تعودت على أن ترى أفراد نخبتها وهم يمسكون بالعصا من المنتصف، أو يمسكونها لينهالوا على بعضهم البعض ضربًا، لذلك يا صديقي، ولكي لا أوجع قلبك أكثر من ذلك، أغلب الظن أن الضغط لن يلد الانفجار أبدًا، ولعلنا لو استعنا بالعالم الجليل الدكتور محمد أبو الغار أستاذ أمراض النساء والتوليد وطلبنا منه أن يكشف لنا على الضغط لكشف لنا أن الضغط لن يلد انفجارًا أبدًا؛ لأن الحكومة شالت له الرحم من زمان.

تُخطئ يا صديقي لو ظننت أنني متشائم، فأنا الآن في أقصى درجات التفاؤل؛ لأن مهزلة الانتخابات الأخيرة أعلنت رسميًّا موت النخبة السياسية في مصر بكل أطيافها وألوانها، ولذلك فقط أنا متفائل، وأستطيع الآن أن أسمع صوت أبونا صلاح جاهين يدوي في جنبات مصر كلها هادرًا: «لا بد ما يموت شيء عشان يحيا شيء».».

٢ ديسمبر ٢٠١٠

إنها الحرب

أيها الإخوة المواطنون ننتقل الآن إلى إذاعة خارجية من ميدان المنشية في مدينة الإنتاج الإعلامي لننقل لكم الخطاب التاريخي الذي طال انتظاره فإلى هناك.

«بسم الله الرحمن الرحيم.. كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. صدق الله العظيم. يا أبناء شعبنا العظيم لقد اتخذت قرارًا وأرجو أن تعينوني عليه. (صوت من داخل القاعة: لا تتنحى.. لا تتنحى) ومين جاب سيرة التنحي.. استنوا شوية.. الخطبة طويلة لسه طويلة.. لقد قررت أن أقطع جميع العلاقات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن فاض بنا الكيل بعد تدخلاتها في شئوننا الداخلية.. لقد كنا كرماء للغاية مع الولايات المتحدة على مدى الثلاثين عامًا الماضية.. سَلَّمنا بأن تسعة وتسعين في المائة من أوراق اللعبة في يدها.. وقعنا كل اتفاقيات السلام التي دعت لها ووافقنا على كل الشروط المجحفة التي بها.. تخلينا عن السياسات الاشتراكية في الاقتصاد وتحولنا إلى نظام رأسمالي رسمت لنا معالمه.. دعتنا إلى حرب الخليج فلبينا وأرسلنا خيرة أبنائنا إلى هناك متحملين هجومًا شرسًا لم يسبق له مثيل، وقمعنا المظاهرات التي قامت احتجاجًا على ذلك.. سنة بعد سنة استجبنا لكل الطلبات الأمريكية في مناهج التعليم.. فتحنا بلادنا على مصراعيها للمطاعم الأمريكية والملابس الأمريكية والأفلام الأمريكية والأغاني الأمريكية والمسلسلات الأمريكية وجميع رموز الثقافة الأمريكية.. بدأنا تنفيذ إصلاحات سياسية واقتصادية على أوسع نطاق فألغينا الاستفتاءات الرئاسية التي كنا ننجح بها آمنين مطمئنين واستبدلناها بانتخابات ينافسنا فيها الذي يسوى والذي لا يسواش.. فعلنا كل هذا راضين طائعين صابرين قانتين وحريصين على ألا نقف ضد أقوى قوة في العالم؛ لأنه لم يعد مكان في عالمنا للعنتريات الفارغة.. لكن للصبر حدود.. ويبدو أننا قد بلغنا آخر

الصبر مع أمريكا التي لم يكفها أننا قمنا بكل ما سبق من أجلها في زمن قياسي لم تقم به أي دولة في العالم.. فأخذت تارة تحتج على أننا نقوم بتزوير الانتخابات، وتارة تحتج على قيامنا بضرب أبناء وطننا بالأحذية وسحلهم في الشوارع وتعرية بنات جلدتنا من ملابسهن وهتك أعراضهن وسوقهن إلى البوكسات كما تساق النعاج، والذي زاد وغطى أنها تحجب عنا بعض معونتها لأننا لم ندعم استقلال القضاء والعياذ بالله.. خسئت والله وخسئ قادتها.. لقد تعدت أمريكا بمثل هذه الاحتجاجات خطًّا أحمر لا يمكن لنا أن نقبل به أبدًا.. إننا يمكن أن نفتح قناة السويس لما شاءت أمريكا من حاملات وطائرات وبوارج لتضرب إخوتنا في العراق.. يمكن أن نسمح لها بأن تملي علينا كل ما تريد من إجراءات اقتصادية وتجبرنا على توقيع اتفاقية الكويز للتعاون القسري مع إسرائيل.. يمكن أن نسمح لها بأن تفعل ما تشاء في المنطقة وأن تستخدمنا لكي نكون شرطيها الخاص فنخلص لها ما أرادت، ونقف حيث تريد لنا أن نقف.. نُسَفِّه حزب الله إن أرادت، ونضرب حماس تحت الحزام إن أحبت، ونُعذِّب لها ما شاءت من متهمين بالإرهاب ترسلهم إلينا عبر البحار.. كل هذا لا غبار عليه لكن للصبر حدود.. ونحن لا يمكن أبدًا أن نسمح لأمريكا ولا للّي خلفوا أمريكا بأن تعترض على سحلنا لمواطنينا؛ لأن سحل الدولة لأبنائها قرار وطني سيادي.. لقد تجاوزت حدَّكِ أيتها الدولة الغاشمة.. هل وصل بك الأمر لأن تمنعينا من ضرب مواطنينا بالأحذية وفرق الكاراتيه والعصي الكهربائية.. لا.. أفيقي من غفلتك يا أمريكا فوالله لن نقبل أبدًا تدخلك هذا، ولن نسمح أبدًا بأن تمنعينا من لذة عظيمة مثل هذه.. خذي ما شئت من امتيازات سياسية وسيادية واقتصادية واجتماعية وثقافية.. خذي السماء والأرض والموارد والمصادر والثروات، بل وخذي أعيننا إن شئت.. لكن اتركي لنا مواطنينا نسحلهم كيفما شئنا، وانتخاباتنا نزورها على كيفنا، وقضاءنا ننتهك حرمته كلما عزنا... خلِّي بيننا وبين شعبنا نفعل به ما شئنا؛ فنحن وحدنا نعرف مصلحته، ونحن وحدنا نعرف ما يسعده وما يشقيه.. إنني أوجه تحذيرًا نهائيًّا للولايات المتحدة الأمريكية أن تتوقف عن أي تدخل فيما تقوم به قوات الأمن تجاه أبناء بلادنا، وتكتفي بالتدخل في كل شيء آخر.. وإلا فإننا سنشن عليها حربًا لا هوادة فيها والله أكبر فوق كيد المعتدي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ويا خيل الوطني اركبي».

(هذا المقال التخيلي سبق نشره للأسف في هذه الصحيفة عام ٢٠٠٥، ويبدو أنه سيظل صالحًا للنشر عقب كل انتخابات، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

٥ ديسمبر ٢٠١٠

حكاية أثناء النوم

فجأة قرر حاكم مصر أنه يريد برلمانًا بلا معارضة، فجأة قرر أنه لا يرغب في سماع أصوات تزعجه، فجأة شعر أن اللعبة الديمقراطية لم تعد تبهجه، فجأة شعر أن المصريين لم يعودوا يستحقون الحرية التي كان يعتقد أنه الذي منحها لهم، ولذلك أصدر أوامره إلى رجاله في الإدارة والأحزاب معًا أن ينفذوا رغبته بأي شكل، حتى لو كانت الطريقة مزرية وقميئة ولا أخلاقية.

لا أحد يعرف متى جاءه هذا القرار بالضبط؟ ولا من الذي أشار به عليه؟ ولا كيف شعر أن حلفاءه الغربيين لأسباب تخصهم لن يكونوا مهتمين بأي تزوير يحدث في الانتخابات؟ لا أحد سأله هل درس هذا القرار جيدًا؟ هل فكر في أن انفراده بالسلطة سيكون حقًّا في مصلحة البلاد؟ هل أدرك كم هو موحش وخطير ألا يسمع الحاكم إلا أصداء صوته؟ بالطبع لم يفكر أحد من رجاله في الحصول منه على إجابة لأي من تلك الأسئلة، فهم جميعًا يعلمون أنهم خلقوا في دنياه لكي يطيعوه، كل ما كان يهمهم أن ينالوا رضاه حتى لو استحقوا سخط الله وسخط الناس، للأمانة هم لم يكونوا يخافون من سخط الله؛ فهم يعتقدون أنه غفور رحيم يمكن أن يسامحهم لأنهم عاثوا في البلاد فسادًا فقط إذا تقربوا إليه بعدد من الحجات والعمرات والصدقات، وهم أيضًا لم يكونوا يرون أن الخوف من سخط الناس أمر يستحق أن تلقي إليه بالًا، فالناس لن يعرفوا مصلحتهم مثل ما يعرفها الحاكم ورجاله.

يومها صدرت الأوامر بأن يسقط كل رموز المعارضة في دوائرهم أيًّا كان الثمن، وكان رجال الإدارة يقولون للناس جهارًا نهارًا إنه ليس من المعقول أن نخالف الأوامر السامية بعد كل ما قدمه القصر للبلاد، وإنه يجب أن يعلم الجميع أن جلالة الملك الشاب لن يفتتح برلمانًا فيه معارضون يكرههم أبوه جلالة الملك فؤاد، لماذا أنت مستغرب؟

أنا أحدثك عن انتخابات عام ١٩٣٨ التي جرت في ظل عهد الملك الشاب القادم حديثًا من الخارج بعد سنوات من التعليم قضاها في لندن. هل ظننت أنني أتحدث عن أحد آخر أو عن انتخابات أخرى لا سمح الله؟ هل كان ينبغي أن أخبرك بذلك منذ الأول لأنك شأن الكثير من أبناء بلادنا حكامًا ومحكومين لا نحب قراءة التاريخ ونستثقل دمه ونظن أن التاريخ ليس سوى أرقام سنوات مرتبطة بأحداث، وأسماء حكام نحفظها لكي نصبها على ورقة الامتحانات ونحن تلاميذ، ولا ندرك أن التاريخ يحمل إجابات لكل أسئلة الواقع ولكن لمن أراد لها حلًّا.

عمومًا أنت تعلم عن ماذا أتحدث الآن، لكن هل تعلم أن تلك الانتخابات شهدت واقعة برلمانية غير مسبوقة في تاريخ المجالس النيابية في العالم كله؛ يومها كان حزب الوفد حزبًا عظيمًا وليس «هفقًا»، وكان يرأسه زعيم عظيم ملو مركزه اسمه مصطفى النحاس، كان المصريون يعتبرونه زعيمهم الحقيقي، ولذلك عندما أصدر الملك أوامره لرئيس وزرائه علي ماهر بضرورة إسقاط النحاس شخصيًّا في دائرته سمنود بالغربية لتمريغ أنف الوفد في التراب، قرر الوفديون أن يتحدوا إرادة الملك بحيلة غير مسبوقة اقترحها شاب انضم إلى الوفد حديثًا اسمه فؤاد سراج الدين، كانت الفكرة أن يتقدم النحاس في آخر لحظة قبل قفل باب الترشيح بأوراقه كمرشح في دائرة أخرى اسمها الزعفران يضمن سراج الدين بحكم ما له فيها من أطيان وأنصار ألا يتقدم فيها مرشح منافس للنحاس أبدًا، وبالفعل تقدم سراج الدين بأوراق ترشيح النحاس في الساعة الخامسة إلا خمس دقائق من يوم قفل باب الترشيح وتأكد من قفل باب الخزينة دون أن يتقدم للنحاس منافس في الدائرة، وعندما وصل الخبر إلى القصر صدر أمر من فريد أبو شادي مدير الغربية المنتدب بفتح الخزينة وإحضار أي شخص من البلد وتقديم أوراق ترشيح له ودفع أي تأمين فورًا حتى لو كان هذا الرجل نكرة لا يعرفه أحد، وبالفعل لم يعدم رجال القصر شخصًا يبيع نفسه من أجل المال، والشهرة أيضًا، فهو سيكون منافسًا للنحاس باشا بجلالة قدره، وكُتب التاريخ تقول إن هذا الشخص اسمه محمد سعيد، لكنها لا تذكر عنه أي معلومات أخرى، ربما لأنه لم يكن لديه فعلًا معلومات أخرى يمكن أن يذكرها أحد، وربما لذلك قال فؤاد سراج الدين للنحاس إن ما حدث أمر ليس له أي قيمة لأن كل من في الدائرة هم إما مستأجرون لديه وإما عمال في مزارعه، وإنهم جميعًا يحبون النحاس ولن تجدي أي ضغوط تمارس عليهم.

في يوم الانتخابات شهدت مصر مهازل لم يسبق لها مثيل في تاريخ برلماناتها، وصلت إلى حد أن يقوم شيخ بلد كفر الثعبانية؛ أحد أكبر مراكز دائرة سمنود، ومعه عدد من الخفراء (الذين كانوا يلعبون دور البلطجية يومها) باقتحام سيارة النحاس في أثناء توجهه لتفقد الدائرة، وقاموا في حضوره بضرب مندوبه في الكفر بهراوة على رأسه ثم اختطفوه في حضور النحاس المذهول مما يجري، وعندما ذهب النحاس إلى وكيل النيابة الذي يراقب الانتخابات وأبلغه بأن شيخ البلد نبيل غنيم قام بكذا وكذا، تم استدعاء شيخ البلد الذي أنكر ما حدث جملة وتفصيلًا، بل وقام بإحضار فلاح طاعن في السن يرتدي ملابس بالية وقال إنه والد مندوب النحاس، وعندما سألوه عن مكان ابنه قال لهم إنه مسافر إلى القاهرة منذ يومين، قالوا له لكن النحاس باشا يقول إن ابنك كان معه وتم شج رأسه وخطفه، فأنكر الأب ذلك تمامًا، ووجد النحاس نفسه يواجه تهمتي الكذب وإزعاج السلطات، لولا أن وكيل النيابة كان رجلًا شريفًا وأدرك ما حدث فأغلق المحضر.

كانت الأخبار تتوالى إلى قيادة الوفد من جميع أنحاء البلاد بسقوط قتلى وجرحى على أيدي رجال البوليس، واختطاف صناديق الانتخابات من داخل مراكز الاقتراع، والاعتداء من قبل الخفر والعساكر على رجال الوفد الذين حاولوا حماية الصناديق بشراسة وقرروا الاستمرار في ذلك مهما كلفهم من تضحيات، وعندما وصل إلى النحاس أن عددًا من كبار رجال الوفد الذين كانوا ينجحون في كل انتخابات بالتزكية مثل مكرم عبيد في قنا، وعبد الفتاح الطويل في الإسكندرية، وأمين الوكيل في دمنهور، وأمين الإتربي في أخطاب، تم الإعلان عن سقوطهم بنتائج مزرية. أصدر النحاس أوامره إلى كل رجال الوفد بأن ينصرفوا فورًا ويتركوا صناديق الانتخابات لرجال البوليس والإدارة لكي يزوروا فيها كما يشاءون.

عاد النحاس إلى القاهرة وبدأت تتوالى تباعًا نتائج سقوط مرشحي الوفد والمعارضة في كل الدوائر، وبقيت دائرتا سمنود والزعفران اللتان ترشح فيهما النحاس، فلم تعلن النتيجة فيهما، ويقولون إن علي ماهر كان يحاول إقناع الملك بضرورة إعلان نجاح النحاس في إحداهما غسلًا لسمعة البرلمان القادم، لكن إرادة الملك تغلبت وصدر في ساعة متأخرة من الليل بيان من الداخلية يعلن أن النحاس زعيم الأمة سقط في دائرتي سمنود والزعفران، أي أن الشعب المصري قرر من أجل مستقبله أن يختار محمد سعيد بدلًا من مصطفى النحاس.

يومها لم يسقط النحاس وحده فقط، بل سقط كل رجال المعارضة الذين قدموا أداء نيابيًّا راقيًا كانت مصر تفتخر به وقتها، وفي المقابل شهد ذلك المجلس أعلى نسبة من كبار ملاك الأراضي قياسًا على الهيئات البرلمانية السابقة، بل ووصلت نسبتهم في الوزارة التي تشكلت عقب الانتخابات إلى ٦٦ في المائة من الوزراء، كما يقول الدكتور عاصم الدسوقي في دراسته عن دور كبار الملاك في الحياة السياسية المصرية، وهي نفس الوزارة التي قام بتشكيلها محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يضم أكبر عدد من المثقفين المدافعين عن الليبرالية والديمقراطية والتقدم، وبرغم رضا وزارته بأن تكون ألعوبة في يد الملك لضرب إرادة الشعب، فقد أصر الملك على إهانتها بأن رفض قائمة الوزراء التي تقدم بها محمد محمود عشر مرات ولم يقبل بها إلا في المرة الحادية عشرة لكي يوصل رسالة قوية إلى البلاد كلها بأنه لن يسمح بأن يعلو صوت فوق صوته.

لا شك أن الملك كان سعيدًا جدًّا للغاية في تلك الأيام، لا شك أنه كان يضحك ملء شدقيه، لا شك أنه كان يشعر أنه قام بضرب قادة المعارضة على أقفيتهم، لا شك أن أجهزته الأمنية كانت ترفع له تقارير عن غيظهم وحنقهم وخيبة أملهم، لا شك أنه لم يفكر ولو للحظة في خطورة ما فعله على مستقبل البلاد؛ لأنه يرى أنه هو وحده مستقبل البلاد، لكن يا ترى هل تذكر الملك كل ذلك وهو يبحر فوق يخته الملكي مطرودًا من عرشه وبلده بعد قيام ثورة يوليو التي بدورها استغلت ذلك النوع من الانتخابات ذريعة لإلغاء التمثيل النيابي كله على بعضه؟ يا ترى هل قال الملك لنفسه ما الذي كان سيجري لو احترمتُ إرادة الأمة ولم أحول الديمقراطية إلى لعبة سخيفة ولم أسحق الفقراء والبسطاء لصالح الأغنياء والإقطاعيين؟

هل فكر الملك في ذلك كله؟ لا أحد يعلم ذلك إلا الله، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٦ ديسمبر ٢٠١٠

حدث في ليلة الانتخابات

أرجو من السادة القراء الذين أرسلوا إليَّ عشرات الرسائل التي تحكي وقائع عن تجاوزات المسرحية الانتخابية أن يتكرموا بإرسالها إلى منظمات حقوق الإنسان التي لعبت بإخلاص دور الناقد الفني في المسرحية، ليس فقط لأن المساحة المخصصة لي تضيق عن نشر هذه الرسائل، ولكن لأنني بصراحة شديدة لست متعاطفًا مع كل من شارك في هذه المسرحية دون الحصول على أي ضمانات سياسية أو قانونية تكفل نزاهتها النسبية، ليمنحوها بمشاركتهم الشرعية السياسية اللازمة لأي انتخابات، وسواء كان ذلك القرار قد تم بناؤه على وعود كاذبة لم تنفذ، أو بناء على حسابات سياسية خاطئة، فالذي حدث أن تلك المشاركة منحت الانتخابات الشرعية السياسية التي كان يحتاجها الحزب الوطني، وحتى عندما تم إعلان الانسحاب بعد فوات الأوان، كان ذلك القرار قد فقد معناه، برغم محاولة المنسحبين تصوير أنفسهم أنهم سددوا ضربة قاصمة للحزب الوطني، وأنه ظهر أمام العالم بأنه يسحق المعارضة، وهي سذاجة سياسية تفترض أن الحزب لم يكن يرغب في هذا منذ البداية، مع أنك لو سألت أي طفل يلعب في الشارع السياسي لقال لك إن هذا السيناريو كان مخططًا له منذ البداية؛ بهدف إحكام السيطرة على الانتخابات الرئاسية القادمة، ومنع تسلل أي مستقل ذي شعبية إليها بعد حصوله على الأصوات النيابية المنصوص عليها في مادة الدستور المطبوخة سلفًا حسب رغبة الزبون الوحيد، وهو الهدف الذي تحقق ببراعة وساعدت على تحقيقه، إما تواطؤًا وإما غباءً، قيادات المعارضة من جميع التيارات.

على أية حال اخترت أن أنشر من بين كل الرسائل رسالة لا يبدو أن لها علاقة مباشرة بوقائع المسرحية الانتخابية، أرسلها إليَّ الكاتب الشاب كريم الشاذلي المتخصص في

التنمية الذاتية يحكي فيها عن تجربة شخصية حدثت له في ليلة الانتخابات، لكنها تقول الكثير عنها، تقول الرسالة:

«لعله في زوبعة الانتخابات والقضايا الكبرى التي تفرزها تلك المعركة الشرسة لا يوجد مكان لطرح قضايا جانبية، لكن الأشياء الصغيرة في كثير من الأحيان تعطي دلالات أكثر خطورة؛ لأنها تعبر عن واقع من الممكن أن يجد أحدنا نفسه عالقًا به وقد كان يقرأه أمس وهو يحتسي فنجان قهوته الصباحية. يوم السبت كان يومًا عاديًّا لا تنذر سماؤه بأي شيء مختلف، اللهم إلا الضباب الكثيف الذي يغطي سماء القاهرة، كان عندي يومها صباحًا حديث في برنامج صباح الخير يا مصر للحديث عن كتابي الجديد، وبعض الأعمال الخاصة بشركتي، ومساءً حضور حفل توقيع الصديق العزيز عمر طاهر في مكتبة ألف بالزمالك.. وبعد انتهاء الحفل قررت العودة إلى بلدتي حيث أقطن في محافظة الدقهلية، كان معي صديق أقللته في سيارتي إلى حيث سيهبط في مدينة قها على طريق مصر إسكندرية الزراعي، وما إن توقفت السيارة وهمَّ بالنزول إلا ووجدت في أقل من ثانية اثنين من البلطجية يحمل كلٌّ منهما ما ظننته سيفًا واتضح أنه سنجة بعد ذلك، وعيونهم الغائمة تؤكد أن أذهانهم ليست حاضرة معهم، ودون كلمة واحدة كانت سنجة واحد منهما تصنع خطًّا دمويًّا على ظهري لتؤكد أن الأمر جد وليس بالهزل، ولأني أحمل مبالغ مالية كبيرة خاصة بعملي وجهاز الكمبيوتر المحمول خاصتي وغيرها من المتعلقات الهامة، فقد اتخذت قراري بالاشتباك معهم، وكل أملي أن ألفت نظر إحدى السيارات المارة في الطريق، كان الاشتباك مفاجئًا لهم، وهو ما أعطاني تفوقًا لحظيًّا سمح لي بأن ألقي الشخص الواقف أمامي في إحدى الترع الصغيرة على يمين الطريق، وأهبط خلفه محاولًا جذب الآخر بعيدًا عن السيارة وإعطاء صديقي المرعوب الفرصة لإيقاف إحدى السيارات، المدهش في الأمر أن الأمور جرت وفق ما أشتهي إلا أن السيارات التي توقفت ما إن رأت السيوف المشهرة إلا وعادت أدراجها كالريح، سيارة بها أحد عشر راكبًا، وأخرى نقل، وثالثة ملاكي، تبطئ قليلًا ثم تُسرع مرة ثانية.

لعل الشيء الجيد أن أنوار السيارات وهي تبطئ دفعت أحدهما لأن يسرق هاتفين محمولين من السيارة والاختفاء وسط الزراعات دون أن يلفت انتباهه الشنطة الصغيرة الموضوعة أسفل الكرسي الخلفي، قبل أن يعاجلني الشخص الأخير بضربة على رأسي ويختفي هو الآخر.. بلا إبطاء وبدافع الخوف والرعب ركبت سيارتي متوجهًا إلى قسم

شرطة قها، متوهمًا أن الشرطة لا زالت في خدمة الشعب، لن أحدثك سيدي عن حالة الخمول التي وجدتها وعدم اللامبالاة، ولّا تخشب الضابط أمام الشاشة متابعًا لفيلم أجنبي وهو يشير لهم بإشارة لها مغزاها أن يعيدوني إليه بعد انتهاء الفيلم، ولن أحدثك عن الساعات الأربع التي قضيتها وأنا أنزف من أجل عمل محضر رسمي، ولا بإخبارهم أنني مصاب ويجب الذهاب للمستشفى لأني أشعر بدوار شديد، ولا بتلك الحباية المجهولة التي أعطاها لي أحدهم في ود وهو يؤكد أنها ستجعلني لا أشعر بأي ألم، لن أحدثك عن الجولة التي قاموا بها بسيارتي في مكان الحادث بعد ساعة كاملة، وليس بعد وصولي، وكأن اللصوص سينتظرون أن يلتقط لهم البعض بعض الصور التذكارية، لكنني يا سيدي سأترك رد «البيك» رئيس المباحث وهو يقول لي بعدما قرأ المحضر: «أنت ثالث حالة تُسرق بهذه الطريقة، الفرق بينك وبين الحالتين الأخريين أنك الوحيد الآتي على قدميه، ونصيحتي إذا ما حدث لك شيء مشابه أن تعطي اللص ما يريد حتى لا تأتيني في المرة القادمة جثة هامدة»، ثم أتبع وهو ينهي كلامه: «المشكلة في التوقيت، انتخابات الإعادة غدًا كما تعلم.. اتوكل على الله واحنا هنعمل المطلوب». فتركته ذاهبًا للمستشفى وقد وعيت الدرس جيدًا، إذا ما أردت أن أكون ضحية في مرة قادمة فيجب ـ كي أكون حسن الحظ ـ ألا أقاوم اللصوص، وألا يكون ذلك عشية إجراء الانتخابات، بيد أن الدرس الأصعب والأسوء والأكثر مرارة يا سيدي أنني لا يجب أبدًا أن أراهن على شهامة المواطن المصري.. فربما يكون الثمن المرة القادمة هو عنقي. أعتذر للإطالة.. كريم الشاذلي.. أحد من يكتبون عن الأمل والتفاؤل والغد المشرق».

٨ ديسمبر ٢٠١٠

إنهم يكتبونني

لا تقرأ لي اليوم. اقرأ لأعظم أديب في الكون، لنجيب محفوظ، أجمل وأهم وأعظم ما قدمته مصر للحضارة الإنسانية:

«ويل الناس من حاكم لا حياء له... يأتي بإرادة لا علاقة لها بإرادة الناس ويرحل بنفس الإرادة، ويبدأ حكمه باعثًا على الأمل وينهيه مشيعًا باللعنات».

ـ ليالي ألف ليلة

«ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر».

ـ اللص والكلاب

«لأننا نخاف البوليس والجيش والإنجليز والأمريكان والظاهر والباطن فقد انتهى بنا الأمر إلى ألا نخاف شيئًا».

ـ ثرثرة فوق النيل

«ما جدوى الندم بعد الثمانين».

ـ ميرامار

«إذا لم يكن للحياة معنى فلِمَ لا نخلق لها معنى؟ ربما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن معنى بينما أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى».

ـ السكرية

«كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهربون والقوادون والشيعة والسنة. حكايات ولا ألف ليلة. متى تبدأ المجاعة؟ والفتنة الطائفية من يوقظها؟

مجلس الشعب كان مكانًا للرقص فأصبح مكانًا للغناء. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيض اليوم؟ يسود صمت شامل ريثما تذهب امرأة قادمة من الطريق إلى بيت دعارة وراء المقهى وتنعقد مقارنة بين تضخم عجيزتها والتضخم المالي العام. شاب شاذ يقترح الشذوذ كحل لأزمة الحب في الطبقة ذات الدخل الثابت وأيضًا لتحقيق الهدف من تنظيم الأسرة. لا خلاص إلا بالخلاص من كامب ديفيد. حرب أبدية والويل لعملاء التطبيع... الضيق بالغ غايته من كثرة الأسئلة عما يجوز وعما يجب أو لا يجب، على حين ينشغل اللصوص بتوزيع الغنائم، أستعيذ بالله وبكل صاحب كرامة وبكل مالك علم أن يُقدِم لتبديد ظلمات هذا الليل الطويل. نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر. فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى في أعماقنا فأحببنا الغناء الشجي والمسرحية المفجعة والبطل الشهيد، ولذا جميع زعمائنا شهداء. علمني زمني أن أفكر. علمني أيضًا أن أستهين بكل شيء وأن أشك في كل شيء. ربما قرأت عن مشروع منعش للآمال وسرعان ما يكشف المفسرون عن حقيقته فلا يتمخض عن أكثر من لعبة قذرة. هل تترك السفينة للغرق؟ هي عصابة مسلطة علينا لا أكثر ولا أقل؟ أين الأيام الحلوة؟ قلت لحبيبتي مرة: «فلنتسل بحصر أعدائنا». فدخلت اللعبة قائلة: «غول الانفتاح واللصوص الأماثل». قلت: «هل ينفعنا قتل مليون؟». فقالت ضاحكة: «قد ينفعنا قتل واحد فقط».».

ـ يوم قتل الزعيم

«بماذا ينفعك حب الناس إذا أبغضك البوليس».

ـ اللص والكلاب

«لأن نبقى بلا دور في بلد له دور خير من أن يكون لنا دور في بلد لا دور له».

ـ السمان والخريف

«ديننا عظيم وحياتنا وثنية».

ـ رحلة ابن فطومة

«إننا نجرب الموت ونحن لا ندري مرات ومرات في حياتنا قبل أن يدركنا الموت النهائي».

ـ السمان والخريف

«من غيرة الحق أن لم يجعل لأحد إليه طريقًا، ولم يُيئِس أحدًا من الوصول إليه، وترك

الخلق في مفاوز التحير يركضون، وفي بحار الظن يغرقون، فمن ظن أنه واصل فاصله، ومن ظن أنه فاصل تاه، فلا وصول، ولا مهرب عنه، ولا بد منه».

ـ ليالي ألف ليلة

«سألت الشيخ عبد ربه التائه: متى يصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة».

ـ أصداء السيرة الذاتية

١٥ ديسمبر ٢٠١٠

رسالة في جدعنة الكلاب

أحيانًا عندما أسمع أحدًا يحذر أبناء الوطن من أولئك الذين يريدون أن يعيدوننا إلى الماضي، أقول متحسرًا: «يا ليتنا يا قوم نعود إلى الماضي أو إلى بعض منه على الأقل، فقد كان في الماضي أشياء كثيرة عاشها أجدادنا واستمتعوا بها، بينما هي في أيامنا هذه باتت تدخل تحت بند الحرام أو بند العيب وأحيانًا في بند المستحيل». قد تفهم من كلامي أننا فارقنا الماضي وتقدمنا بحمد الله، أنا آسف كنت أتمنى أن أزف إليك بشرى كهذه، ستقول لي: «طيب طالما أننا لا نتقدم فنحن بحكم القوانين الطبيعية إما نتأخر وإما في أحسن الأحوال مستقرون في أماكننا». للأسف لسنا مستقرين في أماكننا وإلا لما كنت تشم الآن هذا الغبار الناتج عن الحفر المنتظم، في نفس الوقت أعتقد أنه لا يمكن لأي جهاز يرصد حركة أجسام الشعوب أن يثبت أننا نتقدم ولو حتى إلى الأسفل، بالعكس ستثبت جميع مؤشراته أننا نعود، ولكننا بالتأكيد لا نعود إلى الماضي، بل نعود إلى وجهة غير معلومة، أتمنى أن يكون تحديدها المهمة العلمية القادمة للعالم الجليل الدكتور أحمد زويل وفريقه البحثي، وأنا أضمن له «برقبتي» وسلسلة ظهري أنه سيحصل على جائزة نوبل ثانية؛ لأنه لن يكتشف هذه المرة وحدة جديدة لقياس الزمن، بل سيكتشف زمنًا جديدًا غير جميع الأزمان المتعارف عليها في حصص اللغة العربية والإنجليزية وسائر اللغات الرسمية والمحكية.

أنت تعلم أنني تقدمي بالسليقة، وأكره كل ما يمت لكلمتي «الزمن الجميل» بصلة، لدرجة أنني ضيعت وقتًا لا بأس به من زمني الجميل في محاولة فضح تلك الأكذوبة بالوثائق والمستندات، لكنني أثق أنك ذكي ولا أظنك تحتاجني أن أعدد لك الأشياء التي نتمنى لو ظلت لدينا كما كانت في الماضي؛ لأنني لو فعلت ستبدأ في «التعديد» واللطم قبل أن أنتهي من تعدادها. سأكتفي اليوم بأن أذكرك أننا عشنا زمنًا كنا نعرف فيه

قيمة الكلاب، فلا يغضب أحدنا إذا تم وصف من يرتكب أحط الأفعال بأنه كلب، لن يجد أحدًا يتهمه بأنه أهان الإنسان الذي كرمه الله، وقبل أن تتهمني بالتجديف أو بأنني أهرف بما لا أعرف، دعني أذكرك بأنه في الماضي وبالتحديد في سنة ثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية، كان مسموحًا لعالم جليل مثل أبي بكر محمد بن خلف أن يكتب رسالة علمية عنوانها «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، وإذا بحثت عنه في مواقع كتب التراث على شبكة الإنترنت ستجده يبدأ كتابه قائلًا:

«ذكرت أعزك الله زماننا هذا وفساد مودة أهله وخسة أخلاقهم ولؤم طباعهم، وأن أبعد الناس سفرًا من كان سفره في طلب أخ صالح... وقد يُروى عن أبي ذر الغفاري أنه قال: «كان الناس ورقًا لا شوك فيه فصاروا شوكًا لا ورق فيه...». قال لبيد:

ذَهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم   وبَقِيتُ في خَلفٍ كجِلدِ الأجْربِ».

ثم بعد أن يأخذ مولانا ابن خلف في تعداد أشهر أقوال ذم الزمان التي وردت من أناس عاشوا في أزمان الصحابة والتابعين والخلافات الزاهرة، يدخل في لُبِّ موضوع كتابه قائلًا:

«واعلم أعزك الله أن الكلب لمن يقتنيه أشفق من الوالد على ولده، والأخ الشقيق على أخيه، وذلك أنه يحرس ربه ويحمي حريمه شاهدًا وغائبًا ونائمًا ويقظانًا، لا يقصر عن ذلك وإن جفوه ولا يخذلهم وإن خذلوه».

ثم يروي عن سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه رأى رجلًا قتله كلب بعد أن حاول سرقة نعجة من قطيع كان يحرسه الكلب فقال صلى الله عليه وسلم: «أيعجز أحدكم أن يحفظ أخاه المسلم في نفسه وأهله كحفظ هذا الكلب ماشية أربابه».

ويُروى أن الأحنف بن قيس قال: «إذا بصبص الكلب لك فثق بود منه ولا تثق ببصابص الناس فرب مبصبص خوان».

وقال الشعبي: «خير خصلة في الكلب أنه لا ينافق في محبته».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كلب أمين خير من إنسان خؤون».

ورُوي عن بعضهم: «الناس في هذا الزمان خنازير فإذا رأيتم كلبًا فتمسكوا به فإنه خير من أناس هذا الزمان».

وأنشد أبو العباس الأزدي:

لَكَلبُ النَّاسِ إن فَكَّرت فيهم — أَضَرُّ عليك من كَلبِ الكِلابِ

وقال آخر:

إنَّ قومًا رأوك شَبهًا لكلبٍ — لا رأوا للظلام صُبحًا مُضيًا
أنت لا تحفظُ الزِّمام لِخَلقٍ — وهو يرعى الزِّمام رَعيًا وفيّا
يشكرُ النَّزر من كريمِ فِعالٍ — آخــرَ الــدهــر لا تــراه نَسِيًّا
وتُــنــاديــه مــن مــكــانٍ بعيدٍ — فيوافيك طائعًا مُستحيًّا
إنَّ سـؤلـي وبغيتي ومنايا — أن أراك الـغَـداة كلبًا سويًّا

وختامًا يروي ابن خلف أن الأعمش كان له كلب يتبعه في الطريق ليحرسه إذا مشى حتى يرجع إلى بيته وما ذاك إلا لأنه رأى صبيانًا يضربون الكلب ففرق بينهم وبينه، فعرف له الكلب معروفه وظل له ذاكرًا. ثم يتبع الحكاية بقوله: «ولو عاش أيّدك الله الأعمش إلى عصرنا ووقتنا هذا حتى يرى أهل زماننا هذا لازداد في كلبه رغبة وله محبة». وأقول لمولانا ابن خلف: «لو عشت أنت والأعمش إلى عصرنا هذا لازددتما محبة لكل الكلاب، ولما احتجت إلى كتابة رسالة تثبت فيه أن الكلاب أجدع وأرجل وأكثر إنسانية وشرفًا من كثير من لابسي الثياب. وهو المطلوب إثباته بالتفصيل. هـ ط ث».

نشرت هذه المقالة بتاريخ ١٨ ديسمبر ٢٠١٠، عقب احتجاج رئيس الديوان الرئاسي زكريا عزمي على رسم كاريكاتيري لصديقي الفنان عمرو سليم، وصفه عزمي بأنه يُشبِّه أعضاء مجلس الشعب بالكلاب

ما تغيرش علينا حال!

لي صديق أهبل يعيش أسود أيامه منذ أن قرأ في الصحف خبرًا عن انتخاب جدو الدكتور فتحي سرور رئيسًا لمجلس الشعب لدورة جديدة لا يعلم عددها إلا الله والراسخون في الحكم، ثم ازدادت أيامه سوادًا عندما قرأ خبرًا ينفي فيه مصدر حكومي رفيع بشدة ما نشرته صحيفة قومية عن تعديلات وزارية مرتقبة، ولولا أن قلب المصدر كان كبيرًا لكان قد دعا إلى تطبيق حد الحرابة على تلك الصحيفة المرجفة في الأرض التي تطلق مثل هذه التشنيعات عن التغيير، وتقول إننا بلد لا سمح الله يمكن أن يتغير فيه أحد.

صديقي الأهبل مصاب بصدمة عصبية منذ أن قرأ تلك الأخبار؛ لأنه أجاركم الله يتمتع بعبط سلجوقي يجعله يصاب بنوبات تفاؤل بالتغيير الشامل مع كل فترة رئاسية أو انتخابات برلمانية، وهي النوبات التي تنتهي كالعادة بإخفاق ذريع مما أدى بعد تكرارها إلى إصابته بالتهابات حادة في الإرادة وشرخ في فتحة اليأس بالإضافة إلى مشاكل حادة في الفراش بسبب طول السهاد والتقلب على الجنبين محاولًا البحث عن أسباب مقنعة لتمسك الرئيس مبارك كل هذه السنيييييين بنجوم مسرح اللامعقول الذي يحكمنا، بالطبع لم يجد صديقي أسبابًا مقنعة، ربما لأن سيادة الرئيس لا يمتلك مثل هذه الأسباب المقنعة أساسًا، فأغلب الظن أن سيادته يرتاح لوجود هذه الأسماء؛ لأن وشها حلو عليه، ففي ظلها وصل إلى مقعد نائب الرئيس، وفي ظلها وصل إلى مقعد الرئيس، وفي ظلها أيضًا ربما يصل ابنه إلى مقعد الرئيس، لماذا إذن يقوم سيادته بتغيير أناس لم يرَ منهم حاجة وحشة أبدًا.

إذا كان بينكم من يعترض على تفسير كهذا، دعوني أقل له إنه لن يتفهم منطقًا كهذا إلا إذا كان صاحب عمل ولم يكن عاطلًا والعياذ بالله كالقِلة المنحرفة من شباب مصر،

وإذا كان كذلك فدعوني أسأله ببساطة: بالله عليك يا شيخ متى كانت آخر مرة غيَّرت فيها أيًّا من معاونيك الذين ترتاح إليهم، مثل ساعي المكتب الذي تتفاءل به والذي ربما تكون قد ورثته عن المرحوم باباك؟ هل غيرت مثلًا سائقك الذي ترتاح إليه لأنه يطاوعك في الفاضية والمليانة، هل غيرت يومًا ما الشغالة التي تصون بيتك وتراعي طلباته ولا تثير غيرة زوجتك وترضى بأقل القليل من المال؟ بالتأكيد لم تفعل ولا ألومك على ذلك أبدًا، فمن حقك أن تأنس إلى من كانت وجوههم حلوة عليك، وتشعر بالغربة والحيرة والضياع لو فارقك أحدهم أو رحل إلى جوار ربه. طيب إذن لماذا تفترض أن هناك حاكمًا في العالم الثالث يمكن أن يغير الناس اللي بقالهم معاه سنين واكلين شاربين حاكمين حابسين وممددين وربنا يديهم الصحة وطولة العمر ونشوفهم كده مورثين بإذن الله.

طيب ماذا إذا كنت لا تمتلك شغلة ولا مشغلة، وكنت من الذين لا يلقون اللضا، أو من الذين لقوه وسرقه أحد منهم، إذا كنت من هؤلاء فسأقرب لك المعنى بطريقة أخرى: تخيل يا سيدي أنك فجأة وأنت تقرأ ما أكتبه لك الآن، جاءك على حين غرة تليفون من «برايفت نمبر»، يُخبرك أنه وقع عليك الاختيار السامي لتكون نائبًا لرئيس الجمهورية أو حتى نائبًا لرئيس محطة مصر، بذمتك ألن تظل تتفاءل بي طول حياتك وستعتبرني كاتبك المفضل مدى حياتك وحياة أولادك من بعدك؟ ألن تفكر في البحث عن تليفوني بكل حرارة لتخبرني أن أطلب منك أي خدمة تعن لي لأن وجهي كان حلوًا عليك؟ طيب لماذا تستكثر نفس هذا المنطق في التفكير على أي حاكم يحب أن يظل محاطًا برجاله طيلة فترة توليه الحكم. هلَّا نظرت إلى وجوه قادة الدول الغربية في اجتماعاتهم كيف ترهقها قترة، بسبب قيامهم الدائم بتغيير مساعديهم، دقق في تعاريج ملامحهم وثنايا ابتساماتهم الزائفة ستجدهم يعانون من غربة الروح، فالواحد منهم يمكن أن يبدأ فترته الرئاسية بطاقم مساعدين وينهيه بطاقم رابع أو خامس، صحيح أن ذلك يحقق له ولشعبه إنجازات طائلة بالمفهوم المادي، لكن قل لي بالله عليك ماذا يفيدك كإنسان لو كسبت شعبك وخسرت روحك؟!

يا سيدي ضع نفسك مكان الرئيس، لا سمح الله يعني فهذا مجرد افتراض درامي، وتخيل أنك ستصحو ذات يوم لتحكم فلن تجد حولك الدكتور فتحي وهو يزغر للنواب قائلًا: «إجماع.. موافقة.. تصفيق»، ولن تسمع كلمة «ميصر» وهي طالعة زي العسل من بوقّ السيد صفوت الشريف ـ بوقّه أو بوقِه.. ما فرقتش ـ ولن ترى نكشة شعر فاروق حسني

المميزة وهو يحكي لك عن آخر «سمبوزيوم» أقامه، لن ترى الدكتور زكريا عزمي وهو يدهشك بمعارضته الشرسة تحت القبة ثم يعود إليك بعد الجلسة مواليًا شرسًا، ولن يهزك حنان أم المصريين آمال عثمان التي تتدفق حكمتها كنهر النيل منذ قديم الأزل، ماذا يبقى لك إذن إذا أخذ الزمن منك كل هؤلاء؟ هل ستكون ذاتك؟ هل ستُقبل على الحكم بنفس راضية مطمئنة؟.. بالطبع لا.. ستهتز من داخلك وستشعر بغربة تعطلك عن استكمال مسيرة الإنجاز، وعندها مصر وحدها ستدفع الثمن غاليًا وهذا ما لا يرضاه أي مصري مخلص.

لا يا قوم، والله لا عشنا ولا كنا لو رضينا بأن يفقد رئيسنا المحبوب عِشرته الغالية الطيبة لمجرد أن يُرضي أشواقنا المريضة لرؤية وجوه جديدة، ولذلك ها نحن نطالبه صادقين مهللين بأن يعيد إلينا يوسف والي والسيد راشد ومحمد عبد اللاه ومحمد موسى وغيرهم من الذين لم يعرف الشعب غير الناضج خطورة رحيلهم، ونترجاه بألّا يسمح للوزراء الذين قيل إنهم سيرحلون لأسباب صحية بالابتعاد؛ فإذا لم نكن سنشيل وزيرًا في مرضه فلا خير فينا والله.. وعلى سيادته أن يعلم أننا نقدر له حرصه على تكريم من تضطره الظروف لتغييره أو إقالته فيحرص دائمًا على دعوته في المناسبات الرسمية ليجلس في الصف الأول جنبًا إلى جنب مع من خلفوهم في المنصب، ليس لتذكير الخلفاء بالمصير الذي سيفضون إليه لو لخبطوا العجين، بل لأننا في مصر نحترم تراثنا وتقاليدنا، وتقاليد الموت لدى قدماء المصريين تقضي بضرورة أن يشارك جميع الأزواج السابقين في عزاء الفقيدة.

لذلك ولذلك كله، سيادة الرئيس سر في طريقك، فوالله لو أعدت إلينا باختيار رئاسي الدكتور علي لطفي رئيسًا للحكومة، وبمعجزة ما الدكتور صوفي أبو طالب رئيسًا لمجلس الشعب، وخضت بنا البحر الأعظم والبحر أبو جريشة لخضناهما معك، فنحن نقدر خوفك الأبوي علينا من التغيير في هذه الأجواء المتقلبة التي يعلم جميع المصريين أنها أجواء عيا.

(عزيزي القارئ: هل ستزعل لو قلت لك إنني نشرت هذا المقال في سنة ٢٠٠٥ عقب انتخابات مجلس الشعب الماضية؟ حتى لو زعلت، للأسف هذه هي الحقيقة، والحقيقة دائمًا بتزعل، المشكلة ليست في زعلك، فهو مقدور عليه في كل حال، المشكلة في زعل الذين لا يريدون أبدًا أن يتغير علينا حال).

٢٠ ديسمبر ٢٠١٠

سيبوهم يسقفوا

بينما كان سيادة الرئيس يقف منتظرًا أعضاء مجلس الحزب الوطني المنعقد أمامه تحت قبة مجلس الشعب حتى ينتهوا من نوبات التصفيق، هل فكر سيادته ولو للحظة أن هؤلاء الأعضاء ربما لا يصفقون له لأنه على حق، بل يصفقون له لأنه الرئيس؟ هل تذكر سيادة الرئيس خلال نوبات التصفيق المتصاعدة أن مقاعد المجلس التي عرفها منذ سنوات بعيدة كانت دائمًا لا تشهد سوى التصفيق له ولسابقيه؟ هل سأل نفسه ولو للحظة إلى أين ذهب بنا كل ذلك التصفيق؟ وإلى أين ذهب الذين صفَّقوا والذين صُفِّق لهم؟ هل فكر سيادته أن يقطع الخطاب وينظر في وجوه الحاضرين ويقول لهم ببديهته الحاضرة: «هو في إيه.. مفيش حد معترض على أي حاجة قلتها؟»!

«سيبوهم يتسلوا». كانت هذه الجملة أكثر ما صفق له الأعضاء طربًا في ذلك اليوم الحزين. «سيبوهم يتسلوا»، كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، ردَّ بهما الرئيس على مئات الكلمات التي قيلت في محاولة تحميل شخص اسمه أحمد عز مسئولية ما حدث في مهزلة الانتخابات الماضية، كلمتان نَسفتا كل محاولات بعض البلهاء أو المغرضين أو حسني النوايا ـ سمِّهم ما شئت ـ تصوير أن ما جرى في الانتخابات لم يكن للرئيس علم به، كلمتان أثبت بهما الرئيس أنه أكبر من أن يلعب الصغار في حضرته، وأن كل ما جرى كان برضاه وعلمه وتأييده، كلمتان لو كان بين الحاضرين رجل يخاف على مصر بجد لوقف بكل أدب وقال لسيادة الرئيس إنه كان يجب أن يتذكر ما قاله في خطابه الذي أعقب الانتخابات إنه رئيس لكل المصريين، وإنه ليس من مصلحة البلاد أن يتم التعامل بهذا النهج مع أناس من خيرة أبناء مصر لمجرد أنهم قرروا أن يعترضوا على ما نالهم من تعسف وتزوير أيدته أحكام القضاء.

لا أدعي أنني أشجع الشجعان في زماني، ربما لو كنت جالسًا في تلك القاعة أستمع إلى خطاب الرئيس لكنت قد جبنت عن الاعتراض على ما قاله، حتى لو كنت أمتلك حصانة برلمانية تحمي ظهري، لكني متأكد أنني لم أكن سأصفق أبدًا، كنت سأعارض بالصمت الحزين، كنت سألتزم بأضعف الإيمان وأنكر ما قاله بقلبي، كنت سأعلن خوفي بشدة على مصر من برلمان الرأي الواحد، وربما دفعني خوفي لأن أقف لأصرخ في قلب القاعة: «تحيا مصر». أعلم أن البعض كان سينظر لي مستغربًا، وربما ظن البعض الآخر أنني هتفت بذلك الهتاف تأييدًا للرئيس، وربما أخذوا يصفقون له مجددًا، ربما، لكن أنا في داخلي فقط كنت سأعلم أنني هتفت على أمل أن تحيا مصر بلدًا عظيمًا كبيرًا، وأنا أعلم أنها لن تكون كذلك إلا بالديمقراطية الحقيقية، إلا بأن يكون الحاكم لكل شعبه، إلا بأن يجد الحاكم من يقول له بين الحين والآخر: «أنت لست خالدًا.. أنت لست مُلهَمًا.. أنت بشر.. أنت تخطئ.. أنت تحتاج إلى من يختلف معك أكثر ممن يصفق لك.. مصر أحوج ما تكون الآن إلى من يعترض وينقد ويحاور ويتناقش ويختلف وليس إلى من يصفق ويهلل ويبايع».

أنا لم أكن جالسًا في تلك القاعة، وربما لو دُعيت لأن أجلس فيها لما كنت قد ذهبت مثل قادة المعارضة الكرتونية، ومع ذلك سأفترض أن أحدًا ما سيوصل صوتي إلى الرئيس، فليس حيلتي إلا أن أحلم بأنه سيسمعني وأنا أقول: «يا سيادة الرئيس أنا حزين لأنك تصورت أن المعارضة تسلية مع أنها أمر شاق على النفس، سيادة الرئيس كم كنت أحب أن أؤيدك بشدة، فأنا ربما موهوب في المديح بشكل لا يتخيله أحد، على الأقل أنا أحفظ كل مدائح أبي الطيب المتنبي وأستطيع أن أنسج من وحيها ما يفوق كل ما قيل في مدحك، أنا أيضًا يا سيدي أمتلك كفين عريضتين قادرتين على صنع تصفيق له دويّ، لكنك لم تعطني ما أُصفق من أجله، لا أظن أن سيادتك مهتم بأن تسألني لماذا أقول ذلك، لأنك لو كنت مهتمًّا به لطلبت رأي أحد الذين ظننت أنهم يتسلون بالمعارضة.

يا سيادة الرئيس: تحيا مصر».

٢١ ديسمبر ٢٠١٠

إنهم يكتبونني

لا تقرأ لي اليوم، اقرأ لهم، إنهم يكتبونني:

«الطغاة كالأرقام القياسية لا بد أن تتحطم في يوم من الأيام».

ـ العملاق محمد الماغوط

«الكاتب الذي يتمتع بالسلام يفتقر إلى النزاهة».

ـ الحاصل على جائزة نوبل للآداب ديريك والكوت

«لا بد من وجود كاتب رديء باستمرار، وذلك لأنه يشبع ذوق الأجيال الشابة التي لم تتطور بعد، ولهذه الأجيال حاجات كالآخرين تمامًا، ولو كانت الحياة الإنسانية أطول لكان عدد الناضجين يفوق أو يعادل عدد اللاناضجين، لكن الناس وفي الحياة كما هي يموتون شبابًا، أي أن هناك دومًا غالبية من العقول المتخلفة ذات الذوق الرديء، هذه العقول تطالب بكل عنف الشباب بإرضاء وإشباع حاجاتها، وتسبب وجود كتاب رديئين مخصصين لها».

ـ الفيلسوف العظيم نيتشه من كتابه «ما وراء الخير والشر»

«لا أريد أن أزيد بلادي فقرًا برحيل عنها».

ـ المفكر اليوناني بلوتارك

«لقد أردت فحسب أن أقول للناس بصدق وصراحة: انظروا إلى أنفسكم، انظروا كيف تحيون حياة سيئة مملة، فأهم شيء أن يفهم الناس ذلك، وعندما يفهمونه سيشيدون حتمًا حياة أخرى أفضل، وستكون حياة مختلفة تمامًا لا تشبه هذه الحياة».

ـ الأديب الروسي الأعظم أنطون تشيكوف

«نعم، يجب أن نورط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام، ليس هناك أيد نقية، ليس هناك أبرياء، ليس هناك متفرجون، نحن جميعًا بسبيل تلطيخ أيدينا في مستنقعات أرضنا، وفي الفراغ الرهيب الذي يرين على عقولنا، كل متفرج جبان أو خائن».

ـ الأديب الفرنسي العظيم فرانز فانون من «معذبو الأرض»

سئل أحد حكماء اليونان لماذا نعطف على الفقراء ولا نعطف على أصحاب المواهب، فقال:

«إن الفقر مرض تنتقل عدواه إلى الناس، أما الموهبة فهي مرض لا تنتقل عدواه إلى أحد».

«الأفلام وقائع غير منطقية، مراوغة، غير مضمونة دائمًا، فبوسعك أن تبذل قصارى جهدك وتخرج بقبض الريح، ويمكنك أيضًا أن تخرج بعد نفس الجهد بكيمياء سحرية تنعكس على الشاشة».

ـ المخرجة الهندية الكبيرة مايرا نير

«قلت لكاتب فرنسي إن لدينا اتحادًا للكُتاب فقال لي: كيف هذا؟ الكُتاب لم يوجدوا لكي يكون بينهم اتحاد، بل لكي يكون بينهم اختلاف».

ـ الكاتب السوري الراحل حسيب كيالي

«لا أريد الانتساب إلى أي نادٍ يقبل بمثلي عضوًا فيه».

ـ الكوميدي الأمريكي غروشو ماركس

«لا تثق أبدًا بحلاق أصلع؛ لأنه لن يكن احترامًا لشعرك».

ـ جملة من الفيلم الأمريكي «كافس»

«أنت أيها المثقف ماذا فعلت من أجل هذه المنطقة الخربة، وماذا قدمت لكتلة البشر المعدمين هؤلاء، فبعد أن مصصت دمهم لسنين، بل لمئات السنين، ألقيت بهم على الأرض القاسية لا حول لهم ولا قوة، ثم تأتي الآن وتعطي لنفسك الحق في التقزز منهم، كانت لشعبك روح لم تستطع النفوذ إليها، كان لهم عقل لم تستطع تنويره، كان لهم جسم لم

تستطع تقويته، كانت لهم أرض يعيشون عليها لم تستطع استثمارها، تركتهم لشهواتهم الحيوانية تحت وطأة الجهل والفقر والعدم، فعاشوا بين تلك الأرض القاسية والسماء اللاهبة، ونموا كأعشاب برية، والآن جئت للحصاد والمنجل بيدك، ولكن ماذا زرعت، وماذا ستحصد، أهذه النباتات الشوكية وهذه الأشواك الجافة، طبعًا ستنغرز في قدميك، ها إن أنحاء كثيرة من جسمك مشققة تدمى، ووجهك عابس من شدة الألم، وقبضتيك مضمومتين من شدة الغضب، هذا الشيء الذي يزعجك ويعذبك، أثر من آثارك».

ـ مقطع من رواية «غريب» للأديب التركي الرائد يعقوب قدري أوغلو

«الغني شكته شوكة بقت البلد في دوكة، الفقير قرصه تعبان قالوا اسكت بلاش كلام».

ـ مثل شعبي بألف مما تعدون

٢٥ ديسمبر ٢٠١٠

ما يصحش

والله العظيم ثلاثة، هذه ليست صحيفة الأهرام التي نعرف قيمتها وقدرها، هذه مرحلة سوداء في تاريخها وستعبر ولن يذكرها أحد بخير. أرجوكم ألا تحزنوا يا عشاق «الأهرام»؛ فرئيس التحرير الذي وصف يوم ميلاد الرئيس مبارك بأنه «يوم وُلِدت مصر من جديد»، من الطبيعي تمامًا أن ينشر سلسلة مقالات لأمين تنظيم الحزب الوطني بشكل لا يليق إلا بمجلة حائط تعبانة يعلقها الحزب الوطني في أضأل مقراته شأنًا.

والله لم يكن أحد سيعترض لو كانت تلك المقالات قد نشرت ملحوقة أو مسبوقة بجملة تقول: «إعلان تسجيلي من شركات حديد عز». ولم يكن الكثيرون من عشاق الأهرام سيصابون بكل هذا الأسى لو كانت قد أدارت الأمر عقلية صحفية قادرة على إدارة التوازنات السياسية، تعرف تقاليد الصحيفة التي تنتمي إليها، وتدرك كيف استطاعت على مر السنوات أن تحافظ على وقارها وتقاليدها حتى مع كونها لسان حال للحكومات المتعاقبة قبل وبعد تأميم الصحافة. صدقوني، لو كان هناك صحفي «حرفجي» يرأس تحرير الأهرام لأخرج الموضوع بشكل «شيك»، ربما كان قد دعا أحمد عز إلى حوار صحفي شامل يعبر فيه عن آرائه، ويتم فتح باب الردود والتعليقات عليه، ربما كان قد دعا عز بصحبة عدد من ممثلي التيارات السياسية المختلفة إلى كتابة مقالات حول تقييم التجربة الانتخابية، لتُنشر بالتزامن والتساوي حفاظًا على سُمعة الأهرام وصورته وتقاليده.

لقد قرأت الكثير من التعليقات الرائعة التي حاولت أن تفضح المنطق الذي تحدث به أحمد عز، وترد على ما قدمه من أرقام وبيانات وإحصائيات، ومع تقديري لكل ما قام به كُتَّابها من مجهود مخلص، أود أن يقبلوا مني ملاحظة قد تبدو هامشية، وهي أن الخطورة الحقيقية في الأمر لا تكمن فيما قاله أحمد عز، بل في الطريقة التي تحدث بها.

الخطورة الحقيقية أن أحمد عز قرر أن يلعب كل الأدوار في الفيلم السياسي، لعله قال لنفسه: إذا كنت قد وجدت من يسمح لي «في بروجرام واحد» بلعب أدوار رجل الأعمال والسياسي الحزبي والبرلماني الذي يشرع القوانين ويراقب الحكومة التي يتعامل معها تجاريًّا واقتصاديًّا، فلماذا لا ألعب بالمَرَّة دور الكاتب الصحفي الذي يُقيِّم ويُعلِّق ويُحلل ويُناقش. لا وأين فعل ذلك؟ ليس في صحيفة خاصة يستطيع أن يشتري فيها صفحات مدفوعة الأجر لكي يكتب فيها بفلوسه، بل في أعرق صحيفة يمتلكها الشعب المصري، ويُفترض أن تكون معبرة عن كل فئاته وأطيافه واتجاهاته. باختصار أحمد عز يريد أن يكون الشعب والحكومة، يريد أن يكون المال والسلطة والضمير والعقل والنقد والحل والعقد، ومن الآخر الحق ليس عليه، بل على من سمح للأمور بأن تصغر وتتقزم إلى هذا الحد. للأسف الاحتكار يا سادة عقلية وثقافة، وعندما يتعود الإنسان على ممارسته دون ضابط ولا رادع، فمن العبث أن توقفه عند حده، من الهطل أن تذكره بأن قوتك ليست في أن تحجب الهواء عن خصومك، بل في أن تتيح لهم أكبر قدر ممكن من الهواء، ليس مثالية منك أو ترفعًا أو فروسية، بل إدراكًا للمصلحة بالمفهوم السياسي البحت النفعي.

صدقوني، من العبث تذكير رجل يتعامل مع السياسة على أنها صفقة لا تقبل الشراكة، ببديهيات سياسية من نوعية أنك تقوى كسياسي عندما يقوى خصومك، أنك في خطر حقيقي عندما تدفع أعداءك لمواجهتك تحت الأرض، أنك في أزمة عندما تنهك قوة الدولة بمعارك مع الجميع، أنك ترتكب كارثة عندما تحتكر النصر، وحتى إذا كنت تصدق أنك منتصر بمجهودك وبطولتك فدع الخاسر يأخذ حتى فرصته كاملة في الجأر بالشكوى من الخسارة.

ليس عندي اعتقاد أن رأيي مهم أو أن أحدًا يمكن أن يسمعه، لكنني أقوله لكي أرضي ضميري، والأرزاق على الله، صدقوني عندما أقول لكم بحكم خبرتي المتواضعة كقارئ لتاريخ هذه البلاد، ومستعد للتدليل على ما أقول بعشرات الأمثلة، أنه دائمًا كان هناك في مصر ظلم وفساد واستبداد وفقر، لكن دائمًا أيضًا كان هناك من يوقف الأمور عند حدها، دائمًا كان هناك رجل رشيد يقول: لا، كده زيادة، كده كتير، دائمًا كنت تجد في قلب دوائر الحكم رجلًا ينطق بتلك الكلمة العبقرية التي اشتقنا إليها كثيرًا، كلمة: «ما يصحش». وللأسف مشكلة مصر أنها تفتقد مثل ذلك الرجل الآن.

٣٠ ديسمبر ٢٠١٠

تُبنا إلى الحزب!

ليس عيبًا أن نتحلى بالشجاعة ونعترف أن المعارضة ليست أكثر من شهوة نجري وراءها، وآن الأوان لنا في أول يوم من هذا العام الجديد أن ننبذ هذه الشهوة، ونعود إلى وعينا ونراجع أنفسنا في حق هذا العهد المبارك، وأن نستجيب لدعوات وعاظ الصحف القومية فنتوب إلى الحزب الوطني ونندم على ما فعلنا ونَعزِم على ألا نعود أبدًا.

بصراحة ما الذي نريده أكثر مما لدينا بالفعل. لدينا حاكم محبوب يجبره دائمًا الشعب على أن يبقى في سدة الحكم، مع أنه لا يريد ذلك أبدًا. ولدينا مشروع رئيس قادم تحسدنا عليه الدول الصناعية السبع والدول الزراعية التسع. لدينا لجنة أخطر من كل لجان الكباري اسمها لجنة السياسات، يمكن أن تمنح أو تسحب الرخص السياسية لمن شاءت متى شاءت. لدينا أطول نهر في العالم، وأطول رئيس وزراء في العالم، وأطول ليل بهيم في العالم. لدينا أكثر وزراء الأرض نزاهة، ونضافة يد وعقل، وعفة لسان، ودماثة خلق، وبُعدًا عن مطامع الدنيا وشهواتها. كلما أقبلت الدنيا على وزير منهم انتفض وقال لها غُرِّي غيري غُرِّي غيري، وهي ترفض وتأبى إلا أن تُقبل عليه فلا يرضى أن يكسر بخاطرها. لدينا أقوى صحف قومية في العالم؛ توزيع كل منها يفوق العشرة ملايين نسخة، يرأسها أكثر صحفيينا موهبة وتميزًا وحرفية، تنفرد كل منها كل يوم بعشرات الأخبار التي لا يعلمها أحد، وتشارك في صناعة القرار بشكل فعَّال، وتُسقِط وزارات وتأتي بأخرى، لا يمكن أن تُكمل أي مقال لرؤساء تحريرها لكي لا تَسقط مغشيًا عليك من فرط تأثرك بما يكتبه وانبهارك الشديد به. لدينا أحزاب جماهيرية يرأسها رجال صدقوا ما عاهدوا رئيس الجمهورية عليه، منهم من قضى نحبه ومع ذلك يستمر في رئاسة الحزب، ومنهم من ينتظر. لدينا أقوى اقتصاد في «المنتئة»

بحالها. لدينا أقوى حركة ترجمة في العالم؛ بدليل أننا قضينا ربع قرن كامل في محاولة ترجمة الوعود البراقة إلى واقع ملموس. لدينا أطيب وأحن نباتات في العالم جاهزة للتعايش مع أي مبيدات أو هرمونات أو مخلفات بشرية أو بلاء أزرق نيلي. لدينا أكبر سجون في العالم تتسع للمّ كل من لا يقتنع أن المعارضة تمامًا كالجريمة لا تفيد. لدينا أقوى مصانع لتجميع كل شيء تصنعه الشعوب الأخرى. لدينا أقوى مستهلك في العالم معدته تأكل الزلط، وجوارح الطيور، ولحوم الحمير؛ لأنه يؤمن أن الحياة حلوة بس نفهمها. لدينا أكثر دساتير الأرض جلالًا وبهاءً وتعقيدًا؛ دستور يليق بأمة مثلنا. لدينا أكبر حملة تضامن مع مرضى السرطان في العالم، وأكبر عدد من مرضى السرطان أيضًا لكي نتمكن من التضامن معهم. لدينا ألذ مشايخ في العالم؛ يرفعون راية «الإسلام الدايت» الذي لا يقول لا أبدًا إلا لمن شذ عن السبيل واتخذ سبيله في المعارضة سَرَبا. لدينا وحدة وطنية تجعل الشيخ والقسيس يتفقان على تأييد الرئيس لكن ذلك لا يجعلهما يفرطان في دينهما بحيث يطبقان في زُمارة رقبة بعضهما مع أول شائعة عن تنصير فتاة مراهقة أو إسلام فتى عاشق. لدينا أكبر عدد من الكباري التي تتيح لنا حكومتنا فرصة يومية للوقوف عليها بالساعات لكي نتعارف على بعضنا أكثر ونقوي أواصر «اللُّحمة» تعويضًا لنا عن غلاء أسعارها لدى الجزارين. لدينا أضخم محطات صرف صحي في الشرق الأوسط تمكننا من أن لا نشيل جوانا شيئًا كما كنا نفعل قبل ذلك. لدينا أضخم مبنى تلفزيون في العالم؛ به أضخم مذيعات في العالم، وأكثر البرامج عمقًا ونضجًا ووعيًا وجذبًا للمشاهدين. لدينا أضيق وأطول عنق زجاجة في تاريخ البشرية، وأحرج لحظة سياسية و«أخلد» مسيرة تنمية وأعرض ملحمة بناء. لدينا أكبر عدد من الآثار التي تركها لنا الأجداد ربنا يخفف عليهم سؤال الملكين، نعرف كل شيء عنها، ونتعلم في مدارسنا كيف نحبها ونصونها ونحافظ عليها. لدينا مراكز للإشعاع الثقافي بناها لنا أقدم وزير ثقافة في العالم؛ تكاد تحترق من فرط التنوير الذي يشع في جنباتها. لدينا مستشفيات تتمنى أن تموت فيها من كثرة ما تلقاه فيها من عناية ورعاية. لدينا أقوى مدارس وجامعات في العالم لا يستطيع حتى «أينشتاين» أن يقضي فيها يومًا واحدًا لو كان طالبًا فيها. لدينا أقوى قاعدة علمية شعر الدكتور أحمد زويل بجلالة قدره بالتضاؤل عندما وقف إلى جوارها. لدينا أكبر عدد من الأغاني الوطنية التي تصوِّر كفاحنا، وتتغنى بإنجازاتنا، وتسجل حبنا لقائد مسيرتنا التي لا يبدو أنها ستنتهي

أبدًا. لذلك، ولذلك كله، علينا أن نقول بصوت عالٍ: تُبنا إلى الحزب، ورجعنا إلى الحزب، وندمنا على ما فعلنا، وعزمنا على ألا نعود أبدًا. بس ناخد الفيزا الأول يا رب.

«صفحة من مذكرات شاب مصري كتبها في أثناء تسلية نفسه في طابور الانتظار أمام واحدة من السفارات الأجنبية التي أدمن التردد عليها بناء على نصيحة طبيبه النفسي الذي يعالجه من إدمانه على محاولة الانتحار».

١ يناير ٢٠١١

امشوا يرحمكم الله

من قال لحكومتنا التعيسة إن شيخ الأزهر والمفتي ووزير الأوقاف لديهم أصلًا مصداقية عالية وشعبية جارفة في أوساط المسلمين، لكي تقرر أن يكونوا رءوس حربتها في معركتها مع الفتنة الطائفية؟ لماذا لم تسأل القيادة السياسية أجهزتها الأمنية عن حجم شعبية هؤلاء المشايخ في أوساط المصريين المسلمين قبل أن تبعثهم ليتعرضوا للإهانة من شباب مسيحي طائش؟ هل تظن أنها يمكن أن تستفيد من هذه المكانات الدينية الرفيعة شيئًا يُذكر سواء بين المسلمين أو المسيحيين بعد أن ورطت أصحابها عبر السنين في السكوت على تزوير الانتخابات وانتهاك حقوق الإنسان والتطبيع مع الصهاينة وبيع كل شيء بالرخيص؟

الآن تذكرتم أن هناك مكانًا اسمه الأزهر لا بد أن تكون له مكانة وتأثير ودور؟! الآن تذكرتم أن الساحة يجب أن تخلو من أصوات المتطرفين الذين فتحتم لهم منابر المساجد والقنوات الفضائية «على البهلي» وجعلتموهم يُخصون قدرة الناس على التفكير والإبداع؟! الآن فقط تنتظرون نجدة من الأزهر ودار الإفتاء بعد أن أصبح أي شيخ يخطب في جامع بمنطقة عشوائية أكثر تأثيرًا وانتشارًا من كل مشايخ الأزهر ودار الإفتاء؟! الآن بعد أن حولتم شيوخ الأزهر إلى موظفين لا يمتلكون استقلالية ولا خيالًا تنتظرون منهم أن يبعثوا الدين الصحيح في نفوس الشباب؟! هل تتوقعون أن الشباب الذي احتل التطرف فكره وعقله سيقشعر جسده من حديث الدكتور زقزوق الذي لا يبعث إلا على الرغبة في النوم؟!

اتقوا الله في هذه البلاد، وجربوا سكة السلامة ولو لمرة واحدة، لقد فات الوقت على حلول المرحوم حسن الإمام يا سادة، احتضان الشيخ للقسيس كان مجديًا عندما كان

عدونا واحدًا، عندما كان عدونا خارجيًّا، أما الآن فبفضل سياساتكم الفاشلة المستبدة قصيرة النظر المتخبطة عبر عشرات السنين فقد صرنا أعداء لأنفسنا، لقد فعلتم بالمصريين ما لم تفعله بهم جيوش العدوان الثلاثي مجتمعة؛ كسرتم إرادتهم التي لم تنكسر أمام الأساطيل والطائرات والدبابات، هزمتم هذا الشعب من الداخل، جعلتموه شعبًا يحتار فيه أطباء النفس وخبراء الاجتماع، وظننتم أن هناك استقرارًا يمكن أن يحدث في ظل شعب بلا تعليم ولا ثقافة ولا خيال ولا إبداع.

إذا كان هناك حل يمكن أن نبدأ به ضمن حزمة حلول معقدة وطويلة المدى فهو بالضرورة حل سياسي يمكن تلخيصه في كلمتين لا ثالث لهما: «الدولة المدنية». ينبغي أن يكون الهدف القومي لمصر في المرحلة القادمة من أكبر رأس إلى أصغر رأس هو استعادة المصريين جميعًا إلى حضن الدولة، نعم، الدولة، هذه الكلمة التي صارت ببركاتكم سيئة السمعة، نريد دولة لا يتحدث فيها قسيس باسم المسلمين، ولا يتحدث فيها شيخ باسم المسلمين، نريد دولة تتحدث باسم الجميع، دولة تكفل حرية العقيدة للجميع، دولة يكون بها قانون موحد لدور العبادة، ويكون فيها المسجد مقدسًا كالكنيسة دون أن تجعله تلك القداسة مكانًا فوق طائلة القانون، دولة لا يكون فيها للمسيحي ولا للمسلم وكلاء يتحدثون باسمه أو يأتون له بحقه، دولة يسودها العدل الذي هو أساس الملك، تلك الجملة التي يبدو أنكم لم تأخذوها أيام المدرسة، دولة تمنع التمييز بين المصريين على أساس الدين أو الجنس أو اللون أو الثروة أو العِزوة، دولة تجعل الدين سلوكًا لا مظهرًا، دولة تُعَلِّم أطفالها في جميع مناهج التعليم كيف يُحيون روح الدين، ولا تطبق سياسات تزهق روح الدين والدنيا معًا، وهي بالمناسبة دولة لن يصنعها أبدًا محترفو انتخابات مزورة، ولا أصحاب مصالح ضيقة، ولا عديمو خيال، ولا مهاويس سلطة، بل سيصنعها الشعب المصري إذا أراد الحياة، وإذا أدرك أنه يقف على آخر مفترق طرق، وأنه لن يحصل على جنة السماء إلا إذا حاول أولًا صنعها على الأرض.

هذا الحل، أو حَلّ وِسطنا جميعًا.

٥ يناير ٢٠١١

مأساة السيد بلال

«أن تكون مسنودًا في مصر أو لا تكون.. تلك هي المشكلة». عبارة كتبتها عقب محرقة مسرح بني سويف عام ٢٠٠٥، والتي راح فيها نخبة من خيرة شباب مصر. وجدت نفسي أرددها وأنا أشاهد على موقع «اليوتيوب» فيديو شديد الإيلام لآثار التعذيب الموجودة على جسد الشاب السكندري السيد بلال، الذي يقول أهله في بلاغ قدموه للنيابة العامة إنه لقي مصرعه خلال انتزاع ضابط بأمن الدولة الاعترافات منه حول دوره في تفجير كنيسة القديسين.

هل تسأل الآن أجهزة الدولة نفسها: ما الذي دفع أهل ذلك الشاب الذي وصفته الصحف بـ«السلفي» لتصوير ذلك الفيديو المؤلم قبل أن يقوموا بدفنه بسرعة بناء على أوامر أمنية؟ هذه ليست عادة المصريين، ليست طباعهم، فهم أناس يقدسون الموت ويمنحون الميت حصانة فائقة، بالتأكيد أيضًا لم يكن أهل الشاب السكندري «خالد سعيد» سعداء أبدًا بانتشار صورة جسده مشوهًا على الإنترنت، سواء كانت صورة لآثار الاعتداء الذي تلقاه، أو صورة لآثار التشريح كما قالت الداخلية. الإجابة أن أهل الشاب السلفي خشوا على ابنهم من المصير الذي لقيه خالد سعيد، أعني مصير أن يتم تشويه سيرة ابنهم لإنقاذ رجل شرطة من العقاب، كل الناس الآن يسألون: «طيب خالد سعيد وقالوا إنه ابتلع لفافة بانجو، هيقولوا إيه عن الراجل الملتحي ده، هل سيقولون إنه ابتلع لحيته ومات بسبب ذلك؟». يبدو السؤال جارحًا، لكنه للأسف صادق ومرير.

كلتا القضيتين الآن أمام القضاء العادل، ونحن نثق في أن الله عز وجل سيُظهر الحقيقة وسينعم على أهل الفقيدين براحة توقيع العقاب على الظَّلمة، لكن ذلك لا ينبغي أن يمنعنا من مناقشة تفاصيل خطيرة لا تتعلق بصلب ما يحقِّق فيه القضاء

في قضية السيد بلال، أتحدث عن تفصيلة نشرها موقع الدستور الأصلي تقول إن المرحوم السيد بلال ذهب إلى مقر مباحث أمن الدولة بالإسكندرية وهو يحمل بطانية وقال لصديق له قابله قبل دخول المقر إن ضابط أمن الدولة استدعاه وقال له إنه لا بد أن يأتي لكي يبيت في الحجز يومين حتى ينتهي القلق الذي تشهده الإسكندرية في ليلة عيد الميلاد، هذه التفصيلة بالتحديد هي أكثر ما آلمني في الموضوع كله، هناك يا ناس يا هوه مواطن مصري تنازل عن حقوقه القانونية والآدمية طوعًا لا كرهًا، هذا المواطن حتى لو قالوا إنه تم سجنه لمدة عامين في قضية ما لم يتم إعلان تفاصيلها، لم يفكر للحظة في أنه حتى عتاة المجرمين لديهم حقوق قانونية لا بد أن يطالبوا بها، ولذلك بمجرد أن استدعاه الضابط بالتليفون حمل بطانية وذهب إليه، دون أن يعترض أو يسأله عن إذن النيابة أو يطلب منه الحضور بصحبة محامي، لم يفعل شيئًا من ذلك كله؛ لأنه يعلم أن كل كلمة سينطقها سيكون لها ثمن باهظ، ولذلك ودع زوجته وابنه وأهله وحمل البطانية وذهب ليلاقي حتفه.

ببساطة لو كان هذا الشاب ابن أحد من المسئولين المتنفذين أو رجال الأعمال الواصلين أو علية القوم أو حاشية علية القوم، وكان معتنقًا لأفكار سلفية أو حتى جهادية، هل كان سيجرؤ الضابط على إحضاره إلى مقر المباحث بهذه الصورة، أم أنه كان سيبذل مجهودًا لكي يقوم باحتجازه بشكل قانوني بعد توفر إثباتات تدينه وتقف في وجه الضغوط العاتية التي ستسعى للإفراج عنه فيما بعد؟ ولماذا لا يتم بذل نفس المجهود عندما يتعلق الأمر بواحد من أبناء غير المسنودين؟ بالطبع لا أتصور أن الضابط الذي قام باستدعاء السيد بلال كان يتصور أن صحته ستتدهور في أثناء محاولة انتزاع الاعترافات منه، ربما لأنه قام بعمليات مماثلة قبل ذلك وكانت تمر دائمًا على خير، لكنه بالتأكيد كان يعرف أنه يتعامل مع مواطن لن يصرخ طلبًا لحقوقه، وكان يعرف أنه يتمتع بسلطات مطلقة بحكم حالة الطوارئ التي مكنته من اعتقال السيد بلال، ولكنها لم تمنع تفجير كنيسة الإسكندرية، باختصار، وعلى عكس ما يظن البعض، ليست المسألة أن السيد بلال سلفي ولذلك ليست له حقوق، بل المسألة أن السيد بلال مواطن غير مسنود ولذلك ليست له حقوق.

في نهاية المقال الذي كتبته عن محرقة بني سويف قبل سنوات كتبت فقرة هي للأسف الشديد صالحة لختام هذا المقال كأنها مكتوبة له خصيصًا: «السؤال الحقيقي ليس لماذا

حدث ما حدث؛ فكلنا سنتحدث كثيرًا عن الإهمال والشموع والمواد القابلة للاشتعال وستتوه الحقيقة في التفاصيل كالعادة، السؤال الحقيقي الذي لا يجب أن يتوه: هل يمكن أن يحدث ما حدث لأي من علية القوم أو الأثرياء أو المبسوطين أو المسنودين؟ بالطبع لا، لن يحدث ذلك؛ لأن لهؤلاء جميعًا دية وحياتهم تستحق ألف اهتمام ومليون احتياط ومليار إجراء سلامة. أن تكون مسنودًا في مصر أو لا تكون.. تلك هي المشكلة».

اللهم ارحم السيد بلال، وأظهر الحق من عندك قادر يا كريم.

١٠ يناير ٢٠١١

مجرد ملاحظات

ـ «العدالة البطيئة تورث الإحساس بالمرارة». جملة رائعة قالها الرئيس مبارك في خطابه الذي ألقاه في احتفال مصر قبل أيام بعيد القضاء المصري، توقفت عند الجملة طويلًا بإعجاب، لكنني بحثت كثيرًا في الخطاب حول ما إذا كان الرئيس يقرر تلك الجملة كحقيقة تصف الأوضاع في مصر، أم أنه يقولها كحقيقة مطلقة تنطبق على أي زمان ومكان، فوجدت ربطًا بينها وبين مناشدة الرئيس للقضاة بأنه «يتطلع للمزيد من جهودهم للتعجيل بالفصل في القضاء كي ينال كل ذي حق حقه ولكيلا يطول انتظار المتقاضين أو تطول معاناتهم». لا أريد أن أتسرع في ذلك الربط، لكنني كنت أتمنى أن أجد في خطاب الرئيس تحديدًا قاطعًا للسبب الحقيقي لبطء إجراءات التقاضي في مصر، هل من العدل أن نحمل الأمر للسلطة القضائية وحدها، أعلم أن الرئيس مبارك حريص على استقلال القضاء، ولكن ماذا عن بعض شيوخ القضاة الذين يعتقدون أن السلطة التنفيذية في مصر تعوق استقلال القضاء؟ ولهم في ذلك دراسات قانونية جادة تربط تلك الإعاقة التنفيذية بجميع المشكلات التي يعاني منها القضاء المصري وعلى رأسها بطء إجراءات التقاضي. هل يمكن أن نتعامل مع آرائهم بوصفها تدخلًا في السياسة أم أنها تدخل في صميم عملهم القضائي؟ ولماذا لم يتدخل الرئيس مبارك بحكم صلاحياته الدستورية الواسعة لحل مشكلة بطء إجراءات التقاضي طيلة العقود الثلاثة الماضية؟ سؤال أخير أتمنى أن يكون مشروعًا: طيب إذا كانت العدالة البطيئة تورث الإحساس بالمرارة، فماذا عن الإصلاح البطيء يا سيادة الرئيس؟

ـ أقول لبعض القراء الأعزاء الذين غضبوا مما كتبته عن عدم وجود مصداقية لشيخ الأزهر ومفتي الجمهورية ووزير الأوقاف بين جموع المواطنين، يا أعزائي أزعم أنني

أعرف فضل هؤلاء الرجال جيدًا؛ فكل منهم عالم جليل في ميدانه، ولكن هناك فرقًا بين ما يمكن أن نعرفه من مآثر ومناقب وأفكار جليلة لكل من شيخ الأزهر ومفتي الجمهورية ووزير الأوقاف، وبين أن يكون لتلك المآثر والمناقب والأفكار تأثير حقيقي على الملايين التي اختطفها التطرف.

في رأيي الشخصي الذي أعلم أنه يستفز البعض ويعتبرونه خارجًا على النص المطلوب ترديده الآن، لن يكون هناك تأثير للأزهر ودار الإفتاء بدون استقلالية كاملة لهما. سيصدق المصريون ما يقوله شيخ الأزهر والمفتي عن الوحدة الوطنية عندما يريان الاثنين وهما يرفضان مثلًا تزوير الانتخابات، وحوادث التعذيب ولو كانت فردية، وبيع الغاز لإسرائيل برُخص التراب، وما إلى ذلك من قضايا الساعة التي تشغل بال المواطن المصري وتنغص عليه حياته، تخيلوا كيف سيشعر الناس لو رأوا شيخ الأزهر وهو يزور أسرة مواطن لقي حتفه في أثناء احتجازه في جهة أمنية، أو لو رأوا فضيلة المفتي وهو يستنكر ما جرى في مهزلة الانتخابات الأخيرة ولو حتى كمواطن، على الأقل لكي يكونا قدوة للمواطن العادي الذي نطالبه أن يكون إيجابيًّا، ولا يخاف إلا من الذي خلقه، ويعلم أنه لا نافع ولا ضار بحق إلا الله. ببساطة لا بد أن يشعر المصريون بأن هؤلاء الشيوخ الأفاضل منحازون لقيم العدل والحرية التي يمثلها الدين الحنيف، وليس لمن عينهم في مناصبهم، عندها سيعود المصريون طواعية إلى حضن الأزهر العريق الذي تم تأميم دوره عمدًا وقسرًا من أجل مصالح سياسية ضيقة تدفع مصر ثمنها الآن. هذه هي المسألة بدون لف ولا دوران، لكن إدراكها يتطلب منا ألا نكون من الذين يعشقون سماع صدى أصواتهم ويظنون أنها أصوات مختلفة تؤيد ما يقولونه.

ـ أكثر من قارئ اتهموني بأنني لا أقول حلولًا عملية سريعة الإنجاز بقدر ما أتحدث عن حلول طويلة المدى تحتاج إلى حدوث معجزة لكي يتم تطبيقها، وبرغم أنني لا أؤمن بالمعجزات، وأرى أن كل ما أكتبه ممكن الحدوث لأنه حدث بالفعل في مصر وفي وقت قياسي، فضلًا عن حدوثه في أوطان كانت أكثر سوءًا منا وتغيرت بإرادة شعبها ولا زالت تواصل التغير والتطور برغم كل ما لديها من مشاكل وتحديات (تركيا والبرازيل والهند وجنوب إفريقيا على سبيل المثال لا الحصر)، إلا أنني لا أمانع في طرح حلول قصيرة المدى بناء على رغبة القراء، أقترح مثلًا لتأمين الكنائس في الفترة القادمة أن يتم تعليق صور الدكتور البرادعي على مداخلها، والإعلان مع كل صلاة أو قداس عن عقد حملة لجمع

التوقيعات لتأييد مطالب الجبهة الوطنية للتغيير؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تفتيش المترددين على الكنيسة ذاتيًّا. مثلًا فيما يخص مشروع بيت العائلة المصرية الذي دعا إليه شيخ الأزهر وذكرني بالرئيس أنور السادات الله يرحمه، أقترح أن يتم إسناد منصب رئيس بيت العائلة للكابتن حسن شحاتة؛ لأنه الشخص الوحيد الذي اتفق عليه المصريون، وخرجوا للتظاهر من أجله مسلمين ومسيحيين، يكفي أن تتذكر أننا عندما مات ألف مواطن منا خرجنا جميعًا للتظاهر بقيادة كبير العائلة المصرية وأبنائه ليس حزنًا على رحيل إخوتنا بفعل الفساد والإهمال، بل فرحًا بما حققه حسن شحاتة وأبناؤه من انتصار أنسانا حتى قداسة النفس البشرية.

اقتراح آخر جاءني من وحي كل ما استمعت إليه من بيانات وتصريحات لكبار المسئولين وصغارهم ووسطانيهم، حيث لفت انتباهي أنهم جميعًا يطالبون الشعب المصري بأن يقف صفًّا واحدًا خلف سيادة الرئيس، وقد فات على سيادات هؤلاء أننا جربنا حكاية الوقوف صفًّا واحدًا طيلة الثلاثين عامًا الماضية وما سبقها ولم تُجدِ نفعًا، طيب لماذا لا نجرب هذه المرة أن نقف كذا صف، لا أجرؤ على اقتراح أن نقف أمام سيادة الرئيس أو إلى جواره، ولكن لنبدأ من باب التغيير بالتخلي عن حكاية الصف الواحد، لعل وعسى أن يتغير شيء في أحوالنا. أعترف أنني بعد تفكير طويل في هذه المسألة توصلت إلى أنه ربما كانت المشكلة في أن نفس البيانات والتصريحات تطالبنا بالالتفاف خلف سيادة الرئيس، وهو ما يتسبب في حيرة الناس حول ما ينبغي عليهم فعله، هل يلتفون أم يقفون صفًّا، إلا إذا كان المقصود أن نلتف ونحن واقفين في الصف، برجاء التوضيح في البيانات القادمة لكي يعرف الشعب في أي اتجاه عليه أن يلتف.

أنا آسف، مضطر لتذكيركم أنني أتكلم جادًّا، وحياة ربنا.

١٢ يناير ٢٠١١

إنهم يكتبونني

هذه المقتطفات مهداة إلى الأحرار الذين ينتفضون من أجل الخبز والحرية في تونس والجزائر، وإلى كل الذين اختاروا العبودية في ظل تدين شكلي بديلًا عن الحرية في ظل تدين حقيقي، وإلى الذين لا زالوا يسألون ماذا حدث للمصريين وكيف تغيرت أخلاقهم وأين ذهبت وحدتهم الوطنية. مع خالص التحية للعالم الجليل الدكتور حامد أبو أحمد الذي اختار أن يجعل هذه المقتطفات وغيرها كمقدمات دالة لفصول سيرته الذاتية الجميلة «الشهاب» التي اختار أن تكون شهادة جريئة على ما جرى لمصر في الثلاثين عاما الماضية:

«وربما كانت أمم الغرب غير محكومة بما أنزل الله، فهي على كلٍّ محكومة بما أرادت، أما الشرق الإسلامي من عصور خلت، فالأمر فيه على النقيض، فلا هو يُحكم بما أنزل الله ولا يُحكم بما أراد لنفسه، وإنما تستبد بشئونه عصابات من المرتزقة احترفت أكل الناس كما يحترف الفلاحون حراثة الأرض ورعاية السائمة».

ـ الشيخ محمد الغزالي في كتابه
العظيم «الإسلام والاستبداد السياسي»

«إن الأمة التي ضُرِبت عليها الذلة والمسكنة وتوالت على ذلك القرون والبطون تصير كالبهائم أو دون البهائم، لا تسأل قط عن الحرية ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة ولا للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسن أو أساء على حد سواء، وقد تنقم على المستبد نادرًا، ولكن طلبًا للانتقام من شخصه، لا طلبًا للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئًا، إنما تستبدل مرضًا بمرض كمغص بصداع».

ـ الشيخ الثائر عبد الرحمن الكواكبي في كتابه
الخالد «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»

«لم يفهم الحكام من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم، وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم، وابتزاز الأموال لإنفاقها في إرضاء شهواتهم، لا يرعون في ذلك عدلًا، ولا يستشيرون كتابًا، ولا يتبعون سُنَّة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم، وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب».

ـ الإمام المصلح محمد عبده في كتابه
العظيم «الإسلام بين العلم والمدنية»

«يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطًا على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إن طَعِم تلذَّذ، وإن تلهَّى تَرَوَّح وتَرَيَّض، أما أسير الاستبداد فيعيش خاملًا خامدًا، ضائع القصد، حائرًا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته، ويَدرُج أيامه وأعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب».

ـ مقطع آخر للشيخ الكواكبي من «طبائع الاستبداد»

«وا أسفاه، لم يبقَ للمسلمين من هذا الدين إلا الثقة فيه، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه، وتَغيَّر في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته، وحَقّ فيه قول علي كرم الله وجهه: إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يُلبَس الفرو مقلوبًا».

ـ مقطع آخر للإمام محمد عبده من «الإسلام بين العلم والمدنية»

«لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المختصة بما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهّى بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علمًا غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خَمِر، على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حُرمةً بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد».

ـ مقطع آخر للكواكبي العظيم

«وبما أن الخوف هو مبدأ الحكومة المستبدة فإن السكون هو هدفها، وليس هذا سِلمًا

أبدًا، بل إنه صمت المدن التي يوشك العدو أن يستولي عليها.. وللدين في هذه الدول من التأثير ما ليس في سواها، فهو فزع مضاف إلى فزع».

ـ مونتسكيو من كتابه «روح القوانين»

«إن مرضانا يموتون بعاهاتهم تحت أنظار العامة والخاصة، ولا يجدون فؤادًا يَرِقُّ، ولا يدًا تُعطي، إن تقطع الأواصر في مجتمعاتنا يعود إلى ما يسكن قلوب الحاكمين من تأله وغطرسة، وإلى حسبان الوظيفة مظهر وجاهة لا وسيلة خدمة عامة، وسر هذا الفساد أن الدين عنوان لا موضوع له في بلاد لا تقوم على الأخوة، بل على سيادة قلة وذلة أتباع، وعلى تنافس بين السادة لاستدامة هذا الوضع بحوك الدسائس وسفك الدماء».

ـ مقطع آخر للغزالي العظيم

«عَلِّم في المتبلِّم يصبح ناسي».

ـ مثل شعبي بألف مما تعدون

١٥ يناير ٢٠١١

اللّه حي.. التاني جاي!

هل شاهدت الرئيس التونسي «المفلسع» زين العابدين وهو يطلع على شعبه في شاشة التلفزيون متهدج النبرات حنون النظرات مرتبك الحركات وقائلًا لشعبه: «خلاص فهمتكم.. لا رئاسة مدى الحياة.. رسالتكم وصلت.. كانوا يقولون لي معلومات غلط.. الكرتوش الحي ما منوش فايدة.. سأطلق الحريات السياسية وألغي الرقابة على وسائل الإعلام.. نريد حالة وفاق وطني شامل قبل ٢٠١٤»؟ هل بدا لك أنه نفس الرجل الذي طلع على ذات الشاشات قبلها بيومين ساخط النظرات ثابت الحركات حاد النبرات وهو يصف الذين انتفضوا في مظاهرات الخبز والحرية بأنهم «عصابات مُخربة»، ويتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور؟

ما بين المشهدين وبين مشهد ركوبه الحلزونة الرئاسية هائمًا على وجهه في سموات لم يخشَ من ربها، فارق يكمن في كلمتين لا ثالث لهما: «إرادة الشعوب»؛ وهو فارق يكشف لكل من لا زالت على بصيرته غشاوة أن الحكام العرب لم ولن يعطوا شيئًا لشعوبهم طواعية ولوجه الله، بل لا بد أن يشعروا أولًا بالخطر على عروشهم، عندما يحدث ذلك ستتغير فجأة نظرتهم للواقع، ولن يعتبروا أن كل احتجاج وراءه أياد خفية أو أصابع خارجية، وإنما وراءه شعوب طفح كيلها وفاض بها وأصبح ضهرها للحائط ولم يعد لديها ما تخسره.

عندما يتحرك الناس بعد أن يدركوا أن «عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة» على حد تعبير سيدنا نجيب محفوظ، عندما يكتشف الحاكم العربي أن كل شيء يمكن أن يضيع، حتى الثروات المتستفة في الخارج لن يكون لها نفس الطعم في الغربة، عندها

سيدرك أن قيمته تنحصر فقط في تربعه على كرسي الحكم، فما قيمة الحياة دون نفاق يحيط به من كل اتجاه، دون تصفيق هادر، دون شعب يرصونه لكي يهتف باسمه، دون هامات المثقفين والسياسيين المنحنية على الدوام. لو شعر الحاكم العربي أن كل هذا يمكن أن يختفي، سيصير فجأة لينًا طيعًا هينًا تصله الرسائل ويفهم الشعب، عندها فقط سيضحي بأقرب الناس إليه، بوزير داخليته الذي يفعل بأبناء شعبه ما لم يفعله المحتلون الغزاة بنفس موات القلب. سيعترف أن بلاده يمكن أن تعيش من غير حكمته الخالدة في مستقبل لا تظلله سحنته. ستجد مفاهيم الوفاق والحوار سبيلًا إلى لسانه. سيعترف أن هناك أخطاء وقعت في ظل حكمه، ولن يتحدث عن الفساد بوصفه أمرًا عاديًا يقع في كل بلاد العالم. سيعترف بأن الاستقرار الذي كان يتغنى به كان مواتًا، وأن الإنجازات التي كان يطنطن بها لم تكن للفقراء والعامة، وأن الأكاذيب لا يمكن أن تصنع استقرارًا إلى الأبد، عندها فقط سيسأل بلهفة بين خطاب تاريخي وآخر: «هل جهزتم الطائرة.. هل ملأتموها بالجازولين؟».

هي يا صاحبي معادلة قديمة وضعها، ويا سبحان الله، شاعر تونسي قال بيتًا من الشعر ظل العرب يرددونه عشرات السنين دون أن يتصوروا أن تطبيقه على أرض الواقع لن يكون إلا في نفس البلد الذي أنجب قائله:

إذا الشَّعبُ يومًا أراد الحياة   فلا بدَّ أن يسْتجيب القَدَر

قالها أبو القاسم الشابي منذ سنين بعيدة، ولعله الآن يرقد في قبره سعيدًا هانئًا وهو يسمع بيته الشعري هادرًا على ألسنة الملايين من أبناء تونس الذين سئموا الكذب والفساد والظلم، وقرروا أن يكونوا مثالًا مشرقًا لشعوب هائمة نائمة تأكل بعضها البعض، تاركة الفاسدين والظلمة يرتعون في خيراتها المنهوبة، بينما هي تظن أن التغيير يمكن أن يهبط عليها من السماء، وأن الله يمكن أن يغير سننه في الكون خصيصًا من أجلها.

أيًّا كانت نتيجة انتفاضة التوانسة الأحرار التي دفعوا ثمنها غاليًا، والتي هم وحدهم قادرون على ألا يقطف لصوص آخرون ثمارها، فقد بعثت تلك الانتفاضة المجيدة الروح في كلمات قليلة ظللنا لسنين نتعامل معها على أنها مجرد شطحة شعرية قالها شاعر

شاب قبل أن ينقصف عمره، فاتضح أن تلك الكلمات هي المبدأ والمنتهى، وأنها عندما تمتزج بدماء الشهداء الزكية يمكن أن تكون قوة عاتية ترعش العروش، وترقق أصوات المستبدين، وتكسبهم تواضعًا لم يكن يخطر لأحد في الأحلام، وتسقط الطغاة بأيدي شعوبهم لا بأيدي الغزاة.

إذا الشعب يومًا أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر.. وفي الأحرف الثلاثة التي تتكون منها كلمة إذا تكمن مأساتنا.

١٦ يناير ٢٠١١

الزعيم يُحَدِّث نفسه

لا، لا، أنا شعبي لا يثور.

شعبي يحبني. شعبي يعرفني جيدًا، يعرف قدري، يعرف أفضالي عليه، يعرف كفاحي من أجله، يعرف كيف ضحيت بكل شيء من أجله، يعرف أنني لم أكن قطّ كزين العابدين بن علي ولن أكون.

لكن الشعوب ذاكرتها ضعيفة، وتنسى، وتحب شهوة السلطة، خصوصًا إذا حُرِمت منها مدى الحياة!

لا أنا شعبي طيب، شعبي ليس هكذا.

طيب، لنفرض أن قوى شريرة تسلطت عليه، وعبثت أصابعها بعقله، وصورت له أن مشاكله يمكن أن يحلها خروج جماعي إلى الشوارع لكي يستمتع بنهب قصورك والتطاول على أسرتك وتصفية حساباته مع الذين ظلموه من رجالك، ومع الذين تقول المعارضة إنهم نهبوا خيرات البلاد من رجال عهدك، المشهد بصراحة مغري، أنا لو كنت شابًّا طائشًا عاطلًا عن العمل، أو موظفًا مطحونًا يعاني من نكد زوجته لتمنيت أن أخرج إلى الشوارع لأفعل أفعالًا شريرة كهذه.

لا، لا، قلت لك شعبي ليس هكذا.

لكن الإنسان يتغير، ألم يكن الرئيس التونسي يقول هكذا عن شعبه قبل أن يفاجأ بغدر هذا الشعب به؟

صحيح أن شعبي طيب، لكنني من باب الاحتياط عملت حساب غدره المفاجئ من زمان، أنا شعبي طيب، لكنه ممسوك جيدًا.

والشعب التونسي كان ممسوكًا جيدًا بعشرات الأجهزة الأمنية، ومع ذلك لم ينفع ذلك زين العابدين ببصلة.

لا، أنا شعبي ممسوك من أكثر من جهة، أقلها تأثيرًا وخطرًا الأجهزة الأمنية، أولًا شعبي ليس طماعًا.

تقصد ليس طموحًا.

لا، أقصد أنه ليس طماعًا، يرضى بالحد الأدنى في كل شيء.

لكنه الآن لا يجد الحد الأدنى.

من قال لك ذلك، لو كان ذلك حقيقيًّا لثار من زمان، سأحرص دائمًا على أن أوفر له الحد الأدنى. ثم لا تنسَ أنه شعب عاقل يعرف جيدًا أن أي خروج إلى الشارع سيكون على حساب أمنه، وأن ذلك الخروج سيطلق يد الزعران والصعاليك والأوباش لتعبث بكل شيء.

ومن قال إن يد الزعران والصعاليك لا تعبث الآن بأشياء كثيرة؟

لا، الأمر يختلف، أنت تتحدث عن حوادث فردية متفرقة، وليس عن خوف جماعي إنساني من الانفلات، سيدفع الناس إلى التكاتف والالتفاف حولي، سيجعلهم يخافون على أسرهم وأموالهم.

نعم، لكن الأوضاع لو ظلت هكذا في التدهور سيخرج المحرمون لكي ينهبوا، وستحدث نفس النتيجة.

لم تكن المشكلة قطّ في هبة الجائعين، هؤلاء دائمًا لديهم ما يشغلهم، طالما ظلت هناك وسائل تمكنهم من التحايل على الحياة سيستمرون في التحايل على الحياة.

تقصد المخدرات والرشوة والاقتصاد الأسود والأعمال غير المشروعة؟!

أليست هذه سبل التحايل على الحياة لهذه الطبقة في كل أنحاء العالم بما فيها العالم المتقدم. هذه الطبقة لا خوف منها والتعامل معها سهل ومضمون.

وماذا عن أغلبية الناس؟ لماذا أنت مطمئن إلى أنهم لن يثوروا؟

لأنني أعرفهم جيدًا، أعرف أن شعبي مؤمن بالنصيب والقدر، ويعرف دينه جيدًا، ويؤمن بحرمة الاعتراض على حكمة الله وفضل الاستسلام ليد الأقدار.

لكن هذا ليس دينًا، هذه أفكار مشوشة غذاها تعليم خَرِب، ولو كان هناك تعليم حقيقي، وثقافة لا تذهب إلى النخبة فقط، ومثقفون يتحركون وسط الناس، لما بقيت هذه الأفكار لحظة، ربما كان هذا ما نفع التوانسة. بصراحة دعني أنحني إعجابًا لك ولسابقيك، يبدو أنكم عملتم حساب هذا اليوم من زمان، جعلتم أحلام الناس تذهب بعيدًا إلى حيث الحور العين والجنات التي تجري من تحتها الأنهار التي سيجزي الله بها الصابرين المحتسبين الذين يطيعون الله والرسول. وإذا كانوا قد سئموا من مفارقتكم في الدنيا فعليهم أن يكتفوا بأن يحلموا بمفارقتكم في الجنة.

هل ستكفر الآن؟ أعوذ بالله منك، من قال لك إنني لن أدخل جنة الله في الآخرة، ألا تعرف أن من نطق بالشهادتين دخل الجنة، ألا تظن أنني أستحق الجنة؟

اهدأ قليلًا، فإدخال الناس إلى الجنة ليس مسئوليتي.

ألا تظن أن الله عز وجل لن يُقدر ما فعلته من أجل هذه البلاد من خير؟ ألم أحمها وأحافظ عليها وأصون ترابها من الاحتلال الأجنبي؟ ألم أنشر فعل الخير في كل مكان؟ هلا رجعت إلى الأرشيف لترى كم مرة تدخلت من أجل حالة إنسانية قرأت عنها في الصحف أو شاهدتها في وسائل الإعلام!

لكن ماذا عن الحالات الإنسانية التي لم تكن سعيدة الحظ لكي تقع عيناك عليها في الصحف ووسائل الإعلام؟ ماذا عن الناس الذين أدمنوا المساعدة والتسول وفقدوا العزيمة وإرادة الحياة؟

هذه إرادة الله يا سيدي، هل يمكن أن نعترض عليها، هل يمكن أن تنكر أنني أشقيت نهاري وأسهرت ليلي من أجل هذا الشعب؟ من قال لك إن حكمه كان نزهة ممتعة؟ من قال لك إنني أستمتع بحياتي كما تظن أنت وجميع الحمقى الذين لو عاشوا يومًا واحدًا في هذا المنصب لما تحملوه؟ ليس ذنبي أنني رُزِقت بأناس غير أكفاء.

لكنك أنت الذي اخترتهم! هل تنكر أن كل الوجوه المكروهة التي تحيط بك ويلعنها الناس صباحًا مساء كانت من اختيارك وحدك أم أنك صدقت ما يقوله البعض أنك لا تعلم شيئًا عما يفعلونه بالناس؟

أنت تعلم أنه لا يجرؤ أحد على أن يفرض عليَّ شيئًا لا أحبه، لكن قبل أن تتمطع

في حديثك قل لي: هل كان هناك أناس شجعان أكفاء صادقون حولي وقلت لهم لا، لا أريدكم؟ ما ذنبي إذا كنت أتوسم في المسئول الخير وأعطيه ثقتي وجميع الصلاحيات اللازمة ليفعل ما يشاء من أجل صالح البلاد، ثم بعد سنين أكتشف أنه كان لصًّا عتيدًا أو أنه كان خائبًا لا يفقه من أمره شيئًا؟!

لكن هذا لا يعفيك من المسئولية أمام الشعب!

الشعب؟ لا تتحدث عن شعبي فأنا أعرفه جيدًا، أنت لا تعرف كم يحبني هذا الشعب، هل شاهدت كيف يستقبلني في كل زيارة جماهيرية أذهب إليها؟ هل استمعت إليه كيف يهتف باسمي؟ كيف يرفع صوري؟ كيف يحلف بأنه سيفتديني بروحه ودمه؟

من قال لك إن هذا هو الشعب، معقولة لا تعلم أن هؤلاء إما أناس مستأجرون وإما خائفون وإما كذابو زفة، ألم تر كيف كان هناك آلاف التوانسة يهللون ويصفقون لزين العابدين ويحلفون بأنهم سيفتدونه بالروح والدم؟ أين ذهب هؤلاء عندما هرب؟ لماذا لم نر أحدًا منهم، بل رأينا الغاضبين والساخطين والكارهين لعيشتهم؟

قلت لك، أنا شعبي ليس هكذا، شعبي أصيل، يقدر النعمة، يعرف أنني مختلف، وأن المسيرة لا زالت طويلة لكي نحقق فيها الكثير.

من قال لك إن الناس ستتحمل أن تطول المسيرة أكثر؟ ألا ترى أن الوقت قد حان لكي توقف المسيرة عند هذا الحد؟ ألا تفكر في خروج طوعي تصنع به صفحة مشرقة في تاريخك؟

لا تتجاوز حدودك، ولا تتحدث باسم أحد، إذا كان لديك أرقام فحدثني بها وإلا فاصمت، هل تعرف كم عدد الذين أعطوني أصواتهم في الانتخابات الماضية؟ هل تعرف كم جهاز ميكروويف تم شراؤه في البلاد خلال العام الماضي؟ هل قرأت تقارير البنك الدولي؟ هل دخلت إلى أي مول وشاهدت كيف ينفق الناس بلا حساب؟

أنت طلبت مني أن يكون حوارك معي صريحًا. لا تنفعل، فأنا نفسك الأقرب إليك من كل ما حولك من حاشية ومستشارين وأقارب ومحبين. تذكر أن كل ما تتحدث عنه من أرقام كانت تأتي إلى زين العابدين قبل خلعه، وسواء إذا كان قد صدقها فعلًا أم أنه كان يعرف أنها أرقام كاذبة، فحاصل الأمر أن تلك الأرقام لم تنفعه قطّ، ولم تمنع ثورة الناس الذين لن تطعمهم الإحصائيات ولن تكون الأرقام بديلًا لهم عن حريتهم وخبزهم.

معقولة، أنا لا أصدق أن كلام القلة المعارضة المنحرفة التي تحركها أصابع خارجية قد تسلل إلى منطقك؟

عن أي قلة منحرفة؟ أنت تعلم أنه لا يمكن أن يكون الواقع مزدهرًا ويتعامى الناس عنه ليعلنوا رفضهم وسخطهم.

لا يا فالح، هذه سنة الشعوب، الشعوب لا يعجبها شيء، لا ترضى أبدًا.

لكنك قلت إن شعبك طيب.

طبعًا، ولو درت في هذه الدنيا كلها لن تجد مثله، حتى الأحزاب المعارضة في بلادي لن تجد في أي بلد آخر مثالًا لوطنيتها وحرصها على صالح البلاد؟

لكن يا عزيزي هذه ليست معارضة، هؤلاء رجالنا، صنعناهم على أعيننا، ونعرف كيف نحميهم من أنفسهم ومن سيطرة المنفلتين عليهم.

وما العيب في ذلك، هل المفروض أن نقامر بمستقبل البلاد ونترك مؤسسات خطيرة كالأحزاب في يد كل مغامر أهوج يحلم بالسلطة؟

أليس المفروض أن يحلم كل مواطن بالسلطة، أليس هذا هو جوهر الديمقراطية؟

دع هذا الكلام للبلاد المتقدمة وليس لنا.

هل نحن بلد متخلف؟

لا، أنا لم أقل هذا، نحن بلد لا زال أمامه الكثير.

ومن المسئول عن ذلك؟

هل تريد أن تحملني مسئولية آلاف السنين من التخلف؟

كان يمكن أن يكون حكمك البداية للخلاص من هذا التخلف، لكنك كرست المزيد من التخلف.

لماذا؟ ألم أطلق الحريات؟ هل سيصل بك الجحود إلى إنكار ذلك؟

لا يمكن أن أنكر، ولكن عن أي حريات تتحدث؟ هل أطلقت حرية تشكيل الأحزاب؟ هل أطلقت حرية الترشيح للانتخابات؟ هل قمت بتحقيق ضمانات للانتخابات النزيهة؟

هل أطلقت حرية التظاهر السلمي؟ هل أطلقت حرية العمل النقابي؟ هل أطلقت حرية إصدار الصحف دون تراخيص أمنية؟ هل أطلقت حرية العمل السياسي للشباب؟ هل تقبل بحرية تداول السلطة؟

آه، لكي يأتي المتطرفون إلى الحكم!

المتطرفون في كل مكان يا عزيزي، دعنا نقل إن وصولهم إلى الحكم بات أقل مخاوفنا، أنت منعتهم من العمل السياسي، فنزلوا تحت الأرض، وتغلغلوا في العقول والقلوب، وزرعوا الفتنة والتخلف والسلبية والجمود، وجعلوا الناس تنكفئ على ذاتها وتهرب من التفكير في واقعها لكي تفكر في آخرتها وتنسى أن الله خلقها لعمارة الأرض وإصلاحها، لماذا تضحك؟ طبعًا أنت تعرف أن ذلك بالضبط ما كنت تريده لكي تبقى كما تشاء وتفعل ما تشاء.

أنا لم أقل ذلك، لا تُقوّلني ما لم أقله، أنا كنت أضحك لأنك تتصور أن ما تتحدث عنه من حرية يمكن أن يجعل الناس أرقى فكرًا وأرفع عقلًا، هل تظن أنك لو أعطيت الناس انتخابات نزيهة حرة كما تقول ستفاجأ بنضوجهم الفكري؟ صدقني لو أعطيت هذا الشعب انتخابات حرة ستفزعك رداءة الذين سيختارهم، وستترحم على أيام الانتخابات المقننة التي كنت أقوم بها، لكن الأوان سيكون قد فات وقتها.

ربما، ولكنك لو ضمنت أن يكون هناك تداول للسلطة وانتخابات نزيهة حرة لا تعبث بها أيادي المصالح، سيكون أمام القادمين إلى الحكم خياران لا ثالث لهما: الأول أن يصلحوا أحوال الناس حتى لو سرقوا قدرًا لا بأس به من ثروات الشعب، والثاني أن يفشلوا في ذلك ويرحلوا لكي يأتي غيرهم، هو حل متعب لكن البشرية لم تخترع ما هو أفضل منه.

دعك من هذه الأوهام، عن أي شعب تتحدث، الديمقراطية الغربية لا تصلح لكل الشعوب، هل نسيت ما حدث في العراق؟

هل نسيت أنت لماذا حدث كل ما حدث في العراق؟ ألم يكن ذلك نتيجة طبيعية لحاكم سحق إرادة الناس لعشرات السنين وحكم البلاد بالحديد والنار، وجعل الناس تهرب من المواطنة لتتقوقع في أديانها وطوائفها وعشائرها، فلما رحلت دولته التي كانت تخفي تهرؤها بالقوة البوليسية، ظهر كل شخص ليدافع عن طائفته ودينه وعشيرته؟ لماذا

نمسك في النتيجة ونغفل السبب؟ لماذا لا نتعلم من درس العراق بدلًا من أن نتخذه دائمًا حجة لمزيد من القمع والكبت؟ لماذا لا ندرك أن الحل هو المواطنة لكي يشعر كل مواطن بالانتماء إلى تراب هذا البلد؟ لماذا لا نربط مصالح الناس بأوطانهم؟ أليس ذلك أفضل لهم ولنا؟ أليس ذلك أفضل حتى لحلفائنا من رجال الأعمال؟

احترم نفسك، أنا ليس لي حلفاء من رجال الأعمال.

سمِّهم ما شئت، أصدقاء، منتفعين، مستثمرين، أليس من مصلحة هؤلاء أن يعيشوا في بلاد يحبها أهلها، بدلًا من أن يعيشوا في بلاد يحقد أهلها عليهم ويتمنون زوال نعمتهم ويتسائلون عن مصادر ثرواتهم؟

هل أنت ساذج؟ هل تعتقد أن أحدًا يمكن أن يزيل الحقد من البشر؟ لماذا خلقه الله إذن في النفوس؟

أنا لم أقل إن أحدًا يمكن أن يزيل الحقد، لكن يمكن أن يسيطر عليه بالقانون، بالعدالة، بالضرائب التصاعدية، بأن يشعر المواطن الفقير بالمساواة والعدالة، بأن يشعر أن الغني يعطي هذه البلاد كما يأخذ منها دون أن يكون له وضع استثنائي.

أنت تتحدث عن جمهورية فاضلة؟

لا أنا أتحدث عن جمهورية ممكنة، عن دول حولنا تتغير وتتطور، عن تركيا والبرازيل والهند وماليزيا وسنغافورة وكوريا الجنوبية.

من قال لك إن هذه الدول لن تصحو من هذه النشوة على نكبات اقتصادية كما حدث لغيرها؟

ومن قال لك إنها لن تنصلح أحوالها فعلًا؟

دعنا ننتظر ونرى.

دعنا نغير ونرى.

أنت مغامر، تريد أن تقامر بمستقبل الشعب وترمي به إلى الهلاك.

وأنت لا تدرك أن الجمود سيوصلنا إلى الهلاك فعلًا، إن لم يكن قد أوصلنا إليه فعلًا.

لو كنت مسئولًا عن هذا البلد مثلي لأدركت أن الإصلاح التدريجي هو الحل.

لو كنت مسئولًا عن هذا البلد مثلك لأدركت أن الإصلاح الفوري هو الحل؛ لأن الأمور لا تحتمل المزيد من التعثر والارتباك والبطء. لو كنت طبيبًا ورأيت ورمًا سرطانيًّا يهدد بالاستفحال في الجسد، هل ستعالجه بالتدريج أم تتدخل لبتره قبل أن تسوء الأمور؟

وافرض أن قراري كان خاطئًا وتسبب في تشويه شكل الجسم.

أن يعيش الإنسان صحيحًا بجسد مشوه على يد طبيب حاسم، أفضل من أن يموت لأنه ذهب إلى طبيب فاشل.

أعوذ بالله من تشبيهاتك المقبضة، ثم تعالَ هنا، هل تقول إنني طبيب فاشل؟

أقول إنك لست حاسمًا. ما يحيرني أنني أعتقد أحيانًا أنك تعرف كل شيء، المشكلة والحل، على الأقل حولك أناس يعرفون كل شيء، لكنَّ هناك شيئًا غامضًا يمنعك من التغيير.

ألمح في كلامك اتهامًا خطيرًا!

لا تسمه اتهامًا، سمه حيرة، سمه وجع قلب، سمه خوفًا على هذه البلاد.

لا تخف، البلد ممسوكة جيدًا.

والشعب يحبك ويعرف قدرك وفضلك وأنك مختلف وتشقى من أجله!

أرأيت، ألم أقل لك، حتى أنت تعرف ذلك، لكنك ظللت تكابر، ثم اعترفت أخيرًا، لماذا لم تقل ذلك من الأول لكي توفر عليَّ عناء هذا الجدل العقيم وتتركني أكمل المسيرة؟!

تقصد تكمل على المسيرة.

ماذا تقول؟

لا شيء، أدعو لك بطولة العمر.

الله، فتح الله عليك، هذه الدعوة التي أحتاجها الآن أنا وشعبي. آمين.

نُشرت بتاريخ ١٧ يناير ٢٠١١، بعد أن أصرت إدارة
تحرير الصحيفة على نشرها مسبوقة بعنوان شارح يقول
إن هذا الحوار من وحي خيال الكاتب. وتم نشرها
مصحوبة برسمة لتأكيد طابعها الخيالي

تداعيات تونسية

كان ذلك في يوم من أيام صيف عام ٢٠٠٦ إذا لم أَخُن الذاكرة.

كنت أتسكع دون هدف في الشوارع المحيطة بميدان تقسيم أشهر ميادين مدينة إستانبول التركية. كان ذلك في الواحدة ظهرًا، وبرغم أن الحرارة كانت شديدة للغاية إلا أنه كان هناك مظاهرة شبه حاشدة في الميدان، لا أدري لماذا توقعت أن المظاهرة كانت من أجل نصرة القدس، ربما لأن إستانبول كانت تحتضن يومها مؤتمرًا عالميًّا لنصرة القدس يعقد في قاعة مؤتمرات تقع على بعد خطوات من الميدان. كان شكل المظاهرة ملفتًا للغاية؛ كل المشاركين كانوا يرتدون اللون الأسود، وكانت هتافاتهم شديدة الغضب والحدة لدرجة استوقفت كل المارة للفرجة. كان من بين الصور الذهنية التي لا تزال تسكن عقلي عن تركيا وقتها، والتي أخذت تتبدد عامًا بعد عام أن من يناصر القضية الفلسطينية هناك هم المنتمون إلى الحركات الإسلامية المختلفة فقط، ولذلك لفت انتباهي أن المظاهرة لم تكن تضم محجبة واحدة، قلت لنفسي: ها هم أتراك من تيارات سياسية أخرى مهتمون بشأن القدس. أخذت أبحث في اللافتات الكثيرة المرفوعة عن صورة للمسجد الأقصى فلم أجد، طيب صورة ياسر عرفات مثلًا أو حتى محمود عباس أو نايف حواتمة مثلًا، لم أجد. قلت لنفسي: ولماذا أضيع الوقت في التحقق من هوية المظاهرة، الأعمال بالنيات، وطالما أنني لم أكن مدعوًّا لحضور المؤتمر فلماذا لا أتضامن مع القدس وأنضم إلى هذه المظاهرة الحاشدة.

قبل أن أنضم إلى المظاهرة رأيته قادمًا نحو الميدان، كان يسير متعبًا للغاية، ربما السن وربما الحرارة الشديدة، تلكأت قليلًا حتى أتحقق من ملامحه التي عرفتها منذ رأيت وجهه الذي ألفت مشاهدته في فضائية الجزيرة، نعم إنه المفكر الإسلامي راشد

الغنوشي زعيم حزب النهضة الإسلامي التونسي المحظور، هكذا يعرفونه دائمًا في البرامج التي يشارك فيها، لكنني كنت أعرفه من قبل ذلك، منذ أن كان حزبه حركة اسمها حركة الاتجاه الإسلامي في تونس، أذكر أنني قرأت له عام ١٩٩٠ دراسة صغيرة ومهمة حول موقف الإسلام من الفنون، كانت جزءًا من ثلاث دراسات صدرت في كتاب واحد حول موقف الإسلام من المرأة والفنون والديمقراطية، بالنسبة لشاب صغير يحمل وقتها قدرًا مهولًا من الأفكار المتشددة والمتخلفة، كانت الدراسة مزلزلة من الناحية الفكرية لما بها من تسامح وعقلانية، وبرغم أنها ربما جلبت له إعجابي وربما إعجاب الآلاف من الشباب (في ذلك الوقت الذي لم تكن قد انتشرت فيه بشكل جماهيري حركات التجديد الفكري الإسلامي، صحيح أنها لم تنتشر جماهيريًّا حتى الآن لكن الوضع كان أسوأ بكثير وقتها)، إلا أنها جلبت له سخط الكثير من الإسلاميين. أذكر كيف قرأت تصريحات غاضبة في إحدى المجلات الإسلامية التي تصدر في الخليج (أظنها مجلة المجتمع الكويتية وعليه العوض في ذاكرتي) يقول فيها عدد من قيادات الإخوان من جنسيات مختلفة إن جماعة الإخوان المسلمين ليست مسئولة عن الاجتهادات التي يطلقها كل من القيادي التونسي راشد الغنوشي والقيادي السوداني حسن الترابي. نعم، تخيل، وقتها كان حسن الترابي محسوبًا على تيار التجديد والاجتهاد، وكانت له اجتهادات فكرية وفقهية في غاية الروعة جلبت له السخط والتكفير، كان ذلك قبل أن يقامر بكل ذلك ويتبنى مشروعًا استبداديًّا انقلابيًّا انقلب عليه بعد ذلك وأدخله السجن، ليبدأ الترابي رحلة من التخبط الذي لن تشعر بمرارته إلا إذا كنت قد قرأت للرجل اجتهاداته العظيمة التي أصدرها في الثمانينيات فيما يخص الفنون والمرأة والديمقراطية والأقليات، وكلها اجتهادات لا أعرف بالأمانة ما إذا كان قد انقلب عليها هي الأخرى أم لا، ربما أحتاج إلى أن أستفتي صديقنا الباحث المدقق حسام تمام أو أعود إلى كتبه التي لديَّ عندما أرجع إلى مصر.

كل هذا قلته لذاكرتي وأنا واقف أتأمل راشد الغنوشي وهو قادم إلى عمق الميدان حيث تمر المظاهرة، استجمعت من طشاش الذاكرة معلومات كنت أقرأها في الصحف العربية المختلفة التي كانت تصدر في المهجر، وكانت ترد إلى أرشيف الصحيفة التي كنت أعمل بها في إجازة الصيف وأنا طالب، كانت هناك صحف تصفه بأنه زعيم مؤامرة انقلابية تم إحباطها، وصحف تصفه بأنه مناضل ومجدد فكري يتعرض لمؤامرة

لتشويه سمعته في وطنه، وصحف تتحدث عن شريط جنسي تم اكتشافه لرفيق كفاحه عبد الفتاح مورو وتحول إلى فضيحة كبرى ليس لمورو فقط وإنما للنظام التونسي الذي ورث عن أنظمة عربية سابقة مسألة استغلال الفضائح الجنسية لكنه طورها باتباع سياسة إخراج تلك الفضائح إلى العلن ليصفي بها حساباته، ليس مع أشخاص، بل مع تيارات سياسية بأكملها. أخذت أسأل نفسي: هل كان ذلك يا ربي في عهد بورقيبة الذي انتهى عام ١٩٨٧، أم أنه كان بعد سنوات من تولي زين العابدين بن علي الحكم؟ أخذت أتحسر على ذاكرتي فأسعفتني بمعلومات جديدة لتثبت أنها لا زالت حاضرة، الرجل صدرت عليه أحكام بالسجن المؤبد فغادر تونس إلى المنفى حيث عاش في فرنسا ثم غادرها بطلب من النظام الفرنسي الموالي دائمًا للديكتاتوريات العربية في تونس وسوريا والجزائر والمغرب برغم تشدقه الدائم بالحريات، بعدها سافر الرجل إلى بريطانيا وأقام في لندن حيث يطل منها دائمًا على القنوات الفضائية التي لا تخشى غضب النظام التونسي.

أدرك الغنوشي وهو يقترب مني أنني واقف أحدق فيه، فارتبك قليلًا، ابتسمت له ابتسامة عريضة وتقدمت نحوه، أدركت أنه ربما يظن أنني مرسل لمراقبته، فالرجل كما أعرف مطلوب أمنيًّا للأجهزة التونسية، التي أخذ زين العابدين بن علي ينميها يومًا بعد يوم حتى أصبح عدد المنتسبين إليها أكبر من عدد المنتسبين إلى الجيش التونسي، وبرغم أن الرجل كان يتشدق كل يوم بمبادئ العلمانية وقيم الليبرالية إلا أنه كان يشكل حالة فريدة ستدرس في كتب الديكتاتوريات لخدمة أرفع أفكار التقدم بأحط الأساليب القمعية المتخلفة.

... قبل أن أرى راشد الغنوشي بالصدفة في قلب إستانبول كنت قد قرأت قبلها بأشهر كتابًا خطيرًا صدرت طبعته العربية في عام ٢٠٠٥ عن دار قدمس السورية وهي من أهم دور النشر العربية في رأيي، الكتاب ألفه باحثان فرنسيان هما «نيكولا بو» و«جان بيير توكوا» اسمه «صديقنا الجنرال زين العابدين بن علي.. وجه المعجزة التونسية الحقيقي»، وكان قد صدر على غرار كتاب فرنسي سابق رائع اسمه «صديقنا الملك» عن تجربة الملك المغربي الراحل الحسن الثاني. لا أدري إذا كان بمقدورك عزيزي القارئ أن تحصل على نسخة من الكتابين، ولكن يمكن أن تقرأ عرضًا للكتاب الصادر عن زين العابدين بدأ الأستاذ كارم يحيى نشره في موقع البديل الجديد، ربما لتستكشف كم ساهم العديد

من الكتاب والصحفيين المصريين - وبعضهم يوصف بأنه مستقل أو معارض - في خديعة الرأي العام المصري والمساهمة في الترويج لأكذوبة أزهى عصور التنمية والاستقرار في تونس، بل ووصل الأمر باتحاد الصحفيين العرب برئاسة السيد إبراهيم نافع إلى أن يمنح ذلك الديكتاتور جائزة حرية الصحافة العربية، فضلًا عن التغني بالمجتمع الفاضل الذي صنعه زين العابدين بن علي، والذي نجح في أن يجعله خاليًا من التطرف ومفعمًا بالتقدم والحداثة، وكل ذلك كان يقال بالطبع مجاملة للجهات الحكومية التونسية التي تتولى تسفير هؤلاء إلى تونس سنويًّا في رحلات سياحية فاخرة ليكتبوا عنها بعد عودتهم قصائد شعر ثبت كذبها وزيفها.

ربما يدعي البعض من هؤلاء الآن أنهم كانوا مخدوعين، وأن تلك الصورة هي التي ظنوا أنها حقيقية، لكن إذا كانت تلك الصورة يمكن أن تنطلي على الرجل العادي، فكيف تنطلي على كاتب صحفي كان يفترض به أن يدقق ويبحث، أو على الأقل يقرأ كتابًا كالذي أُحدثك عنه، وهو كتاب بالمناسبة أزعج السلطات التونسية لدرجة أنها لاحقته في سوريا التي على رأسها ملايين البطحات فيما يخص الديمقراطية والحريات، فاستجابت لنظيرتها التونسية ومنعت الكتاب، كما نشرتْ بعض الصحف، ولولا أن نسخًا منه كانت قد تسللت إلى المكتبات المصرية في مطلع ٢٠٠٥ لما كنا قد قرأناه. الأستاذ كارم يحيى يطالب في مقالة ثانية له بالبديل بفتح ملف علاقات الكتاب والإعلاميين المصريين بالنظام التونسي؛ لكي يتحمل كل إنسان مسئوليته عما مارسه من تضليل على الناس، وهي دعوة مهمة أتمنى أن تتبناها لجنة الحريات بنقابة الصحفيين، على الأقل بأن تضع قائمة بأسماء الذين مارسوا دور الدعاية للنظام التونسي القمعي أيًّا كانت مناصبهم أو مواقعهم، لعل ذلك يعطيهم فرصة لكي يشرحوا مبررات ما فعلوه لقرائهم، فندرك ربما أشياء كانت خفية عنا وكانت ظاهرة لهم، ولعلها تكون بداية لعمل قوائم مماثلة لكل الذين ساندوا الأنظمة القمعية الاستبدادية في جميع الصحف ووسائل الإعلام، لعل ذلك يجعلهم عبرة للأجيال القادمة من الصحفيين والإعلاميين الذين لا بد أن يدركوا أن شرف الصحفي والإعلامي في استقلاليته وانحيازه للحقيقة وليس للسبوبة.

على أية حال، دعونا نعد إلى ٢٠٠٦ من جديد، عندما استحضرت تفاصيل الكتاب الفرنسي الذي قرأته، وأنا ذاهب لأسلم على راشد الغنوشي، كنت أدرك أنني بصدد رجل

هارب من نظام لا يعادي الإسلاميين فقط، بل ويعادي كل ألوان الطيف السياسي التي ترفض أن تكون خادمة في بلاطه، وكنت أدرك حجم التضحيات التي يقدمها رجل مثل هذا، كان ينبغي أن يظل في بلاده ليعبر عن رأيه فيها، طالما أنه لم يتبن العنف المسلح منهجًا، ولم يرفع السلاح في وجه الدولة، كنت أدرك أنني ذاهب للسلام على رجل مهما اختلفنا مع أفكاره ومواقفه، فهو رجل دفع ثمن تلك الأفكار والمواقف غاليًا، لا أدري لماذا قررت أن أهدئ توتره من إقبالي عليه بأن أخاطبه بما تصورت أنه لهجة تونسية وأنا أمد يدي للسلام عليه: «عالسلامة سي راشد.. كيفاش لا باس». زاد توتر الرجل، قلت لعله تصور أنني ضابط برتبة في الأمن التونسي يلاحقه في الخارج، سلّم عليَّ بحذر شديد، فأدركت خطئي وبدأت أصلحه فورًا وعدت لأحدثه بشكل طبيعي: «إزيك يا أستاذ راشد، أنا اسمي كذا كاتب سيناريو من مصر، وكنت قريت لك سنة حاجة وتمانين دراسة عظيمة عن موقف الإسلام من الفنون أثرت فيَّ جدًّا». هز الرجل رأسه بامتنان شديد يكتنفه الشجن؛ ربما لأنني ذكرته بأوقات كان لديه رفاهية أن يجلس ليفكر ويجتهد، قبل أن يتحول إلى منفي في بلاد الله. أعترف أن رد فعله في عدم التواصل معي أربكني قليلًا؛ لا أدري لماذا تصورت أنه سيقول لي: «الله يا راجل بجد قريتها.. طب تعال نشرب حاجة»، ثم يتيح لي الفرصة لأسأله عشرات الأسئلة عن تجربته في الحياة، حاولت أن أعزو الأمر إلى الصحة والسن والحرارة الشديدة، فقررت أن أطمئنه أكثر، قلت له: «على فكرة أنا لي صديق تونسي أعتقد أنك تعرفه هو الكاتب صلاح الدين الجورشي». زاد قلق الرجل فقلت ربما لأنني ذكرت له اسم شخص يختلف معه سياسيًّا؛ فصلاح الجورشي محسوب على ما يعرف اختزالًا وتعسفًا باليسار الإسلامي، وهو شخص من أعذب وأجمل من عرفت في حياتي، أردت أن أُطمئن الغنوشي من هذه الزاوية فقلت له: «على فكرة أنا باختلف معاك في آراء كثيرة، لكني أحترمك بشدة وأقدر كفاحك ومعاناتك السياسية وأتمنى أن يأتي اليوم الذي ترجع فيه إلى وطنك أنت وكل المنفيين السياسيين العرب». بدا أن كلامي طمأنه من ناحيتي قليلًا فهز رأسه بامتنان، وهنا أفسدت الأمر عندما قررت أن أكون ودودًا أكثر فسألته: «حضرتك يا ترى بتشارك في مؤتمر القدس ولّا في مؤتمر الأقليات المسلمة في أوربا؟»، لم تكن لديَّ قائمة بالمؤتمرات المنعقدة في المدينة يومها، كل الحكاية أن زوجتي كانت تشارك بتغطية المؤتمر الأخير صحفيًّا، لكن حرصي على استعراض

علمي الزائد جعل الرجل يجزم أن غرضي ليس بريئًا، وأنني ربما كنت ضابطًا في جهاز أمني مصري ينسق مع أصدقائه وحلفائه في الأجهزة الأمنية التونسية، فهز رأسه محييًا وهو يغمغم بكلمات لم أتبينها وابتعد.

أخذت أراقبه وهو يسير في الشارع صوب المظاهرة التي كانت متوقفة في الميدان وقتها قبل أن تتابع سيرها في شارع الاستقلال، لفت انتباهي أنه لم يشارك في المظاهرة وأنه كان ينظر إليها وهو يهز رأسه غضبًا ويضرب كفًّا بكف، قلت لنفسي وأنا أعذره إن للسن أحكامًا برضه، لعل الرجل يريد أن ينصح المشاركين أنه لا جدوى من التظاهر والهتافات، أو لعله يتحسر على وطنه الذي تمنع فيه المظاهرات بشكل عام وليس من أجل فلسطين فحسب، اللهم إلا إذا كانت من أجل تأييد قائد المسيرة التونسية. ابتعد الرجل عن ناظري تمامًا، فبدأت أستعد للسير في المظاهرة وأنا أزمع أن أضع خيبة أملي في الهتاف من أجل القدس، لكن قبلة بين مشاركتين في المظاهرة أوقفتني للحظات، لم تكن قبلة على الخد أو حتى على الجبين، وإنما كانت قبلة في الفم تتبادلها شابتان في وضح النهار، كانت تلك لحظة التنوير التي فسرت كل ملاحظاتي على المظاهرة، بدأت أجول بنظري على وجوه المشاركين الذين كانوا يمشون في ثنائيات متماثلة، الذكور معًا والإناث معًا، الأيدي كلها كانت في مواضع حساسة وحميمة، بدا أنني كنت على وشك تكرار المشهد الذي قدمه الفنان عادل إمام في الجزء الثالث من فيلمه «بخيت وعديلة»، عندما شارك في مسيرة للشواذ في نيويورك، قلت لنفسي: ربما كان هؤلاء الشواذ يتظاهرون من أجل نصرة القدس، من يدري فلم يعد هناك شيء مستبعد. وعندما عدت إلى الكوفي شوب الذي كنت جالسًا فيه استوضحت تفاصيل الموضوع من الجرسون الذي كان يجيد الإنجليزية بطلاقة، وتلك لو تعلمون عملة نادرة في إستانبول، فقال لي ساخطًا: «هؤلاء الملاعين لن يهدأوا حتى يعاقبنا الله كما عاقب قوم لوط ويرسل علينا صواعق من السماء». لم يكن يبدو على الجرسون أنه متدين، لكنه واصل كلامه متحمسًا: «يتظاهرون من أجل الحصول على حقوقهم.. ألا يكفي أننا نسمح لهم بالسير في الشوارع هكذا.. يظنون أنهم يضغطون على الحكومة من أجل أن تلبي مطالبهم وننضم إلى الاتحاد الأوربي.. ليلعن الله الاتحاد الأوربي ويلعننا إذا كنا سنستجيب لهؤلاء المخنثين».

فهمت إذن لماذا كان راشد الغنوشي يهز رأسه بغضب، لعله كان يقول لنفسه وهو

يتأمل مظاهرة الشواذ: «يا سبحان الله.. هذه بلاد تعطي للشواذ جنسيًّا حق التظاهر في وضح النهار دون أن يقمع مظاهراتهم أحد.. وأنا أُنفى من وطني لمجرد أنني أطالب بحقوقي السياسية». شعرت بحزن عميق وأنا أفكر في مشاعر الرجل ومعاناته التي يعيشها آلاف المثقفين والسياسيين العرب من مختلف الدول. إذا كنت تتابع صفحات الرأي في صحيفة عربية مثل الحياة اللندنية ستتبدى لك هذه المأساة وأنت تقرأ تعريفات الكتاب بأنفسهم أسفل مقالاتهم: «كاتب عراقي يعيش في السويد.. كاتب تونسي مقيم بفرنسا.. كاتب سوري يقيم بأمريكا»، وهلم جرا، وقمعًا ونفيًا وتشريدًا لأناس كان يمكن لهم أن يعيشوا في أوطانهم ليعبروا عن أفكارهم، فلا تقارع تلك الأفكار إلا بأفكار مثلها، وليس بالقمع والاستبداد.

ثم مرت الأيام وجاء عام ٢٠١٠، وفي صيفه كنت أقف مع صديق لي في أحد شوارع العاصمة البريطانية لندن، والذي يكثر فيه الوجود العربي بصورة مقبضة، والأسباب مكانها مقال آخر ربما، خيل إلينا أننا رأينا الشيخ راشد الغنوشي يسير على الجهة المقابلة من الشارع، قال لي صديقي الذي يشاركني في تقدير معاناته والاختلاف معه: «تعالَ لنسلم عليه». قلت له: «لا أنصحك بأن تصطحبني معك، الرجل لو رآني وتذكرني سيستنجد بالمارة وسيطلب لي البوليس؛ لأنني ألاحقه عبر البحار»، وأخذت أحكي له قصة لقائي به ونحن نتابع سيره البطيء وهو يحمل على كاهله هم الغربة الثقيل.

عندما اندلعت الانتفاضة التونسية الشعبية المجيدة رأيت الغنوشي في أكثر من قناة فضائية وقد دبت فيه الروح فجأة، وشعرت أنه أصبح أصغر عشرين عامًا على الأقل، أكبرت في الرجل اعترافه بأن ما حدث من ثورة ظلت تتصاعد يومًا بعد يوم لم يكن من تدبير أي نخبة سياسية بما فيها حزبه، رأيته في بداية الأحداث على الجزيرة مباشر وهو يطالب الناس بالصمود والصبر حتى يسقط الطاغية، قلت بإشفاق: «يا عيني صدَّق الرجل أن الشعب يمكن أن يسقط حاكمه، لعله يحلم بأن يحدث ذلك سريعًا حتى يعود إلى تونس ويكحل عينيه برؤيتها قبل أن يتوفاه الله، لعله الآن قارب الثمانين من عمره ويدرك أن تلك ربما كانت الفرصة الأخيرة له». على فترات متقطعة مع تصاعد الانتفاضة كنت أراه وهو يزداد حماسًا ويقينًا بأنه عائد إلى تونس، فأواصل الشعور بالإشفاق عليه هو ومئات المعارضين التونسيين الذين اكتشفنا من متابعتنا لتغطيات القنوات الفضائية المختلفة لأحداث الانتفاضة أن بن علي أخلى

تونس منهم تمامًا وشردهم في جميع مناحي الدنيا، ويا ليته تركهم في حالهم هناك. في كتاب «صديقنا الجنرال» ستجد مثلًا تفاصيل مخزية عن التواطؤ الفرنسي الذي قامت به الحكومات الفرنسية ضد معارضين تونسيين من جميع الأطراف، بعضهم استضافته في بلادها ولكنها منعته من ممارسة أي حقوق سياسية مجاملة لصديقها الديكتاتور الذي ستكشف الأيام كم من الملايين صرفها على قمع معارضيه في الداخل وتتبعهم في الخارج.

عندما سقط الجنرال بن علي وهرب إلى الخارج كأي جبان رعديد ليثبت أنه حتى سلفه الطاغية الحبيب بورقيبة كان أشرف وأطهر منه، أو ربما لم ترد الفكرة على باله بحكم هرمه، في ذلك اليوم المجيد فكرت فورًا في راشد الغنوشي وآلاف المثقفين المنفيين والمعتقلين، تمنيت أن أرى المنصف المرزوقي بشكله الملفت ونبراته الحادة، ولم أجده في أي قناة، وسعدت عندما رأيته في مطار تونس قبل يومين يؤدي النشيد الوطني وسط أنصاره، وابتهجت عندما رأيته يعلن ترشحه للانتخابات الرئاسية؛ لأنني أدركت أن جذوة تمرده لن تخف أبدًا. وجدت نفسي أسأل عن مصير الشيخ عبد الفتاح مورو، وهل كان شريطه ذلك ملفقًا أم أنها كانت لحظة ضعف بشري تم استغلالها بضراوة لضرب تيار سياسي بأكمله، وفوجئت به يظهر متحدثًا على التليفون في مكالمة قصيرة مع قناة الحوار قبل أن تنقطع المكالمة وتظل أسئلتي عن لغز هذا الرجل. وجدت نفسي أتصل بصديقي المفكر الرائع صلاح الدين الجورشي في أريانة بتونس لأهنئه وأطمئن عليه، لكنني وجدت الرقم قد تغير. أرسلت رسائل تهنئة إلى كل من أعرفهم من الفنانين والمثقفين التونسيين. أخرجت كل المقالات التي كتبها بيرم التونسي عن تونس خلال إقامته هناك، وأخذت أقرأها بشغف كأنني أريد أن أُطمئن بيرم إلى أن ما كان يشعر به من سخط ومرارة وألم على أوضاع تونس، كل هذا قد تغير، بأيدي الشعب يا بيرم ولا أحد سواه.

أعرف أن كل ما حدث ويحدث حتى الآن ليس سوى بداية يحاول البعض أن يقللوا من تأثيرها ويلطخوا نبلها بتنظيراتهم الحقيرة العرجاء. خلال الأيام الماضية شاهدت محاولات التلطيخ تلك تمارس في قنوات مختلفة على أيدي جهات متعددة بينها ثعالب يسارية كبيرة مفسدة للكروم، وبلطجية صحافة حكومية، وقيادات مركز الاستراتيجيا في خدمة الاستبداد. أعلم أيضًا أن كل الدول العربية وكل القوى الدولية ستتحالف بكل

إمكاناتها لإفشال هذه الثورة وإجهاضها وسرقتها؛ لكي لا تظل مثالًا مشرقًا يحلم به العاطلون والمظلومون والمقهورون في غرفهم المقبضة. كل هذا أدركه، لكنني أدرك أكثر أنني فخور كما لم أكن فخورًا من قبل في حياتي كلها؛ لأنني عشت أخيرًا على المستوى العام لحظة مشرقة مجيدة أطاح فيها شعب متحضر بحاكمه الطاغية، وهل يطيح بالطغاة إلا شعوب متحضرة؟

تذكرت اللحظات المؤلمة التي عشتها مع الملايين ونحن نرى كيف سقط الطاغية العراقي صدام حسين على أيدي الغزاة. أذكر صديقًا لي طلَّق زوجته لأنها رأته يبكي بهستيريا بعد أن شاهد قيام الجنود الأمريكان بتغطية وجه صدام حسين بالعلم الأمريكي، فقالت له ضاحكة: «إنت اتجننت.. واحنا مالنا ما يولعوا بجاز». أنا وصديقي المتهور وملايين من الشباب العربي ننتمي إلى جيل ملتبس؛ تربى على أيدي جيل عاش هزيمة ١٩٦٧، وظلت حاضرة في ذهنه ووجدانه بشكل لم نفهمه ولم ندرك نبله إلا عندما عايشنا سلسلة الهزائم العربية التي بدأت بحرب الخليج الأولى ولم تنته حتى الآن. رأينا مصير الجيل الذي تربينا على يديه. رأينا بعض رموزه يتساقطون لكي يصبحوا خدمًا لدى المستبدين وأعوانهم. ورأينا بعض رموزه يموتون بحسرتهم وخيبة أملهم. ونرى بعض رموزه لا زالوا صامدين ومقاومين وملهمين للأجيال من بعدهم، لذلك يكتسب الانتصار التونسي بُعدًا خاصًّا لدينا. ولذلك تمنيت أن يكون كل أساتذتي الذين رحلوا عن دنيانا أحياء لكي يعيشوا معنا فرحة اللحظات المجيدة التي تحققت بإرادة أحرار تونس. ولذلك كله أنا سعيد لكل الذين عاشوا هذه اللحظة، التي لا أدري هل ستتكرر في باقي الأوطان العربية، لكن ما أدريه أنه ملعون كل من لم يحلم بتكرارها، ولم يُقَدِّر نُبلها، ولم يسع إلى أن تثور كل الشعوب العربية سلميًّا بألف طريقة وطريقة ضد كل الحكام الذين نهبوا خيراتها، واستبدوا بشعوبها، وجعلونا نقبع في ذيل الأمم، وأوصلونا إلى القاع ولا زالوا يحفرون من أجل أن نصل إلى قاع لا نهائي.

لا أدري ما الذي سيفعله راشد الغنوشي بعد عودته إلى تونس، هذا إذا عاد قريبًا، فقد تألمت لإصرار البعض على ممارسة لعبة الإقصاء مع شخص يختلفون معه، مع أن الإقصاء لم يوصل تونس إلا إلى الخراب! لماذا يستكثرون على شيخ مثله أن يناجي وطنه قائلًا:

ويا وطني لقِيتُك بعد نأيٍ   كأنِّي قد لقيتُ بك الشَّبابا

لا أدري هل سنتعلم من الدرس التونسي أن الأفكار المتقدمة لا يمكن أن تزرعها في عقول الناس بالقمع أبدًا، وأنه لا يوجد سبيل آخر غير الحوار والتعددية أيًّا كان الثمن. لا أدري كيف سيكون مصير تونس في الأيام القادمة، وهل سينجح اللصوص والانتهازيون ورجال الأعمال في سرقة ثورتها كما سرقوا كل الثورات من قبل؟ لا أدري هل ستستوعب الحياة السياسية في تونس جهود وعطاء وخبرات آلاف المثقفين والفنانين التونسيين الذين عاشوا سنين طويلة في المنفى؟ للأسف ليس عندي أمل أن نشهد في مصر ما شهدناه في تونس لأسباب أجاد تلخيصها الدكتور عمرو الشوبكي في مقال بارع ومؤلم له بالمصري اليوم قبل أيام، لكن ذلك يخيفني أكثر؛ لأن بديل الثورة الشعبية ذات المطالب الواعية هو انفلات غوغائي يأكل الأخضر واليابس، وهذا الانفلات سيحدث إذا ظل الوضع قائمًا على ما هو عليه، ولن يستطيع منعه أحد للأسف، أما البديل عن الثورة الواعية والانفلات الغوغائي فهو للأسف أخطر بكثير: سرطان فتَّاك متعدد الرءوس يزحف في بنية المجتمع تحت أشكال متعددة فيأكله من الداخل بينما القائمون على المجتمع يظنون أنهم مستقرون ثابتون مسيطرون على الأمور، ثم يكتشفون الحقيقة بعد فوات الأوان.

لم يفت الأوان بعد في مصر وعليها، لا زالت بلادنا قادرة على أن تغير وتتغير، لا زلت أرى أن المطالب التي وضعها الدكتور البرادعي هي الحل، فقط إذا توقف بعض المثقفين المنهزمين المشغولين بذواتهم عن تطفيش الشباب من حوله. لا زلت أرى أن الرجل برغم كل ما عليه من ملاحظات هو الأفضل على الساحة السياسية الآن، وفي أسوأ الأحوال فإن دعمه والالتفاف حوله يمكن أن يدفع هذا النظام إلى التغيير المرحلي من أجل الإبقاء على مصالح رجاله، وسيكون الفقراء هم المستفيدون في هذه الحالة ولو إلى حين. لا زلت أراهن على الشباب الذي ليس من حقنا أن نمارس التنظير عليه فنحرمه من ممارسة دوره والتعلم من أخطائه. لا زلت أؤمن بالأمل، وسأظل أؤمن به حتى النَّفس الأخير. ولا أعتقد أنني سأتوقف عن التداعيات إذا تركت لي العنان؛ فأنا أعيش لحظات غريبة في حياتي، تختلط فيها مشاعر الفرحة بالشجن بالأسى بالخوف بالأمل، لذلك ولكي تنتهي هذه التداعيات قسرًا كما انتهى طغيان زين العابدين بن علي، سأعمل لي قفلة على الفور وأذهب لكي أستمع إلى العظيم سيد مكاوي وهو يغني من كلمات العظيم فؤاد حداد: «يا مصر قومي افتحي.. بكفاية نوم صحصحي.. قومي

افتحي الأبواب.. ومع الأذان سبحي.. آن الأوان تفرحي.. يا مصر يفرح ترابك مرة من نفسه.. يا مصر قومي افتحي واتكرَّمي بالضيف.. إللي انتصر بالله.. ما ينهزم بالسيف.. يا مصر قومي افتحي واستقبلي الزوار.. ووسعي مطرحك وعَلِّي سقف الدار.. بالطبلة دقة وبقلبي دقة.. ياللي سامعني ما تقولش لأه.. النور بيفتح كل باب مقفول.. يا شمس دايمة فوق ربوع الوادي.. يا محوَّطاني بالنسيم النادي.. شاء الإله يا شمس مالِك أفول.. ولا يعتريكي الذبول.. اصحى يا نايم اصحى وحد الدَّايم».

نشرت على ثلاثة أيام متتالية
من ١٨ يناير إلى ٢٠ يناير ٢٠١١

أبو ذر يظهر أمام مجلس الشعب!

«عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس حارقًا نفسه». عبارة صادمة لا أدري هل كان سيدنا «أبو ذر الغفاري» سيقولها لو كان حيًّا بيننا الآن بدلًا من قولته الشهيرة: «عَجِبتُ لِمَن لا يجدُ قُوتَ يومِه كيف لا يَخرجُ على الناس شاهرًا سَيفَه؟». ربما لم يقلها؛ فقد كان رضي الله عنه رجلًا مؤمنًا يعرف أن الانتحار يأس واليأس كفر، ولذلك لعله كان سيتمسك بشهر السيف بأشكاله الدستورية المعاصرة من إضرابات واعتصامات ومظاهرات وعمل سياسي، وكلها بدائل أكثر فعالية ونجاعة من حرق النفس. وبالتأكيد كان شيوخ الدولة سينعقدون بكامل هيئاتهم لكي يصدروا بيانًا لإدانة منهج أبي ذر التحريضي، وشجب خروجه على الحاكم، ودعوته للالتزام بطاعة أولي الأمر، بدلًا من إثارة البلبلة وتهييج الجماهير وإيقاظ الفتنة. لم يكن في أيام أبي ذر مجامع حكومية للإفتاء، لكن كان هناك مستفيدون من الأوضاع القائمة، ومستغلون لأطهر النصوص في خدمة أحط المقاصد، وأولئك هم الذين نفوا أبا ذر وحققوا فيه نبوءة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: «يعيشُ وَحدَه ويموتُ وَحدَه ويُبعثُ يوم القيامةِ وَحدَه». وأمثالهم في أيامنا هم الذين يتشطرون على الراغبين في الانتحار حرقًا، ويصمتون عن الذين دفعوهم إلى الانتحار.

هل أنا مع الانتحار؟ سؤال ستعاجلني به الآن، طيب يا سيدي، سأجيبك بحكاية: منذ عشرين عامًا كنت طالبًا في السنة الجامعية الأولى، مرت عليَّ أيام وليالي لم أكن أملك فيها قوت يومي بعد أن نفدت مدخراتي وتقطعت بي السبل، ومع ذلك لم أفكر في الخروج على الناس حارقًا نفسي ولا شاهرًا سيفي، لماذا؟ لأنه كان لديَّ أمل يعصمني من الكفر. عشت ليلتين لا أجد ما آكله سوى أرغفة عيش قديمة وبرطمان ليمون معصفر وبرطمان

عسل تجمد في الشتاء دليلًا على جودته، وكنت أعاني في كحته بالمعلقة لكي أفرشه على سطح الرغيف، ومع ذلك كله كنت سعيدًا جدًّا؛ لأن جدتي أعطتني البرطمانين قبل نزولي من الإسكندرية إلى القاهرة وإلا لكنت ربما قد لجأت إلى التسول إسكاتًا لوحش الجوع. لماذا لم أفكر في الانتحار يومها؟ ببساطة لأنني اخترت تلك الحياة القاسية بمحض إرادتي. تركت العيش المحتمل مع أهلي وقررت أن أطارد أحلامي، نعم كانت لديَّ أحلام وأيضًا كان لدي راديو، ولا أظن أن أحدًا يستمع إلى إذاعتي البرنامج العام والشرق الأوسط يمكن أن ينتحر.

كلامي كئيب؟ طيب خذ عندك تفسيرًا ألطف قليلًا، ربما لم أفكر في الانتحار وأنا شاب مطحون؛ لأنني جربته وأنا صبي بائس. الانتحار كان مرهقًا جدًّا. كنت في التاسعة وقررت أن أهرب من تعاستي الأسرية بأن أبتلع كل ما يوجد من أدوية صلبة وسائلة كانت تشغل حيزًا كبيرًا من «دولاب الأدوية» الذي كان ضرورة في بيت مكتظ بالسكان. فعلتها وظللت أسفله ساعتين أنتظر الموت، لكنه لم يأتِ، وجاء مكانه مغص حقير تمنيت الموت لكي أرتاح منه ومن التأتيت الذي تعرضت له طيلة اليوم الذي استغرقته لغسيل معدتي: «عايز تموت كافر يا حيوان». أمي قالتها لي وهي تحتضنني وتبكي، وأنا رددت عليها بما أمتلكه من معلومات دينية أحفظها، وبكل ثبات لا يناسب التقطيع الذي تشهده معدتي: «أموت كافر ازاي وانا ما بلغتش سن التكليف.. أنا كنت هاخش الجنة وأستريح». لذلك ولذلك كله نصيحة من منتحر سابق لا تجربوا الانتحار؛ لأنه ليس مريحًا على الإطلاق في حالة فشله.

عارف؟ قبل أيام وفي عز هوجة محاولات الانتحار التي أعقبت ثورة الشعب التونسي، طلب مني مُعدٌّ في برنامج شهير أن أشارك في حلقة يُفترض أن هدفها نصح الشباب بأن يتوقفوا عن التفكير في الانتحار. المُعدُّ كان زميلًا لي في الجامعة، وزارني مرة في الشق الذي كنت أعيش فيه وقتها، العشم الذي بيننا جعلني أشتمه وقلت له: «هل تتصور أنني يمكن أن أشارك في دجل كهذا.. هل تريدني أن أحدث الناس عن حرمانية الانتحار وعن حلاوة الأمل ثم أخرج من الاستديو لأركب سيارتي الفارهة وأعود إلى بيتي لآكل عشاء صحيًّا ثم أنام قرير العين؟!». لم أقل له هذا بالفصحى طبعًا، بل بعامية ممزوجة بشتائم يعاقب عليها القانون، والعشم الذي بيننا جعله يرد الشتيمة بأقذع منها قبل أن يسألني: «طب ترشح مين يقول بُقين حلوين عن الأمل واليأس؟».

الحكاية هكذا بالضبط، كل الذين يتحدثون الآن، سواء بإخلاص أو بغير ذلك، لا يقولون للناس سوى «بقين حلوين عن الأمل واليأس». والمُقرف أن الكل يتحدثون وكأن حكاية الانتحار سخطًا اختراع تونسي ابتكره المرحوم بإذن الله «بو عزيزي» وسمع به المصريون فجأة، والكل ينسى أن من لم يهزه انتحار عبد الحميد شتا فلا خير فيه.

ياه! أعرف أن النسيان آفتنا جميعًا، ولكن أرجوكم لا تقولوا لي إنكم نسيتم عبد الحميد شتا، باحث الاقتصاد والعلوم السياسية المجتهد الطموح الذي انتحر لأنهم حرموه من كذا وظيفة مرموقة بوصفه «غير لائق اجتماعيًّا»؛ لأنه ببساطة «ابن ناس غلابة» يعيش في بلد الثورة المجيدة، ثورة يوليو التي قام بها أولاد الفلاحين والعمال من أجل أن يصبح أولادهم بهوات، لا يجرؤ ابن فلاح أو عامل على أن يحلم بحب إحدى بناتهم كما كان يحلم ابن الجنايني بإنجي.

انتحر عبد الحميد شتا وهاجت الصحف على سيرته بضعة أيام أو قل بضعة أسابيع، ثم ماتت سيرته وماتت معها أسئلة خطيرة لم يكن ينبغي أن تموت أبدًا: من الذي يحصل على أهم الوظائف في الدولة؟ وهل لا زالت هناك أماكن مرموقة تحت الشمس لابن فقير أو بسيط دون أن يلتحق بخدمة الأسياد أو يحصل على مباركتهم وزقة منهم؟ وأي سلم اجتماعي الذي نشأ في مصر طيلة الخمسين عامًا الماضية؟ وإلى أي هاوية هبط بنا هذا السلم؟ وهل بات علينا ألا نكتفي بأن نحلم بالعودة إلى أهداف الثورة التي نحتفل بها كل عام، بل نوسع نطاق الحلم ليمتد إلى أيام ما قبل الثورة المجيدة عندما وصل إلى زعامة الأمة ابن نجار بسيط اسمه مصطفى النحاس ليصبح ندًّا للباشوات والإقطاعيين قبل أن يصبح قائدًا لهم بمجهوده وكفاءته وتميزه وليس بانتخابات مزورة أو صدفة عبثية؟

أذكر أنني بعد رحيل عبد الحميد شتا كتبت معالجة سينمائية عن قصته الحزينة وأسميتها «غير لائق اجتماعيًّا». وظللت لمدة ثلاث سنوات أبحث عن فرصة إنتاجية لها دون جدوى، وكانت الجملة الوحيدة التي أسمعها من الجميع: «يا راجل حرام عليك.. الفيلم غامق وماحدش هيخش يشوفه». طبعًا، صح، أعترف أن الفيلم غامق، ولن يكون أحد مضطرًّا للدخول لرؤيته في دور العرض، لكن المشكلة أنه لم يعد فيلمًا على الإطلاق، بل أصبح واقعًا لا تستوعبه أي دار عرض مهما كان اتساعها. الفيلم أغمق مما نتصور، ولا تنخدعوا بالالتباس الذي رافق قصة أو قصتين من قصص الراغبين في

الانتحار، ولا يخدعكم أنها كانت هوجة وستعبر في ظل شعب يحب الحياة ويرضى بأي شكل من أشكالها؛ فالقادم أسوأ بكثير، ولن يكون انتحارًا احتجاجيًّا، بل سيكون مجتمعًا يأكل بعضه بمليون طريقة وطريقة. ويخطئ كل من يتعامى عن هذه الحقيقة التي ينبغي أن تخيف الجميع أغنياء وفقراء.

لست محتاجًا إلى فتوى شيخ لكي أعرف أن الانتحار ليس حلًّا ولا حلالًا، لكنك عندما تشاهد على شاشة التلفزيون صورًا للشارع الذي خرج منه الشاب الإسكندراني الذي انتحر حرقًا، وهو يطفح بالمجاري حتى حواف أبواب بيوته وينضح بالبؤس والتعاسة، تسأل نفسك: لماذا قرر ذلك الشاب أن ينتحر بدلًا من أن يأخذ كل من يعيشون معه في ذلك الشارع البائس ليرموا أنفسهم وعيالهم وحالهم وهمهم أمام باب محافظ الإسكندرية لكي يجبروه على منحهم حقوقهم في حياة آدمية كريمة؟ هل كانت الحكومة ستقتلهم جميعًا؟ أو حتى هل كانت ستحبسهم جميعًا؟ بالطبع لا، هم ببساطة لم يفعلوا ذلك لأن كل أبواب الاحتجاج السلمي تم تخويفهم منها؛ لأن هناك من قتل السياسة في هذا البلد ظنًّا منه أن ذلك سيحقق الأمن لأسياده وشركائهم، لأن سكان ذلك الشارع لم يسمعوا عن أبي ذر الغفاري، فهو ليس محبوبًا لدى المتشددين الذين فتحت لهم الحكومة أبواب المجتمع مشرعة لكي يعبثوا بعقول الناس، وليس محبوبًا لدى المنبطحين الذين حوَّلوا الدين إلى وظيفة يأكلون منها الشهد.

حسنًا، المنتحر سيذهب إلى النار، شكرًا يا مشايخنا الأجلاء على المعلومة القيمة، ولكن يا ترى هلا أجبتمونا إلى أين سيذهب الشيوخ الذين يصمتون على ظلم الحكام واستبدادهم وفسادهم؟ وإلى أين سيذهب الحكام الذين يدفعون ببلادهم إلى التخلف والتطرف والجهل؟ إلى أين سيذهب اللصوص الذين يثرون من مناصبهم ثم يعلنون محبتهم لمصر ويدعون إلى عمل الخير؟ إلى أين سيذهب المنافقون والظلمة والجلادون؟ إلى أين سيذهب الذين يعذبون الناس بالكهرباء، والذين يستبيحون حرمة البيوت، والذين يقمعون المتظاهرين، والذين يفسدون في الأرض بعد إصلاحها، والذين يُزوِّرون الانتخابات، والذين ينشرون الجهل، والذين يمسخون روح الفقراء، والذين يصنعون في كل بيت تاجر مخدرات ومدمنًا وبلطجيًّا وفتاة ليل ومنتحرًا بوسيلة أو بأخرى؟ هل سيذهبون إلى الجنة يا حضرات المشايخ؟

كل الكلام أرخص من معاناة الناس، ما الذي سيعنيه هذا الكلام لدى شاب فقد الأمل؟ لا شيء، حتى الذين يقرأون كلامي الآن هم مثلي أناس لديهم أمل ما، وإن بدوا يائسين، لو لم يكن لديهم أمل ولو ضئيل لما اشتروا الصحيفة أو حتى دخلوا إلى موقعها الإلكتروني، ببساطة كلنا بنكلم بعض، كلنا نفضل أن نقول «بقين حلوين عن الأمل واليأس»، مع أننا جميعًا نعلم أين مشكلتنا، لكن بعضنا أجبن من أن يواجهوا أنفسهم بالحل. طيب ما هو الحل؟ يمكن أن أقول لك على رأي النكتة الشهيرة: بسم الله الرحمن الرحيم: الإجابة تونس. لكن تجارب الشعوب لا ينفع معها «الكوبي والبيست» للأسف الشديد، ومع ذلك فالإجابة الوحيدة التي أعرفها أن هذه البلاد لا بد أن تتغير؛ لأنه لا يمكن أن يكون المشروع القومي لهذه البلاد الآن هو إثبات أن الرئيس كان على حق طيلة الثلاثين سنة الماضية، باختصار حكام هذه البلاد لا بد أن يرحلوا ويمنحوها فرصة جديدة، وإلا فإنهم باستمرارهم في البقاء على كراسيهم يحاولون أن يمنعوا انتحار مئات من الشباب بينما هم يدفعون بلدًا بأكملها إلى الانتحار.

٢٢ و٢٣ يناير ٢٠١١

اقرأ وتأمل

- «في سنواته الأخيرة كان الطاغية التونسي الحبيب بورقيبة يخلط بين الواقع والتمثيل وبين الجد والهزل.. ومع الأيام بدأت عوارض هستيرية تظهر عليه؛ فقد أصبح يمر من حالة النشوة والضحك إلى حالة من الحزن والبكاء دون أن يكون بإمكانه أن يحبس دموعه بسهولة، ومن حالة المرونة والأريحية إلى حالة عدوانية قصوى يستعمل فيها كلمات جد مبتذلة حتى أمام وزرائه وضيوفه، فمرة سُمع يقول لأحد وزرائه: «كان بن صالح ينكح كل نساء وزرائي، فلماذا لا تفعل مثله وأنت عازب». أما في اجتماعات المكتب السياسي فقد كان يمسك بعصاه ثم يأخذ في الدوران حول الطاولة، ومن حين لآخر كان ينقر رأس أحد وزرائه، وكانت تزداد عدوانية بورقيبة حين يلتقي بالنساء؛ ففي إحدى المرات وقفت أمامه صحافية وسألها عن اسمها فقالت: «حليمة»، صمت لحظة ثم التفت إلى مساعديه وقال بلا خجل، مشيرًا بيده المرتعشة إلى صدرها: «أنا أعرف حليمتين، الأولى مرضعة الرسول والثانية هذه السيدة التي يمكن أن تُرضع شعبًا بأكمله».».

- «في آخر اجتماع لبورقيبة مع مجلس وزرائه في الأول من أكتوبر ١٩٨٧ انفجر شلال السب والشتم من فم بورقيبة باتجاه رئيس وزرائه رشيد بو صفر قائلًا له: «هل تظن نفسك أنك الزعيم أو أنك تظن أن الزعيم مات؟»، ثم واصل شتمه فوصفه بالنذل والخصي والمخنث، ثم قال له: «إنني لا زلت قادرًا على نزع سروالك»، ثم أضاف: «هل ترى هذه العصا، سوف أضعها في مؤخرتك، أنت لست رجلًا»، وقبل أن يتعب بورقيبة من الصراخ، كان بعض الوزراء قد تسللوا إلى الخارج من فرط الحياء منهوكي القوى والكرامة وقد اكتشفوا أخيرًا مدى هشاشتهم أمام ذلك العجوز، كما اكتشفوا أنهم ليسوا إلا شهود زور على قتل بلاد بكاملها».

ـ «عندما قرر بن علي الإطاحة ببورقيبة طبقًا للمادة الدستورية التي تفيد بوجود مانع مطلق يمنعه من الحكم، تم استدعاء سبعة أطباء في وسط الليل منهم عسكريان، ليس إلى قصر بورقيبة، وإنما إلى وزارة الداخلية، حيث التقوا ببن علي الذي طلب منهم وضع تقرير طبي عن عدم قدرة الرئيس صحيًّا على الحكم، واحتج أحدهم بأنه لم يرَ بورقيبة منذ سنتين، فرد الجنرال صارمًا: «هذا لا يهم، وقِّع»، ووقع الأطباء وانصرفوا.»

ـ «بعد عزله وتحديد إقامته في قصره بعد ٣١ سنة من الحكم، كان بورقيبة من أجل كسر الملل يلجأ إلى الهاتف فيطلب أرقامًا كيفما اتفق، وما إن يرد الطرف الآخر حتى يقول له: «هل أنتم عائلة منستيرية؟ أنا الحبيب بورقيبة وأحب المنستير»، ثم يقفل السماعة، وقد اتصل مرة بالإذاعة المحلية غاضبًا: «أنا سبب وجودكم ولا تذكرون اسمي مرة واحدة».».

كل الوقائع السابقة مجتزأة من كتاب «بورقيبة سيرة شبه مُحرمة» للكاتب التونسي الصافي سعيد والصادر عن دار رياض الريس. أما الوقائع التالية فقد اجتزأتها لك من كتاب «صديقنا الجنرال زين العابدين» للكاتبين الفرنسيين «نيكولا بو» و«جان بيير توكوا» ترجمة زياد منى والذي صدر عن دار قدمس السورية:

ـ «في أول سفر له إلى الخارج بعد توليه الرئاسة أدى بن علي العُمرة، وشوهد في التلفزيون يُقبِّل جدار الكعبة والدموع في عينيه وكتفه عارية تمامًا، وتبدأ أقل مداخلة له بالتعبير الديني «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأعلن بن علي على الملأ: «يتوجب على الدولة وحدها السهر على ازدهار الإسلام وتألقه... لقد لعب النظام ببراعة على تناقضات شعب منقسم بذاته، وشهدنا خلال تراجع الإسلاميين، إدارة براغماتية وذكية للإسلام».».

ـ «حتى الوثائق المدرسية لبن علي في ثانوية سوسة اختفت بعد بضعة أيام من توليه الرئاسة».

ـ «طالب تونسي اسمه مروان بن زينب كان مهتمًّا بالمعلوماتية وغير مهتم بالسياسة أبدًا، عمره ست وعشرون سنة، حصل على منحة جامعية في أمريكا الشمالية، دخل سهوًا على النظام المعلوماتي للقصر الرئاسي، وبعدها باح خائفًا للمقربين منه أنه وجد قائمة عملاء للموساد معتمدين في تونس العاصمة لمراقبة المسئولين الفلسطينيين المقيمين في تونس، بعدها بأيام مات مروان في حادث سير، وفي يوم دفنه لازمت الشرطة عائلته حتى يتم الدفن، كان ذلك في عام ١٩٨٩ بعد عامين من التغيير».

ـ «عندما انتقد وزير الثقافة السابق محمد شرفي أمام خمسة من ضيوفه في منزله سياسات بن علي استحق بعدها بأيام في عام ١٩٩٥ أن تنشر صحيفة حكومية قائمة نفقات ضخمة يعلوها الغبار يعود تاريخها إلى فترة شغله منصب الوزارة تحت عنوان «انظروا أين تذهب أموال أولادنا».».

ـ «عندما علم بن علي أن شقيقة ميتران كانت تعيش من مواردها الخاصة اندفع قائلًا: «لن أترك هذا يحدث لأفراد عائلتي أبدًا».».

ـ «في عام ١٩٩٧ نشر ملحق مجلة «لو نوفيل آفريك آزي» الأسبوعية صورة قديمة لرئيس الدولة يظهر فيها بشعر وخطه الشيب، نجم عن ذلك إتلاف نسخ المجلة؛ فالجنرال الذي لا يأنف من اللجوء إلى الصبغة، لا يستطيع إلا أن يكون ذا شعر داكن على نحو متناسق».

ـ «عرف بن علي كيف يستغل الوضع الدولي، خصوصًا بعد أحداث ١١ سبتمبر، على أساس أنه يقود منذ التسعينيات نضالًا ضد الإسلاميين، ويدافع عن النور والديمقراطية، وها هو يُحتفى به كأحد أكثر رجال السياسة وعيًا في العالم العربي، كم كان عليهم أن يسمعوه بدل أن ينتقدوه، هكذا يهتف مادحوه، بعد أحداث سبتمبر نبشت الصحافة التونسية مقابلة قديمة منحها بن علي لصحيفة نمساوية موضوعها «يجب اجتثاث الإسلاميين، وهذا ما قمت به في بلدي، انتقدتموني، ترون اليوم أني كنت على حق». وبالتالي بدأت الصحف الغربية والمسئولون الغربيون يتحدثون عن أن الديمقراطية لا تولد بين عشية وضحاها، وأنها تحتاج إلى وقت لكي تتحقق».

ـ «في نهاية ٢٠٠١ كتب الصحفي توفيق بن بريك في كتابه «مذكرات الواشي» يقول: بن علي هنا وسيبقى هنا؛ لأن أمامه طريقًا ممهدة، معارضة سخيفة مجزأة إلى مجموعات صغيرة لا جيش لديها ولا مشروع، زعماؤها هم شركاء سابقون، ومثقفون من نوعية غير جيدة. واستغرق الأمر عشر سنوات حتى يسقط بن علي».

ـ «عندما كان المراقبون الغربيون يتساءلون: لماذا تندر حالات الإضراب عن الطعام في السجون التونسية؟ وجدوا تفسيرًا في رسالة من طبيب شقيق معتقل في سجن تونسي أرسلت إلى صحيفة فرنسية في عام ١٩٩٨، كشف فيها أنه عندما يبدأ سجناء الرأي في الإضراب عن الطعام، يقوم الحراس في اليوم الثالث للإضراب بتقييدهم وإعطائهم حُقنًا

شرجية فيها مواد دوائية مثل «الفاليوم»، وعند الاستيقاظ لا يعود السجناء يتذكرون أنهم كانوا مضربين عن الطعام، وبهذه الطريقة يُنهى إضرابهم».

- «في بدايات قمع الملتحين في عام ١٩٩١ مات الطالب فيصل بركات؛ وهو طالب في قسم الرياضيات، كان قد طالب في مقابلة متلفزة بالحرية النقابية، وتم إخبار أسرته أنه مات في حادث سيارة، لكن التشريح الطبي قال إن الوفاة ناجمة عن إدخال جسم في الشرج، وهي ظاهرة نادرة للغاية في حوادث السير، وحتى اليوم (٢٠٠٢) يتعرض شقيقه لملاحقة أعوان النظام كيلا يتقدم بشكوى هو أو عائلته. أما زوجة الناشط الإسلامي اللاجئ في ألمانيا السيدة بوجريص؛ وهي أم لثلاثة أطفال، فقد انقض عليها ذات يوم حوالي عشرين شرطيًّا ونزعوا عنها ثيابها حتى عروها وأخذوا يكيلون لها الضربات على كل أجزاء جسمها وهم يشتمونها، ناعتين إياها بالساقطة، وهددوها بالاغتصاب إذا لم تقل كل ما تعرف عن زوجها، بعد ذلك استخدم رجال الشرطة الصدمات الكهربائية، وعندما أغمي عليها توقفوا عن تعذيبها وأرغمت على طلب الطلاق من زوجها مرتين.»

هذا غيض من فيض حكايات موثقة دوليًّا عما كان يحدث في عهد الطاغية بن علي الذي تستضيفه المملكة العربية السعودية التي تحتضن الكعبة المشرفة وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

أخيرًا قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾. ولعل عظمة الشعب التونسي أنه لم يكتف بالانتظار حتى يأتي ذلك اليوم، بل عمل بأوامر الله تعالى، فسعى لتعجيل العقاب للظلمة في الدنيا قبل أن يذوقوا العذاب المهين في الآخرة.

٢٤ يناير ٢٠١١

لو كنت وزيرًا للداخلية

لن أسمح اليوم لكل من تسول له نفسه بأن يقمع مظاهرات الشباب الغاضب أيًّا كان عدده، وأيًّا كان توجهه، بل سأستثمر هذه المظاهرات الغاضبة سياسيًّا لمصلحة الوطن، سأُظهر للعالم أن مصر ليست الدولة التي تقمع المتظاهرين، وأن نظامها ليس ضعيفًا لكي يخاف من أصوات الشعب، وأنه قادر على أن يسمع هذه الأصوات ويتفهمها ويتحملها، بالعكس سأقوم بتصوير هذه المظاهرات في كل المواقع التي ستقوم فيها، ليس لكي يستخدمها رجالي بعد ذلك في مساعدتهم على قمع الناشطين السياسيين، بل لكي أنقلها مباشرة إلى رئيس الجمهورية الذي لن تنقل له أجهزة الإعلام الرسمية الحقيقة.

سأنقل هتافات المتظاهرين ومطالبهم بالصوت والصورة إلى رئيس الجمهورية؛ لكي يعرف ما الذي يشكو منه هؤلاء المتظاهرون، لن يصبح شغلي الشاغل هو أن أصور له أن من خرجوا ليسوا سوى قلة منحرفة لا يعجبها العجب، فأنا أعلم بحكم موقعي أن المطالب التي يحملها هؤلاء المتظاهرون، والتي وزعوها في آلاف المواقع الإلكترونية، هي التي يطالب بها ملايين المصريين الصامتين والخائفين من قمع أجهزتي، ربما كررت لسيادته الجملة التي كتبها الكاتب الكبير وحيد حامد على لسان الفنان كمال الشناوي في فيلمي المفضل «الإرهاب والكباب»: «مكتوب علينا نتحمل أخطاء الوزارات التانية»، طبعًا لن أقول لسيادة الرئيس أن أخطاء الوزارات التانية ليست في الحقيقة سوى أخطاء سياساته هو واختياراته هو، فقواعد اللعبة السياسية تقتضي أن نتصور جميعًا ونصور للناس أن كل ما يحدث من أخطاء في البلاد ليس رئيس الجمهورية مسئولًا عنها، بل وراءها الوزراء والمسئولون التنفيذيون.

الحمل ثقيل والمسئولية مرهقة، واليوم الذي كان ينبغي أن يستريح فيه رجالي

ويسترخون ويحتفلون بعيدهم أصبح يومًا يفترض فيه أن يستنفروا قواهم ويشحذوا هممهم من أجل السيطرة على أي محاولة للإخلال بأمن البلد، أعرف أن بعض المتظاهرين يتصورون أنهم سيكررون اليوم تجربة الشعب التونسي في الإطاحة بنظام الحكم، وأعرف أن هؤلاء حسنو النية إلى حد السذاجة، فأنا متأكد أن البلد ممسوكة جيدًا، وأن ما نحن فيه اليوم من استقرار هو حصيلة عمل طويل قمت به أنا وكل وزراء الداخلية السابقين لي؛ خربنا فيه الأحزاب، ودجنا فيه الجامعات، ولم يجلس فيه مسئول على كرسيه، وإن صغر، إلا برضا تقاريرنا، وصارت قوى المعارضة الرسمية أقرب إلى وزارتي من كثير من الحكوميين.

أعرف أن الحكاية في الآخر لا تتجاوز بضعة آلاف من الساخطين؛ أغلبهم ظروفهم يتمناها ملايين العاطلين، لكنهم مع ذلك يتظاهرون من أجل ما يتصورون أنه مبادئ ومطالب عادلة، بينما الذين تعنيهم هذه المطالب أصلًا لن يتظاهروا؛ لأنهم إما خائفون وإما يائسون وإما مغيبون عن الدنيا بأسرها. لكنني أعلم أن الشعوب لا أمان لها، وأنني أنا الذي سأُحاسَب على أي محاولة للإخلال بالأمن، لذلك سأكون حكيمًا وواعيًا، ولن أستجيب لوساوس من يطلب مني أن نقوم باستخدام فرق الكاراتيه والقبضايات في قمع المتظاهرين بعد إلباسهم ملابس مدنية وتحميلهم صورًا للرئيس مبارك ولافتات تطالب بالوفاء له لكي يبدو للعالم أن هناك خلافًا شعبيًّا في مصر بين الأوفياء وناكري الجميل، بالعكس سأحيط المظاهرات بكردونات أمنية مشددة تترك للمتظاهرين حرية التعبير عن مطالبهم وغضبهم، وفي نفس الوقت تحمي كل من يندفع إلى إتلاف الممتلكات العامة بفعل الانفلات أو الحماس، أو ربما لكونه مدفوعًا من أجهزة لا أعلمها داخل وزارتي تتصور أنها تخدمني، أو ربما تفهم توجيهاتي خطأً، أو ربما يكون مدفوعًا من قوى خارجية لا تحب الخير لبلدي.

أنا لست قديسًا ولا شيطانًا، أنا رجل أمن طموح، أريد أن أبقى في منصبي، أريد أن أظل ناجحًا في خدمة من عينني في منصبي، ولذلك سأتعلم من أخطاء وزراء الداخلية الذين سبقوني سواء في مصر أو خارجها. بعد أن تنزاح هذه الغمة سأرفع تقريرًا لرئيس الجمهورية أقول له فيه إن البلد لا تتحمل مثل هذا الاستنفار إلى الأبد، وإن الحل هو أن نعيد الحياة إلى السياسة التي قتلناها، وإن هؤلاء الشباب الغاضبين لا بد أن تتم استيعاب طاقاتهم الخلاقة في العمل السياسي؛ لأن مصر تخسر كثيرًا في ظل المسرحية السياسية

التي تدور فيها منذ ثلاثين عامًا والتي كنت أحد أبرز مؤلفيها ومخرجيها، وإنه لا سبيل للخلاص إلا بحياة ديمقراطية سليمة يشعر فيها كل مواطن بأنه شريك في الوطن. سأقول لسيادته إنني أنصحه أن يعلن أنه لن يخوض الانتخابات الرئاسية القادمة، ويعلن عن اختيار وجه محترم من داخل النظام يخوض انتخابات رئاسية نزيهة. سأقترح لسيادته أكثر من مرشح أعلم أنهم لو نزلوا في مواجهة كل قوى المعارضة الموجودة سيكسبون لا محالة؛ لأن مزاج الشعب سيكون أميل إلى عدم حدوث مفاجآت. سأقول لسيادته إن حل مجلس الشعب الحالي أمر حتمي؛ لأنه أكبر غلطة سياسية حدثت في ظل عهده، وإنه لو أصدر هذا القرار سيدخل التاريخ من أوسع أبوابه. سأقول لسيادته إنني زهقت خلاص، وإنني قررت أن أتقدم باعتذار رسمي إلى الشعب المصري عن كل الانتخابات الماضية التي تمت في عهدي، وعن كل قمع قمت به للمظاهرات وناشطيها السياسيين، وعن كل حوادث التعذيب التي تورط فيها رجال بوزارتي، أيًّا كانوا، وسواء تم تقديمهم للمحاكمة أو تم التجاوز عما قاموا به. سأدفع تعويضات لكل ضحايا التعذيب والعنف السياسي، وسأدعو أسرهم إلى احتفالية كبيرة يحضرها رئيس الجمهورية ليسلم معاشًا استثنائيًّا لابن السيد بلال المعتقل السلفي في إسكندرية، ولكل أبناء وزوجات وأمهات الذين تعرضوا للتعذيب والعنف والاضطهاد. سأتخلى قليلًا عن العنف وأجرب العدل كوسيلة لفرض الأمن في البلاد. سأُرضي ضميري وأشتري آخرتي، وحتى لو أقالني رئيس الجمهورية فسأكون الكسبان؛ لأنني بصراحة أحتاج إلى إجازة طويلة، وربما ستكون المرة الأولى والأخيرة التي تشهد فيها مصر مظاهرات تحمل صور وزير الداخلية وتهتف له بدلًا من أن تدعو عليه.

٢٥ يناير ٢٠١١

رسالة بأمل الوصول!

ابنتي الحبيبة: إزيّ حالك. أكتب إليك هذه الرسالة وأنت تأكلين الآن رز باللبن والقشطة والمكسرات مع الملايكة، بعد أن قضينا يومًا جميلًا حافلًا باللعب والضحك والجري والمرجحة والحواديت التي لم تفهمي منها شيئًا، لكنك بكل جدعنة تحملتي حماسي المبالغ فيه وأنا ألعب دور الأب الحكَّاء، فقررتي مشكورة أن تلعبي دور البنت المنبهرة بحكايات أب رأى أنه من العبث أن يحكي لابنته عن الشاطر حسن وأمنا الغولة في زمن يسوده الشطار والعيَّارون وسارقو الأحلام، وتتوارى أمنا الغولة خوفًا من غيلان القصور الحاكمة والممولة والراعية للحكم، فقرر أن يحكي لابنته عن أحلامه في أن تعيش يومًا ما في بلاد أقل سوءًا من التي عاش هو فيها.

الغريب يا ابنتي أنني وأنا أحكي لك عن هذه البلاد التي حلمت بها أنا والأجيال التي سبقتني كنت أرى في عينيكي حزنًا رهيبًا جعلني أشك للحظة أنك تفهمين ما كنت أقصده، ربما التقطتي حزني بفطرتك الذكية، وربما أنا الذي ظننت ذلك مبالغًا في قدراتك كعادة الآباء، لكنني شعرت أنني في حاجة لأن أفسر لك سر ذلك الحزن الذي تملكني وأنا أحدثك، فقررت أن أسجل ذلك على الورق؛ لعلنا عندما تكبرين نقرأه معًا ونضحك على عبط أبيك الذي لم يكن يعلم أن الأحوال ستنصلح، أو لعلنا نقرأه معًا ونبكي على حال هذه البلاد التي تعشق أن تصبح على الذي باتت عليه، وربما لا أكون معك أساسًا وأنت تقرئين هذا الكلام فأكون قد حاولت أن أجيبك عن سؤال يواجهني كثيرًا هذه الأيام، ولعله سيواجهك عندما تكبرين، هذا السؤال المفزع الذي يطاردني كثيرًا يا ابنتي هو: ما الذي تريده بالضبط؟ ولماذا تكتب كل ما تكتبه؟ ولماذا لم ترضَ بالكثير الذي رزقك به الله، وقررت أن تتمرد وتلابط وتسوق العوج على الذين عاثوا في الأرض فسادًا

وموالسة وزيفًا وظلمًا؟ فأخشى ما أخشاه أن يصور لك أحد أن أباكي كان مجنونًا أو باحثًا عن بطولة أو جاريًا وراء وهم. وأنا يا ابنتي أقسم لك بالذي أنشأك في أحسن صورة إنني لم أكن مجنونًا أو بطلًا أو موهومًا. أنا كنت أنا، بأسئلتي الكثيرة وحيرتي وشغبي وكراهيتي للسير في القطيع وحبي العارم للحياة، كل الحكاية أنني كنت أظن أن القلم لعبة لطيفة كما تظنين أنت الآن، وأنت تلعبين بالأقلام التي أحضرها لك، لكنني تعلمت أن القلم لعنة تحرق صاحبها إذا لم يحمل أمانته التي اختار أن يحملها ظلومًا جهولًا.

أنا يا ابنتي كنت واحدًا من ملايين غيري عشنا نحلم فقط ببلاد أقل سوءًا، بلاد حقيقية، ليست موجودة فقط في أحلام الشعراء وخيالات الروائيين، بالعكس، البلاد التي نريدها كانت على أيامنا موجودة على خريطة العالم يتمتع بها من لا يدينون بديننا، ولا يتكلمون بلغتنا، ولا يدعون مثلنا، طيلة الوقت، أن لديهم أخلاقًا وتراثًا وقيمًا وتقاليد وهوية وحضارة.

كنا نريد بلادًا نعلم كيف يأتي حاكمها ومتى يرحل ولا نعلم مَن سيخلفه مسبقًا، بل نكون بحاجة لأن نفكر جيدًا قبل أن نقرر مَن سيخلفه. كنا نريد بلادًا نعلم من يحكمنا فيها، هل هو الحاكم أم ابنه أم أصدقاء ابنه أم قوى غامضة لا يعلمها إلا الله. كنا نريد بلادًا لا يفتش في ضمائرنا فيها إلا الله، ولا يجرؤ أحد فيها أن يصادر على تفكيرنا، ولا على حريتنا، ولا على مشاعرنا. كنا نريد بلادًا يأكل المواطن فاكهتها بشغف لا يشوبه قلق من المرض الخبيث، ويمتنع عن الإكثار من أكل اللحم؛ لأن كثرته مضرة لا لأن كثرته مستحيلة.

كنا نريد بلادًا نعلم لماذا تحارب ولماذا تسالم ولماذا ترفع صوتها بين الأمم ولماذا تخفضه، بلادًا تنحني للعواصف دون أن تنبطح، وتلعب كل الأدوار في السياسة الدولية إلا دور المُحلل. كنا نريد بلادًا لا تخنقنا بأوهام الريادة والسيادة والصدارة وهي تسير في ذيل ركب الحضارة. كنا نريد بلادًا لا يحتاج المحبون فيها إلى التخفي، ولا الحالمون بالجنس إلى الاغتصاب، ولا المنزلقون في الزلات إلى اختبار الـ«دي إن إي». كنا نريد بلادًا يتمتع فيها الغني بغناه دون أن يسرقه مسئول، أو يفرض عليه «الفِردة» صاحب نفوذ، أو يسرقه جابي ضرائب، بلادًا فقرها ممكن الاحتمال، يحلم فيها الفقير بخروجه من فقره دون أن يتهمه الناس بأنه موهوم لا يدرك أن فقره سيسحقه وأنه هالك لا محالة. كنا نريد بلادًا نعلم لماذا يتعرض الإنسان فيها للسجن؟ وكيف يقضي ليلته في السجن؟ وماذا يأكل؟ وكم مرة سيرى أهله وذويه؟ ومتى سيخرج؟ وما الذي سيفعله بعد أن يخرج؟ كنا

نريد بلادًا لا يُضرَب كُتَّابها في الشوارع، ولا يختفون في ظروف غامضة، ولا يختارون تعرية ضمائرهم وأقلامهم خوفًا من أن يجدوا أنفسهم عراة في المقطم.

كنا نريد بلادًا توصل الكهرباء إلى بيوت مواطنيها لا إلى مؤخراتهم، بلادًا تروي عطش أهلها بالمياه النقية ولا تغرقهم في براميل المياه حتى يعترفوا بجرم لم يرتكبوه. كنا نريد بلادًا نموت فيها لأن الله وحده أراد لنا ذلك، وليس لأن لدينا مستشفيات بها أطباء بلا ضمير، وعمارات بناها مقاولون بلا إيمان، ورخَّصها مهندسون بلا ذمة، ومسارح لا مخارج للطوارئ بها، وطرقًا تعبر بسالكيها إلى الموت، وفقرًا «دكرًا» يدفع الناس لقتل أنفسهم عندما يعجزون عن قتله. كنا نحلم ببلاد لا نبكي عندما نغني لها، لا نخاف عندما نشكو منها، لا يراودنا الشك في مصيرها، ونموت لأي سبب إلا القلق على مستقبل أبنائنا فيها. كنا نريد بلادًا تشجعنا على حبها.

... لكننا يا ابنتي حِيل بيننا وبين ما نريد ونشتهي، تمامًا كما فُعِل بأسلافنا من الحالمين في هذه البلاد الظالم حكامها لأهلها، والظالم أهلها لأنفسهم ولبعضهم البعض، ولست أدري في هذه اللحظة التي أكتب لكِ فيها هل نرى يومًا ما نريد أم نموت مثل أسلافنا قبل أن نرى ما نريد؟! وما كنا نريده كما ترين لم يكن وهمًا أو مستحيلًا أو جنونًا أو عبثًا، بل كان حلمًا قابلًا للتحقق، لكن الوجوه الكريهة التي كانت سائدة في زماننا لم تكن ترى ذلك ولا تريده، ولست أدري هل سيكون في الزمن الذي تكبرين فيه وتصبحين قادرة على فهم ما أكتبه لكِ الآن وجوه كريهة تمنعك أنت وجيلك من رؤية ما تريدونه؟! أرجو من الله ألا يحدث ذلك وأن تكونوا أسعد حظًّا منا، فتشهدوا لأول مرة تغييرًا حقيقيًّا في هذه البلاد، التي ظل العالم كله يتغير وهي تتحايل على التغيير بألف شكل وشكل، تغير جلدها وشكلها أحيانًا لكنها لم تُغير قطّ جوهرها.

سأشعر بسعادة يا ابنتي لو كنت إلى جوارك بعد عشرين عامًا، ورأيتك وأنت تقرئين كلامي هذا وتسخرين مني ومن جيلي؛ لأننا كنا نحلم بأشياء هي بالنسبة لكم بديهيات لا ترقى إلى أن تكون أحلامًا. وسأشعر بالرضا لو جئتِ إلى قبري وقرأتِ لي وعليَّ الفاتحة ثم قلت لي إنك الآن ترين ما كنت أريد.

ليس ذلك بكثير على الله يا ابنتي.. فالله يفعل ما يريد.. فقط عندما يسعى عباده لأن يعيشوا في بلاد أقل سوءًا.

٢٦ يناير ٢٠١١

شهادة من قلب الأمل

كنت أتمنى أن أكتب لكم عن يوم الأمل الذي عايشته في شوارع القاهرة، لكن وعكة صحية طارئة منعتني من القدرة على الكتابة، وأظن حتى إنني لو كنت صحيحًا معافى كنت سأحتاج إلى وقت لكي أستوعب ما عايشته لأتمكن من ترجمته إلى كتابة، لذلك أترك هذه الاصطباحة اليوم لواحدة من أفضل وأصدق وأهم الشهادات على يوم بداية التغيير، يوم الأمل، يوم الشباب، يوم سقوط الأكاذيب، ويوم انكشاف الكُتَّاب والإعلاميين والمثقفين والسياسيين الذين يخونون إرادة الشعب من أجل مصالحهم الضيقة، والذين يخبئون جبنهم وانتهازيتهم خلف اليأس والتنظير، وهي تدوينة كتبها المذيع اللامع أحمد العسيلي وأتشرف بنشرها، وألقاكم يوم السبت بإذن الله إذا عشنا وكان لنا نشر:

«بما إنّها كانت أكبر مُظاهرة في تاريخنا الحَديث، أغلب المُتظاهرين النهارده كانوا لأوّل مرة ينزلوا مُظاهرة حقيقية، بما فيهُم أنا، وكان باين علينا يعني؛ في لحظات كتير من المواجهات تحديدًا، أغلب الناس ما كانوش عارفين يتصرَّفوا ازاي بالظبط. كان فيه أحيانًا حد يطلع يقول بثقة: «ما ترجعوش»، وبعد دقيقة حد تاني يقول بثقة برضه «ارجعوا..»، ويتلخبطوا الناس طبعًا، شوية يرجعوا وشوية ما يرجعوش، وشوية يقفوا في النُّص يحاولوا يكتشفوا بنَفسُهُم الخيار الأنسَب (أنا شخصيًّا اكتشفت إن الطريقة المُثلى للتعامل مع المُصادمات هي «الكَر والفَر»؛ تعمل دوشة مُزعجة وتتقدّم بصفوفك ناحيتهُم «ده الكَرّ»، ينزعجوا منَّك فيبدأوا يتقدّموا بعُنف ويضربوا قنابل وخلافُه؛ ترجع ورا لحد ما الدُّخّان يقل «ده الفر»، وبعدين تعيد بناء الصفوف وتَتَقَدَّم تاني، وهكذا)، أمَّا الصفوف الأمامية على الجبهات المُختلفة من الميدان كانت مليئة بأبطال الحقيقة، صحيح مجموعة منهُم كانوا بيفقدوا أعصابهُم بسهولة نسبيًّا مما يؤدِّي إلى موجات من العُنف يَسقُط على أثرها

بعض الضحايا، إلّا أنُّهم فعلًا أبطال شُجعان عَندُهم تلك القُدرة على إلهام الناس وإثارة مشاعرهُم واستثارة شجاعتهُم التي قلّما يستعملونها.. أشكركم على إلهامكُم ليّ بشكل شخصي، أشكُركُم على إلهامنا جميعًا.

الأمن كان جاهز فعلًا.. شاطرين الحقيقة.. عكس المُتظاهرين الجُدُد اللي اتعلّموا كتير النهارده، أو هكذا أتمنّى، دول كانوا عارفين هُمّ بيعملوا إيه كويّس جدًّا؛ تشويش على التليفونات، خطة لعربيّات العساكر حتركن فين، العساكر مرصوصة زي الشطرنج، الظُبّاط يبدون هادئين وواثقين من نفسُهُم، عارفين إمتى يهدوا ويسيبوا الناس تطلّع طاقتهُم وبعدين يناغشوهُم كده شوية لمّا يحسّوا انُّهُم بيكتسبوا ثقة وقُوّة ببومبة، طلقتين في الهوا، شوية مَيّة ساقعين؛ دَلَع كده، وبرضُه بيقلّل الأعداد نسبيًّا عشان المُصابين واللي عَندُهم حساسيّة والمبلولين بيضطر أغلبهُم يروّحوا عشان ما يجيلهُمش التهاب رئوي... والأهم إن بعدين بَقَه لمّا جِه معاد إن الميدان يفضى، عرفوا يفضُّوا الميدان!.. الأشاوس والصف الأوّل والصف التاني والفرّيجَة وكُلُّه.. بس مش كُلُّهُم روّحوا!! كتير منهُم لسه في الشوارع بيحاولوا يكمّلوا المشوار، وكُلّي أمل إنُّهُم يصمدوا سواد اللّيل عشان اللي ناموا يقفوا مكانهُم في النّهار.. أرجوكوا احجزولي مكاني.. مش قادر أمنَع نَفسي من التفكير في: يا ريت كان النظام المصري كُلُّه بيشتغل بكفاءة البوليس مُفَرّق الجماعات دَه!.. شيء فعلًا غريب.. إشمعنى القَهر اللي شاطرين فيه أوي كده! إشمعنى الدقّة والتفاني والالتزام ما بيطلعوش غير عدوانًا على الشعب اللي المفروض أصلًا ان شُغلتكوا تحموه كده!! شيء فعلًا غريب، بس بالرّغم من غرابتُه، وفي مُحاولة قَد تَبدو يائسة لإيجاد حاجة إيجابية في هذا السياق، الله!! ده ينفع، ده احنا مُمكن نعرف نعمل حاجات بإتقان مُنقطع النظير أهُه!! وطن فعلًا غريب.

اختلط في وسط الهتاف الغزير وفي وسط المشاعر المُتأجّجة مطالب مُختلفة كانت بتخلّي الناس مش كُلُّهُم بيهتفوا بنفس الحماس مع كُل الهتافات؛ كان فيه ساعات هتافات فيها أكل كده «مش عارف مين بياكلوا فراخ» «عايزين ناكُل عايزين ناكُل»، الكدب خيبة ما كُنتش بَقدَر أهتف بحماس مُطالبًا بالأكل، أنا ولله الحَمد باكُل وما عنديش مُشكلة مع اللي بياكلوا فراخ... «إرحل إرحل» ماشي الحال.. «كفاية... كفاية» كفاية فعلًا «مستنيينك في السعودية» مش موضوعي يروح فين.. أهلًا بيه في وَطَنُه.. وطننا.. «ولا عدلي ولا حبيب.. إرحَل يا وزير التَّعذيب» مشكلتي مش معاه مش في شَخصُه، بل في شُغلتُه

اللي ممكن ألف واحد يعملها، وكُلُّهُم مننا برضه.. وعلينا، ثُمّ هتفوا مرّة: «الشَّعب.. يُريد.. إسقاط النّظام».. «الشَّعب.. يُريد.. إسقاط النّظام».

أيوااااا هيّ دي.. النظام البايظ هُو السبب في كُل حاجة بايظة.. الإدارة الناجحة هي عنوان النجاح والإدارة الفاشلة هي أقرب طريق للفَشل، والنّظام اللي أشطر حاجة بيعملها هي تفريق المُتظاهرين وإرهاب الشّعب وللأمانة كمان «التشريفات» هُو نظام ما ينفَعش.. من الأول ما كانش نافع، بس دلوقتي ما بَقاش ينفع خالص.. خالص.. إدّيت صوتي من غير حساب للشعب الذي يُريد إسقاط النّظام.. حتّى لم يَتَبَقّ من صَوتي شيئًا.. وما كانش مأثّر فيّ انا بس الهتاف دَه على فكرة، كان أكتر هتاف بيلم النّاس حواليه، أكتر هتاف بيُثير مشاعرهُم.. ممكن يكونوا عشان ما تعوّدوش يتّفقوا هُمّ عايزين إيه، ويتكلّموا عن أنفُسهُم كواحد؟.. ممكن يكون عشان كلمة «يُريد» كلمة عظيمة؟.. يمكن عشان اتعوّدوا إن كلمة «الشعب» بتتقال عنهُم، رغمًا عَنهُم، وفي مَواضِع يكرهونها؟ مش عارف مين فيهُم السّبب ومش عارف إذا كان فيه أسباب أُخرى، بس اللي همّني أنّنا كُلّنا بالآلاف، كُنّا بحماسَةٍ نَصرُخ: «الشعب.. يريـــد.. إسقاط النظام».

في مظاهرة النهارده وفي وسط أطياف مُتباينة جدًّا من شرائح المُجتمع المصري كان باين إن فَهم المُتظاهرين لكلمة مُظاهرة سلمية فَهم مُختَلف من بعضهم للبَعض الآخر.. ناس ترمي طوب وبعدين ناس تانية يهتفوا وراهُم «طوب لأ.. طوب لأ.. سلميّة سلميّة»، بس يَعني بَان بالرّغم من غلبة أعداد المُتعلّمين اللي امتلأ بيهم ميدان المعركة، إن التَظاهُرات مش ممكن في الظروف اللي احنا فيها دي تخلو من بعض العُنف.. هو نظريًّا مُمكن طبعًا بس عمليًّا شَكلُه مش ممكن أوي. ومع إن العُنف بيغيّر الموضوع وبالرّغم من إنُّه ممكن فعلًا يكون لا سبيل حالي لتَفادي البعض منه، برضُه غريب أوي بالنسبالي كلام الناس اللي خايفين من الفوضى وعدم الاستقرار وأخطاء الثورات، وعشان كده عمّالين يُردّدوا كلام أجوَف عن إن دَه خَطر، وان انتو مش عارفين مُمكن تودُّونا لفين، وان إحنا غير تونس، والكلام ده ما ينفعش عندنا، وكلام كتير من نفس هذا النوع... النُّوع الموجود بوفرة وفيرة عند المصريين كإنّنا بنزرعُه في توشكا على مية البُحيرَة الكتير! ليه غريب الكلام ده؟ غريب عشان لمّا تسمَعُه كده تحس ان زي ما نكون دلوقتي عايشين في نظام وعدل واستقرار ونعيم! زي ما يكون مش نُص شعبنا جعان ومش ٩٠٪ منه جاهل ومقهور بجَهلُه وباستقواء البلطجية عليه... زي ما نكون عندنا تعليم وتأمين ومستشفى

وحريّة وخطة مطمّنانا على مُستقبلنا.. زي ما نكون مش مُحاطين بالفساداً والجَهل، وعدم الكفاءة، والإهمال، وقلّة الضمير من كُل كُل الجهات.. زي ما تكون بلدنا مش منهوبة ومسلوبة، وزي ما يكونوا اللي سارقينها مننا ما بيعاملوناش زي ما يكونوا مُحتلّينّا!... بيقولوا كده زي ما يكون الوطن بيبوظ لوَحدُه.. لأ يا بهوات ويا هوانم الوطن ما بيبوظش لوحدُه ولا حاجة.. والمواطن ما بيبوظش لوَحدُه.

لمّا الوطن يقول للمواطن «اتصرّف انت» يبقى هُو اللي بيبوّظُه.. لمّا المواطن يبقى مش متعلّم عشان التعليم عَندُه روتين ويبقى المواطن مش عارف الحقيقة بتاعة أي حاجة حواليه عشان ماحدّش بيقولهالُه، لما يلاقي كُل خطوتين مَن يستغل ضَعفُه وجهلُه وحيرتُه وفقرُه فعايزينُه يفضل كده على حالُه، لمّا يفضل ياخُد مُسكّنات لسنين ومرضُه بيزيد ويكبر ويَتَفاقم، لما يبقى عارف ان عيالُه بيروحوا المدرسة ما بيتعلّموش وبيروحوا الجامعة ما بيفهموش، لمّا يبقى خايف انه لو عيي ولّا فلذات أكبادُه عيوا مش حيعرف يعملُّهُم حاجة، لمّا يبقى المواطن بيدخُل السرّير كُل يوم لو عَندُه سرير يفكّر انُّه خايف على ولادُه وحاسس انُّه وَرّطهُم لمّا خلّفهُم في هذا الوطن.. لَمّا يبقى شاكك في كُل اللي حواليه؛ لَيكون مُرتَشي، لَيكون فاسد، لَيكون ظالم! النهارده لمّا كان يَسقُط مُصاب، يرفُض ساعات الناس يودُّوه عربية الإسعاف خَوفًا من انُّهُم يودُّوه القسم بَعد ما يعالجوه. لمّا يشُك المواطن حتّى في الميّه اللي بيشربها والأكل اللي بياكلُه وانتخابات برلمانُه اللي بيسنّلُه القوانين، مش ممكن يبقى مواطن صالح، مش ممكن يبقى بني آدم كويّس، ومَن فينا لسه بني آدمين هُم الخارجين عن القاعدة، هُمّ اللي مُمكن يكونوا مجانين، خايفين من الفَوضى زي ما نكون ما عندناش سوء إدارة من أفخر ما على الأرض من أنواع. زي ما يكون مش أغلبنا بيحلبوا لقمة العيش، من ضرع الصخر كُل يوم وبلدهُم مفضيين أوّل باوّل منها الضروع.. زي ما نكون مش عايشين في واحد من أجمل أوطان الأرض وبقى بأيدينا وأيديهِم من قبلنا، في أسفَل سافلين.. زي ما نكون ما نستحقّش أحسن من كده.. زي ما يكون مفيش أحسن من كده!! لأ فيه، فيه أحسن بكتير، والطريق لسّاه طويل بس ربّنا يكتبلكو تشوفوا بعينيكو.

لإنّي شخصيّا مش عارف إيه اللي حَصَل في أماكن تانية برّه الميدان، لإن سلو بلدنا كده! قَد يعتَقد الكثيرون ان مُظاهرة النهارده فشلت بتفريق الأمن لاعتصام «التحرير» بما إن ما أرادَه الشّعب من إسقاط النظام ما حَصَلش، بس كُل اللي نزلوا مُظاهرة في أي حتّة

في مصر النهارده عارفين كويّس إنُّه ما كانش يوم فاشل أبدًا، بل كان يوم عَظيم مُلهم، مُنبِّئ ومُقلِق للناس التانيين.. وبُكرَه إن شاء رب العباد يوم تاني أحسن منُّه. أمّا للإخوة والأخوات الكئاب المُحبطين.. الإخوة والأخوات اللي مش شايفين.. عايز أقول ببساطة: مش عايز تعمل ما تعملش.. مش حتستحق النجاح لو نجح الناجحين، بس برضُه حتَحصُل عليه والمسامح كريم.. خوفَك خلّيه لنَفسَك ما تنشروش كإنّك بتُنشُر البشارة.

أمّا للإخوة والأخَوات المنظّراتية كُل واحد يصلّح نَفسُه ده مش الحَل من اللي احنا فيه، ده كان بس وعلى مر السنين المُسكّن الوحيد.. ومش قصدي ان دلوقتي خلاص ما ينفعش ناخدُه تاني، أبدًا، ناخدُه برضه لإن الألم لسه مؤلم ولإنُّه مُسكّن مُفيد، بس الموضوع ان خلاص بَقَى لازم علاج قبل الغرغرينا والبتر والصّديد، واللي بَقَه فضلة خيركو بيروحوا للدّين.. الدّين!! يجيبوا منُّه حجّة عشان يُقعدوا في البيت، مش عايز أقولُّهُم حاجة أصلًا، وأخيرًا، سمعت في أكثر من موضع ناس عمّالة تتكلّم عن قُوى خارجية مُحَرّكة، ومُتربّصين، والإخوان اللي ما اعرفش عملوا إيه كده وعفاريت، وجن أزرق، وكلام لم أر منه شيئًا على الأقل في ميدان التحرير اللي قضّيت فيه هذا اليوم السعيد بجُزء كبير من ليلَتِه، ما سمعتش كلمة إخوان ولا مَرّة ولا سمعت شعارهُم.. ولا شُفت النهارده غير مصريين قويت عزيمتهُم أو ضَعُفَت، كبر أملهُم أو صغر، كُلُّهم غَيرانين من تونس غيرة من أحمد الأنواع، غَيرانين على مَصر؛ زهقوا، خلصت منهُم زمزميّة الأمل اللي كان بيملاها دايمًا النيل.. عشان حتّى مَيّة النّيل بقت وسخة، وقفوا كُلُّهُم على اختلافهُم، باجتماعهُم، متّفقين.. إنُّهُم الشّعب، الذي يُريد.. إسقاط النّظام».

٢٧ يناير ٢٠١١

لماذا قتلت شعبك؟

سيدي الرئيس بطل الضربة الجوية، لماذا أمرت بالضربة البرية التي سقط فيها أبناء شعبك قتلى وجرحى في شوارع مصر طيلة الأيام الماضية. إذا لم تكن أنت الذي أمرت فمن الذي أمر بذلك إذن؟ كانوا دائمًا يقولون إنك لست مسئولًا عن أي كارثة تحدث لأبناء شعبك، لست مسئولًا عن غرق ألف ومائة مصري في عبارة الفساد، لست مسئولًا عن احتراق الأبرياء في قطار الصعيد ومسرح بني سويف، لست مسئولًا عن نزيف الدماء في حوادث الطرق، لست مسئولًا عن الفساد، وخراب التعليم، وانتشار التطرف والمرض والفقر، أنت فقط مسئول عن الإنجازات والسعادة والفرحة والبهجة، أنت لا تخطئ، فنحن لم نرك ولو لمرة تعتذر لشعبك كما يفعل كل الزعماء في العالم المتقدم الذين يعلمون أنهم ليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة، بل بشرًا يخطئون ويصيبون.

هذه المرة، أنت تعلم بأن شعبك كان يُقتل ويُهان ويُقمع ويُسحل في شوارع مصر، إذا لم تكن قد أمرت بذلك فلا بد أنهم نقلوا لك ما حدث في التقارير، وإذا كانوا لم ينقلوه لك فلا بد أنك شاهدته في الفضائيات والصحف المصرية والعربية والأجنبية التي قاومت قمع أجهزتك ونجحت في تسريب بعض الصور بعيدًا عن أيدي رجالك، إذا كنت تعلم فتلك مصيبة؛ لأنك خالفت ما أقسمت عليه بالحفاظ على أمن وسلامة المواطن، وإذا كنت لا تعلم فالمصيبة أعظم؛ لأنك عندها لا تستحق أن تكون رئيسًا لنا.

نحن لسنا شعبًا من الخراف يا سيادة الرئيس لكي تدهس شبابنا عربات الأمن المركزي ويضربهم الضباط بالرصاص الحي والمطاطي والقنابل المسيلة للدموع، بعد أن زهقوا من ركلهم بالبيادات وهم يلقون بهم إلى سيارات تأخذهم إلى معسكرات اعتقال نجا منها الفاسدون والظلمة والفشلة! هل رأيت في يوم ٢٥ يناير كيف سحل رجالك الكاتب

محمد إحسان عبد القدوس سليل العائلة التي لم تصل إلى مكانتها الرفيعة في وجدان المصريين بالقمع والفساد، بل بنشر الصحافة والفن والحرية والحب؟ هل شاهدت كل هذا وارتاح ضميرك لمجرد أنهم قالوا لك إن الذين خرجوا في الشوارع إخوان مسلمين؟ هل تأملت سيادتك في وجوه ملايين المتظاهرين ولاحظت أن ملامحهم لا يجمعها أي انتماء سوى الهتاف ضد عهدك وسياساتك ونظامك؟ كيف رضيت بإطلاق الرصاص على مواطنين أقسمت على حمايتهم؟ هل قالوا لك وهم يأخذون الأوامر إن المتظاهرين قتلوا جندي شرطة ولا بد من قمعهم؟ هل طلبت قبلها تقريرًا عاجلًا من الطب الشرعي لتكتشف أن الجندي استشهد بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية كما تقول المنظمات الحقوقية؟ هل تعرف أصلًا كم كان يقبض هذا الجندي وزملاؤه، وما هي أوضاعهم الصحية والنفسية والاجتماعية، وفي أي صف كانوا سيقفون لو أتيحت لهم فرصة الاختيار؟ هل سألت رجالك: هل كان غضب السوايسة العارم مجانيًّا أم أنه كان غضبًا تلا سقوط شبابهم شهداء برصاص الشرطة؟

هل قالوا لك ليلة جمعة الشهداء أن كل شيء تحت السيطرة فذهبت لتنام مطمئنًا لأنهم سيطروا على الأقلية المندسة المدفوعة وأنت ربما تفكر في إبداع جملة مليئة بالعنجهية من نوعية «سيبوهم يتسلوا»، ثم فوجئت بعد صلاة الجمعة بملايين الرافضين للتسلية وهم يخرجون ليهتفوا ضدك في شوارع مصر في مشهد لم يحدث منذ انتفاضة عام ١٩٣٥ ضد عدو الشعب إسماعيل صدقي، وحتى بعد أن رأيتهم بعينيك واصلت على مدى أيام عنادك وتعاليك على شعبك، وحتى عندما أجبرك الشعب على أن لا تظل رئيسًا حتى آخر نفس كما كنت تقول، حتى وأنت تراهن على ضعف ذاكرة شعبك وأنه سينسى كم مرة وعدته وأخلفت، لماذا لم تفكر ولو من باب المصلحة في أن تقول للناس أنك لست إلهًا، وأنك بشر يمكن أن يعتذر ويعترف بالخطأ؟ لماذا لم تتحدث بكلمة عن المئات الذين قتلهم وأصابهم رجالك؟ لم تعلن حتى عن إحالة القتلة إلى محاكمة عاجلة لكي تبرئ نفسك من دمائهم. للأسف لم تفعل يا سيادة الرئيس ولذلك ستظل دماؤهم في رقبتك إلى أن تعتذر وتحاكم من سفكوا دماء الأبرياء.

تحيا مصر، ومبروك لأحرار المصريين أنهم استعادوا وطنهم من جديد.

٣ فبراير ٢٠١١

أزهى عصور المولوتوف!

أمر مثير للقرف والاشمئزاز ذلك التواطؤ الإعلامي السافر (بالراء واللام معًا) الذي يمارسه فريق الخلايا الأمنية النائمة في العديد من وسائل الإعلام المشمومة، والذين يستميتون في تسويق وهْم أن الذين يتظاهرون في ميدان التحرير من أجل حرية المصريين وكرامتهم هم أعضاء في تحالف شيطاني إخواني إيراني قطري إسرائيلي أمريكي حماسي، ولم يعد ينقص سوى اتهام كوريا الشمالية لكي تكتمل أضلاع محور الشر. في الماضي كنا نناشد أمثال هؤلاء أن يراجعوا ضمائرهم، لكن الأيام الأخيرة كشفت عن خطلنا وهطلنا؛ لأننا تصورنا أنهم يمتلكون ضمائر أو معايير مهنية أو حتى ذكاءً سياسيًّا يخدمون به أسيادهم ببراعة، ولذلك لا أنشر الشهادة التالية من أجلهم، بل من أجل الطيبين أو اليائسين أو الزهقانين الذين تأثروا بحملات التحريض التي كان هؤلاء الإعلاميين يمارسونها أغلب ساعات اليوم قبل أن يتركوا مواقعهم لميليشيات القنص والبلطجة لكي تطلق الرصاص على العزل في أثناء نوم الذين تأثروا بتلك الحملات الملعونة، ثم يصحو أولئك الإعلاميون والصحفيون في الصباح لكي يشتموا الذين كانوا يتعرضون للقنص والاستهداف طيلة الليل؛ لأنهم يرفضون دعوات الحوار.

الشهادة كتبها من قلب ميدان التحرير الدكتور نبيل بهجت أستاذ المسرح بجامعة حلوان والكاتب والمخرج المسرحي ومؤسس فرقة ومضة، كما أنه الذي قام بجمع الأعمال الكاملة لشاعر الشعب بديع خيري والشاعر المصري العظيم يونس القاضي، ويقوم حاليًا بجمع الأعمال الكاملة لبيرم التونسي، هذا إذا كتب الله له النجاة من المذابح التي ترتكب كل يوم ويقوم الإعلام بالتعتيم عليها، وبرغم كل ما يمارسه الدكتور نبيل من أنشطة فنية وثقافية رفيعة فإنه في لحظة الحقيقة انحاز إلى شعبه، وأدرك أن الوجود في

ميدان التحرير دفاعًا عن مطالب الشعب المصري العادلة هو جوهر الثقافة والفن معًا، وأن المثقف التنويري ليس هو الذي يقبل أن يكون صاحب منصب يصعد به على جثث الشهداء، كما فعل الدكتور جابر عصفور، بل المثقف التنويري من ينشر البهجة في قلب الخوف، ويقاوم الهمجية بالفن.

يقول الدكتور نبيل بهجت في شهادته الخطيرة التي نتمنى أن نضمها قريبًا إلى وقائع التحقيق في المحكمة الجنائية الدولية:

«ما حدث يوم الخميس الثاني من فبراير عام ٢٠١١ ضد المصريين المتظاهرين سلميًّا في ميدان التحرير وسط القاهرة هو جريمة بشعة استندت إلى مخطط شيطاني، نقدم لكم هنا توثيقًا لها: في مساء الثلاثاء توقع البعض أن ينخفض عدد المتظاهرين في الميدان نسبيًّا بعد مسيرة المليون والتي وصل تعدادها إلى ما يزيد عن الخمسة ملايين تقريبًا، وبالفعل جاء الأربعاء لينخفض العدد ونفاجأ عند الصباح ببعض الأشخاص يقفون عند بوابات الدخول يهتفون لمبارك، ولقد شعرت بالأسى عندما تأملت وجوه مؤيديه وأشكالهم، وأدركت كيف سكب الماء على جبل من الرمل يُدعى تاريخه عندما استعان بهؤلاء المأجورين لكي يمثلوه. مر اليوم، وبدأنا نسمع في الثانية عن أنباء تجمع لبضع المئات عند ميدان عبد المنعم رياض. كنا في البداية نظنهم جاءوا للتظاهر والتشويش، ولكنهم بدأوا الاحتكاك بنا بالسباب، وتلا ذلك في تمام الثانية والنصف تقريبًا جلبة وأصوات قرع سياط وفوجئنا بالبلطجية فوق الخيول والجمال يحملون السنج والسياط والعصي، لتعود الهجانة التي كنا نراها في الأفلام وهي تضرب الناس بالسياط، نالني أحد سياطها، ولكن بعد فترة وجيزة سيطر الشباب على أحد هؤلاء وأخذوا منه حصانه فدب الخوف في قلوب رفاقه وتراجعوا، هكذا كان المشهد الأول من الاحتكاك المباشر. احتمى الشباب بعدها ببعض العربات واضطروا لكي يصنعوا من ألواح الصاج، التي كانت تستخدمها المقاولون العرب في موقع البناء، حائطًا متحركًا لصد هجوم بلطجية الرئيس الذين جاءونا مؤيدين بالسنج والجنازير والسياط والأسلحة البيضاء.

بعد هذه الهجمة تراجعوا وتجمعوا ليوحدوا صفوفهم وكأنها الحرب، وتشكلت لدينا الخطة سريعًا؛ فنحن عزل ولا بد لنا من دفاع عن النفس، وأوحوا إلينا بالسلاح عندما أخذوا يهاجموننا بالحجارة؛ إنها الحجارة، فلم يكن لنا بد لكي ندافع عن حياتنا سوى

استخدام بلاط الميدان وتكسيره إلى قطع صغيرة بعد تشكيل مجموعات عمل سريعة لتكسير البلاط وأخرى لحمله ودفعه للرماة، وفريق استطلاعي يرصد تحركات مجموعات مبارك، وأخرى توزعت على المنافذ السبعة للميدان على مستويين يفصل بين كل منهما قرابة ٣٠٠ متر، كل هذا حدث في أقل من لحظات، بدأ الشباب يتراصون في صفوف متتالية، يحضن بعضه البعض بصدور عارية، وكأنها قصيدة الكعكة الحجرية لأمل دنقل تتشكل أمامي واقعًا بيد الشباب المعتصمين. بدأ الوقت يمر علينا وزحف الظلام، فكانت الفكرة الأولى استدعاء الناس إلى الميدان، ولكن كيف وحظر التجول قد بدأ فرضه من الثالثة عصرًا وحتى الثامنة صباحًا، لم يكن لدينا خيار سوى الدعم المعنوي لبعضنا البعض فأخذنا نشيع عن وجود مظاهرات مؤيدة تزحف إلينا، وبالفعل حدثت مسيرة داخلية لتقنع المرابطين أن المدد وصل وارتفعت معنويات الناس، وبدأنا في وضع المتاريس لحماية أنفسنا منهم، فقد بدا عليهم احتراف الإجرام لما يحملونه من سنج وسيوف ومطاوي كانت في أيديهم ساعات الهجوم وهتفنا جميعًا: «... إتجنن».

كان الاشتباك الأول عند ساحة المتحف، وللأسف بدأ فعلًا بالإضرار بأطرافه التي تم إلقاء قنابل المولوتوف عليها، ذهبنا إلى الجيش لنناشده حماية المتحف من هؤلاء، فلم يستجب قائد الكتيبة التي كانت تقف عند المتحف في الوقت ذاته، وضع أحد الضباط في الكتيبة التي تقف في بداية شارع طلعت حرب المسدس في فمه وقال لمن يعلوه: «إذا لم تأمرني بحماية المتظاهرين سأقتل نفسي»، وكان الأمر، فبدأ الجيش حماية شوارع الجامعة الأمريكية وطلعت حرب والقصر العيني بشكل ساعد المتظاهرين على تخفيف الضغط عليهم. بدأنا ننتقل من شارع إلى آخر، وشاهدت بسالة لم أر لها نظيرًا؛ كان البعض يطرق على الحديد ليحدث أصواتًا كإشارات لتجمع الشباب عند منفذ معين، وكأنهم يوقظون الموتى من جديد، ينفخون فيهم الروح، يقولون ها نحن أبناؤك يا مصر، جئنا إليك نجدد ملحمة. وفي الوقت الذي كنا نعاني تحت الضغط ونبتكر الحيل لدفع البلطجية عنا، بعد أن أنهكنا التعب، كان هناك مذياع يذيع أحاديث الإذاعة الرسمية البالية عن دعاة الشغب، كان الإعلام الرسمي يقول بكل وقاحة إن الموضوع يتلخص في مجموعتين من البلطجية تتصارع على الميدان، وكان بعض المراسلين في البرامج الفضائية يضللون الرأي العام، ويزعم بعضهم أن بيننا إيرانيين وأفغان وباكستانيين، مع أنه لم يكن بيننا من أجانب إلا بعض مراسلي وكالات الأنباء الأجنبية! فمن أين جاءوا

بالحديث عن تلك الوجوه؟! قال الكثيرون في تلك الوسائل الإعلامية إننا إخوان، في الوقت الذي كنت أرى بعيني وسط المعتصمين مثقفين وفنانين وأساتذة جامعة أعرف مواقفهم ضد الإخوان، كل هذه الأكاذيب كانت محاولة منهم لتجييش الرأي العام العالمي ضدنا باستخدام «الإسلاموفوبيا» لتعطيهم أمريكا إشارة بسحقنا. وللأسف فإن برامج شهيرة وصحفًا كنا نظنها محترمة غيرت من لهجتها في دعم ثورة الشباب، وهو ما يجعلنا نتساءل: هل فعلًا تم تهديد ملاك تلك القنوات والصحف بفتح ملفاتهم فحدث ما حدث من تخاذل وانحياز؟

لقد وصفنا الإعلام الرسمي بالبلطجة، فهل عضو المجلس الأعلى للثقافة وعضو اتحاد الكتاب وعضو نقابة المهن التمثيلية والأستاذ الجامعي والمسرحي بلطجي؟! والطبيب الذي كان بجواري بلطجي؟! والشاعر الذي لم أره منذ سنوات وتقابلنا معًا ونحن ننحني لالتقاط الأحجار بلطجي؟! ومدير إحدى أهم شبكات المعلومات بلطجي؟! وأعضاء هيئة التدريس بلطجية؟! والمهندسون والأزهريون والقساوسة والمحامون والأطباء الذين جهزوا مراكز لإسعافنا بلطجية؟! وشباب الجامعات بلطجية؟! ولماذا صمتوا عن بلطجية الرئيس الذين استخدموا ضدنا أمس قنابل المولوتوف والقنابل المسيلة للدموع.. وفريقًا من الهجانة.. وأخيرًا الرصاص الحي؟! كان بلطجية الرئيس قد كسروا أبواب العمارات المغلقة المواجهة للمتحف المصري واستخدموها لإمطارنا بقنابل المولوتوف والحجارة، ولكننا كنا مصرين على الصمود والدفاع عن أنفسنا، وبعد فترة تمكَّنا من التقدم والقبض على البلطجية المتمركزين فوق العمارات، وتم احتجازهم دون إيذائهم، وسيطر المتظاهرون على كل المواقع التي استولى عليها بلطجية الرئيس من أسطح المنازل، واحتجزنا منهم ما يقرب من ١٥ فردًا، وكان مثبتًا في بطاقات هويات بعضهم أنهم رجال أمن، وأما الآخرون فكانوا من البلطجية معتادي الإجرام، حتى إنه كان واضحًا جدًّا أنهم قد تناولوا مواد مخدرة أثرت على وعيهم بشهادة بعض الأطباء الذين تواجدوا بالميدان، واعترف هؤلاء أنهم قد تم تأجيرهم من قِبل بعض نواب مجلس الشعب بوجبة غذائية وبمبالغ تتفاوت بين خمسين ومائتي جنيه. وقد أخذنا بعض الدراجات البخارية لهؤلاء فاعترف بعضهم على سيطرتهم على إحدى الدراجات البخارية التي تنتمي للحرس الجمهوري وعلى عربة شرطة.

بعدها اشتدت المَواجهات، واستطاع المتظاهرون تطهير ميدان التحرير من أعوان

مبارك، من أمناء الشرطة والمرتزقة، والسيطرة عليهم، وكنا إذا سيطرنا على أحدهم بعد نفاد ذخيرته تعلو الصيحات من بيننا: «ماحدش يضربه.. ثورتنا ثورة سلمية.. سلمية»، حتى بعد أن سقط منا البعض بالرصاص الحي الآتي من فوق الكوبري كان بعضنا يلتف حول من يقبض عليه منهم كسياج لحمايتهم من الغاضبين، ونتيجة لهذه الهجمات بالرصاص والمولوتوف وقع مئات الجرحى من المتظاهرين، ولم يعد المستشفى الميداني الذي أقيم في أحد المساجد القريبة كافيًا لاحتواء المرضى وعشرات الأطباء المتطوعين، فقام الأطباء بإقامة مستشفى ميداني في قلب مكان المواجهات بجوار المتحف المصري. وبعد ١٢ ساعة من المواجهات، فر الهاربون منهم فوقفوا على كوبري أكتوبر بمواجهة عبد المنعم رياض، وحوالي الساعة الثالثة صباحًا دوت أصوات عدة طلقات قبل أن تصيب العزل، فهرول المتظاهرون يحملون المصابين بالأعيرة النارية في الرأس والبطن والأقدام، وبعدها سمعنا طلقات نارية على أوقات متفرقة؛ إحداها طلقات متتالية ربما يكون مصدرها رشاش آلي، وفي تلك اللحظة توجه المتظاهرون لكتيبة الجيش التي كانت تتمركز عند المتحف، ولم تبدِ أي استعداد للتدخل عدا إطفاء بعض الحرائق التي كانت تشعلها قنابل المولوتوف التي كان يلقيها أنصار مبارك من أسطح الأبنية ومن كوبري أكتوبر، اتجه بعضنا إلى هذه الكتيبة وبدأوا بالتفاوض معهم ليطلقوا ولو طلقة واحدة في الهواء، وصرخ فيهم البعض أعطونا أسلحتكم نحميكم ونحمي أنفسنا، هنا تدخل الجيش بعدها وسيطر نسبيًّا على الموقف بعد أن أصابت طلقات مؤيدي مبارك حوالي ٢٢ فردًا سقط منهم قرابة ٦ شهداء، وظلت فلول منهم تحاول إنهاكنا بالإشارات البذيئة تارة، أو بقذف الحجارة تارة، وكنا نعلم أنها محاولة لإنهاكنا؛ فهم كما تأكدنا من هويات الذين قبضنا عليهم ليسوا سوى رجال أمنه الذين أخفاهم فجأة وعادوا إلينا في زي مؤيديه.

لقد سطَّر الشباب بدمائهم يوم الخميس يومًا بطوليًّا من بطولات هذا الشعب الذي حاول مبارك وأعوانه طمس ملامحه على مدار ٣٠ عامًا. كان الشاب يُجرح فيذهب إلى إحدى نقاط الإسعافات الأولية يداوي نفسه ويستريح دقائق يجفف دماءه ويعود بعدها للمواجهات، لم يخرج أحد منا دون جرح وكنا نسخر ونقول: «من غُرزة لعشرة ما تعتبرهوش مجروح». لم يؤثر في نفسنا إلا قتل بعض المتظاهرين بدم بارد عندما أطلقوا الرصاص الحي على صدورهم ورءوسهم. أخيرًا استقبلنا الفجر وكأنه زائر عزيز، وجاء نور الصباح ليملأنا أملًا بأن المتظاهرين سيأتون إلينا، وقد وفينا لهم ولمصر بوعدنا: أن

أعوان مبارك لن يأخذوا الميدان إلا على أجسادنا. بدأنا نراهم وكأنهم نبضات أمل تأتي إلينا؛ يحملون معهم طعامًا ودواء وكل ما نحتاجه. جاءوا ليستلموا مواقعنا وقد وفينا لهم بما وعدنا، ونشير إلى جروحنا في سخرية ويردد بعضنا: «هذا هو مفهوم مبارك للانتقال الآمن للسلطة»، ليجيء الصباح ومعه نداء واحد: «حاكموا الذين أطلقوا الرصاص على الأبرياء، ومَن أمرهم بذلك، ومَن سكت على ذلك».».

٥ فبراير ٢٠١١

وآدي كمان مبادرة!

معلهش، أنا لم أفهم يعني سر إصرار الرئيس مبارك على حكاية أنه لن يترك الرئاسة لأنه يريد أن يموت داخل مصر، لماذا لا يصدق سيادة الرئيس أن شعار «ارحل» الذي يرفعه الملايين كل يوم لا يعني بالضرورة رحيله الجسدي عن مصر، بل يعني رحيله عن احتلال موقع الرئاسة حقنًا لدماء المصريين وصونًا لحياتهم التي توقفت بفضل إصراره على البقاء في الحكم. لماذا يتصور الرئيس أن ملايين المتظاهرين أناس «حافضين مش فاهمين» يريدون بالضرورة أن يروه يقول لهم «أنا فهمتكم» ويتمنون له مصير الرئيس التونسي زين العابدين بن علي. صدقوني، نحن قطعًا ونحن هذه أعني بها على الأقل مئات الذين أعرفهم من المعتصمين والمتظاهرين في ميدان التحرير، نريد لسيادة الرئيس بعد عمر طويل أن يموت داخل مصر، ولكن كمواطن وليس كرئيس، نريده أن يتنبه إلى أنه بهذا العناد الغريب على البقاء في كرسي الرئاسة يهدد حياة مصر، ونرجوه أن يترك مقعد الرئاسة انتقاليًّا لنائبه عمر سليمان أو لأي مجلس رئاسي انتقالي، لكي تظل مصر آمنة مستقرة، ونتمكن جميعًا من الموت فيها بفعل الأمراض التي انتشرت طيلة عهده السعيد.

منذ أن بدأت كتابة مقالات الرأي عام ١٩٩٤ وحتى اليوم أفتخر أنني لم أكتب كلمة واحدة تمدح الرئيس مبارك، ليس لأن لديَّ «دكتوراه في العند»، لكن لأن هناك كثيرين كانوا يقومون بهذا الواجب ربما لأنهم كانوا يرون في عهده ما لم أره، ومع ذلك فأنا أقسم بالله العظيم إنني أتمنى للرئيس الصحة والعافية والحياة المستقرة، حتى ولو كانت أمورًا لم يحققها لملايين المصريين في ظل رئاسته. ويشهد الله أن كثيرًا ممن أراهم في ميدان التحرير يرفعون شعارات وصورًا تحمل انتقادات شخصية بعضها جارح للرئيس، عندما أناقشهم في ذلك أجدهم يروون مبررات شخصية وحياتية وموضوعية لتلك العدائية التي

يحملونها تجاهه، لكنني عندما كنت أسألهم: «طيب كمواطن هل ستنتهي مشكلتك مع الرئيس لو قرر أن يتنحى عن الحكم فورًا؟». أغلبهم كانوا يجيبونني: «طبعًا عشان مصر تعبت خلاص»، وهو المعنى الذي ترجمه بعبقرية صاحب اللافتة الشهيرة «ارحل بقه إيدي وجعتني». أعلم أن البعض لا زال يستبد به الحماس فيطالب بمحاكمة الرئيس، وهو ما يعتبره البعض أمرًا لا يليق بمقام الرئاسة، ومع أن الرئيس كان دائمًا يفتخر بأن مصر بها قضاء عادل بالتأكيد سينصفه إذا ما تعرض للمحاكمة، لكنني أعتقد أن طبيعة المصريين العاطفية لا يمكن أن تسمح بحدوث محاكمة مثل هذه وإن تمناها الكثيرون من ضحايا عهده.

أتفق مع صديقي الكبير جلال عامر عندما كتب أن «القوات المسلحة قد تقبل بالخروج الآمن للرئيس لكنها لن تقبل بالخروج المهين»، وأضيف على قوله: ومن قال إن هناك ثوريًّا نبيلًا يمكن أن يقبل بإهانة الرئيس؟ لكن ماذا نفعل إذا كان الرئيس ومن حوله يرفضون أصلًا تعبير الخروج الآمن، لأن الرئيس ليس خائفًا لكي يؤمنه أحد؟ وهكذا سنتبع منهج حاوريني يا كيكة في إيجاد توصيف مناسب لكلمة الخروج، فلا يخرج الرئيس حتى تخرج أرواحنا جميعًا إلى بارئها. لا أدعي أنني أمثل أحدًا، لكنني أعرف كثيرين مستعدين لو أعلن الرئيس عن تنحيه، أن يتحمسوا لعمل خروج تكريمي بمراسم مهيبة تعرض فيها كل الأوبريتات التي تم تأليفها في عهده، وينظم له استقبال شعبي حاشد لا تشارك فيه الجمال والخيول، بل يشارك فيه بتحضر كل المواطنين الذين يحبون الرئيس، وما أكثرهم في شعب عاطفي «آفته النسيان»، ليخرج الرئيس مرفوع الرأس، وتخرج مصر من هذا النفق المظلم الذي يفرض الرئيس عليها دخوله.

أقسم بالله إنني مستعد لحمل هذا الاقتراح إلى كل متظاهر في ميدان التحرير، وأنا على ثقة أن أغلب الهتافات والشعارات العدائية ستختفي فور علم الجميع بإعلان الرئيس لرحيله، وسيبدأ الجميع في اختيار ممثلين لهم للتحاور مع نائب الرئيس أو رئيس الوزراء حول بقية مطالبهم التي تم رفعها منذ اليوم الأول للثورة الشعبية، وسيكتشف الناس أن سر كل ما يعانون منه من أزمات وضيق في المعيشة وغياب للأمن ليس بسبب المتظاهرين في ميدان التحرير أبدًا، وإنما بسبب هذا العناد غير الآمن.

لا أدري، ألا يحب الرئيس أن يكون بيننا في مصر كأول رئيس سابق في تاريخ مصر،

وهو يرى كمواطن بني وطنه وهم يناقشون ويبلورون تفاصيل الإصلاح الدستوري الشامل، وإجراءات الإصلاح السياسي الكامل، وخارطة الطريق للوصول إلى حد عادل للأجور، وإعانة بطالة لكل عاطل، وإعادة تأهيل وتدريب جهاز الشرطة، والإصلاح الحقيقي والعاجل للتعليم، بدلًا من أن يسعد بجلوسه في قصر الرئاسة ليشاهد محطات التلفزيون الغربية تجلجل فضيحتنا في العالم حيث يذيع مراسلوها تقاريرهم الإخبارية بينما يكتب على الشاشة أنهم يذيعونها من مكان غير معلوم خوفًا على حياتهم، وتعلن المنظمات الدولية أننا تحولنا إلى بلد غير آمن للصحفيين بفضل مؤيدي سيادته من راكبي الجمال وحاملي السنج وراشقي المولوتوف وضاربي الطبنجات على الأبرياء؟

منذ أيام التقى الرئيس بمذيعة محطة «إي بي سي» الأمريكية التي فضل أن يحاورها بلطف ومودة كما قالت، بينما اختار أن يقف أمام شعبه غاضبًا متجهمًا، ولم أفهم كيف يقول تلفزيون سيادته للشعب إن الأمريكان صاروا أعداءنا فجأة بينما هو يتحاور معهم بكل هذا اللطف؟! لم أفهم كيف يلتقي بمحطة نشرت تقريرًا عن ثروته الضخمة بالتفاصيل والأرقام دون أن يحتج أحد في مصر على ذلك أو يطالب بالتكذيب؟! على أية حال ما يهمني أكثر في الحوار أمران: الأول هو إعلان المحطة الأمريكية أن السيد جمال مبارك كان حاضرًا الحوار، وبالتالي فإن ما قيل عن هروبه إلى لندن أمر غير صحيح، وهو أمر يُحمد له بالطبع ونتمنى ألا تكون أسرته قد سبقته إلى هناك كما قيل، لا أدري لماذا لم تسأل المذيعة «كريستيان أمانبور» الرئيس أمام ابنه عن قرارات إحالة أصدقاء ابنه من الوزراء إلى المحاسبة وتجميد أرصدتهم ومنعهم من السفر بعد أن تم فرضهم على البلاد لسنوات؟ وعما إذا كان ابنه ينبغي أن يُحاسب معهم وربما قبلهم بوصفه الذي أحضرهم إلى مواقع المسئولية ودعَّمهم وأعطاهم كل الصلاحيات ليصبحوا كما يقول التلفزيون المصري «ذات نفسه» سببًا للأزمة التي تشهدها البلاد؟ على الأقل لا زالت الأسئلة مطروحة ونرجو أن نسمع عنها إجابة قريبًا من سيادة الرئيس الذي يراهن رجاله على أنهم يحكمون شعبًا يحمل ذاكرة كذاكرة السمك، ستجعلهم ينسون في لمح البصر كل ما حظي به هؤلاء الذين يُحاسبون الآن من دعم الرئيس وابنه.

الأمر الثاني الذي توقفت عنده في حوار الرئيس مع «كريستيان أمانبور» هو قوله لها إنه يشعر بالرغبة في ترك الحكم بعد كل هذه السنين من الخدمة الوطنية، لكنه يخاف أن يتقاتل شعبه من بعده، وإنه قال لأوباما إنه لا يعرف طبيعة المصريين وما يمكن أن يحدث لهم

لو ترك الحكم، لم أفهم لماذا لم تسأله المذيعة الأمريكية: وهل سيادتك خالد لا تموت لكي تؤمن بلادك مما سيحدث بعدك؟ إذا كانت هي لم تقل ذلك وهي من أكثر مذيعات العالم جرأة فلن أقوله أنا، بل سأقول لسيادة الرئيس: أرجوك أعلن قرار تنحيك فورًا عن الحكم واترك منصبك لنائبك أو لأي مجلس انتقالي، وأقسم لك إنك ستندهش من أن الحياة في مصر لن تتوقف لحظة، تمامًا كما لم تتوقف عندما رحل الذين حكموها من قبلك، وستعرف حينها فقط حقيقة الذين خرجوا لتأييدك، وهل خرجوا طواعية ومحبة، أم خوفًا من المجهول ورغبة في مواصلة الحياة، أم لأسباب أخرى يعلمها رجال أعمال حزبك، وإذا اتضح أن كلامي خطأ وخرج ملايين المصريين لكي يتحدوا الحاكم الجديد ويطالبوا بعودتك إلى الحكم، أرجوك ارجع ساعتها فورًا إلى الحكم، ومستعد أن أحلف على المصحف لكي أضمن لك ذلك الرجوع «برقبتي يا ريس».

أليست هذه مبادرة أشد إقناعًا ونجاعة من كل مبادرات الحكماء، حتى ولو كانت صدرت من أحمق مثلي. ألا هل بادرت اللهم فاشهد.

٦ فبراير ٢٠١١

رامي مات عشانكو

اتضح أن الكفن ليس له جيوب؛ لأن لديه حسابات في بنوك سويسرا وأراضي وعقارات وشقق وبلاوي متلتلة لا يمكن لأي كفن مهما كانت متانة نسيجه أن يتحملها.

على مدى أيام متوالية ظلت ثورة يناير تتعرض لأشرس حملات التشويه والتحقير من قبل رموز إعلام العقيد أنس الفقي ورئيس انقطاع الأخبار عبد اللطيف الأمناوي وقناة الحزب الوطني المعروفة بقناة المحور، بالإضافة إلى عدد من البرامج التي كان مذيعوها يرتدون قناع الاستقلالية ثم لما تطلبت الأمور أن يحسموا مواقفهم اختاروا الانحياز لأولياء نعمتهم. هؤلاء جميعًا لم يتركوا كلمة نُشرت أو أذيعت في وسيلة إعلام أجنبية وبها تشويه لهذه الثورة أو تشويش عليها إلا وهللوا لها وكرروها بدل المرة ألف مرة، دون حتى أن يتحققوا من مصداقيتها أو يقوموا بتحليلها، لكنهم عندما نشرت صحيفة «الجارديان» البريطانية العريقة وصاحبة السمعة المهنية الناصعة تقريرًا بالأسماء والأرقام والعناوين عن ثروة الرئيس مبارك وأسرته لم ينبسوا ببنت شفة عنه، ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء إحضار أحد من رموز النظام لمناقشته وتفنيده وتكذيبه، وكأن تجاهل ذلك التقرير سيجعله سرًّا مدفونًا، كما حدث من قبل لتقارير أخرى نشرت صحيفة الدستور المغدورة أحدها فتعرضت لحملات تشويه عاصفة انتهت بقتلها على يد أحد رجال القصر الذي يتفاوض الآن باسم الثورة، مع أنه لا يجرؤ أن يسير وسط المتظاهرين في ميدان التحرير لكي لا يسمع ما لا يرضيه.

لي صديق أصبح معبأً بكم هائل من الأكاذيب الإعلامية التي تتحدث عن وجود أجندات خاصة لأنصار الثورة؛ بعضها إيراني وبعضها إسرائيلي والآخر أمريكي، جاءني شاكيًا ومحتارًا، فأريته كيف تخلصت من كل الأجندات التي كنت أمتلكها تحسبًا لأي

عمليات مداهمة أمنية، وعندما طلب مني أن أتوقف عن الهزار الماسخ وأناقشه فيما سمعه، قلت له جملة واحدة: «اذهب إلى التحرير وتحقق بنفسك». وذهب صديقي إلى التحرير بنفسه، ليفعل ما لم يفعله الإعلاميون الذين اكتفوا بالمراسلين المعتمدين من أمن الدولة، الذين يصطادون لهم على التليفون أصحاب الآراء المتشددة أو يحضرون لهم إلى الاستديو شبابًا يخضع لكشف هيئة أمنية قبل حضوره، (بدأ ذلك يتغير مؤخرًا بفضل ضغوط سياسية وشعبية بعد أن صارت فضيحة تلك البرامج بجلاجل)، عاد إليَّ صديقي منهارًا في البكاء وهو يقسم لي إنه قضى أجمل ساعات في عمره على أطهر أرض في مصر، أرض روتها دماء الشهداء الزكية، في الميدان غنى صديقي وصلى وهتف وتناقش وضحك وبكى وتقاسم اللقمة مع أناس لا يعرفهم ولمس روح مصر وتغير إلى الأبد، في الميدان شاهد صديقي أم الشهيد رامي جمال التي تعالت على أحزانها وجاءت إلى الميدان لتقول لزملاء ابنها وهي تغالب بكاء لم يقدروا هم على مغالبته: «يا ولاد شدوا حيلكو.. رامي مات عشانكو.. رامي ما كانش ليه في السياسة والله.. ده ما كانش بيعرف يشتري لنفسه بالعافية غير تيشيرت وبنطلون.. ده هو لما سمع إن المظاهرات هتطلع جاني وقالي يا ماما أنا لازم أطلع مع الناس دي.. أنا خلاص زهقت.. لا عارف أتجوز ولا عارف أعيش.. أنا حقي ضايع ولازم أجيبه».

لكن كثيرين من الذين مات رامي «علشانهم» للأسف يلعنونه كل يوم هو ورفاقه، فهم الذين «وقفوا حالهم وجوعوهم، هم شوية عيال سيس صايعة فاضية ما وراهاش حاجة، قلالات الأدب مش عاجبهم الرئيس الأب القائد الرمز»، وهي عبارات استمعت إليها وقرأتها في وسائل إعلامية عديدة، ولم أستغرب برغم أنني تألمت؛ لأنها ببساطة نتاج حملات إعلامية شرسة قادها ضباط أمن الدولة بأنفسهم بعد عودتهم المظفرة من الاختفاء، لم يفكر الذين قالوا ويقولون تلك العبارات في أن أولئك الثوار لم يكونوا قطّ وراء إصدار الأمر باختفاء قوات الشرطة من الميدان، لكي يهرب المساجين، وينطلق البلطجية، وتعم الفوضى، ويصدر قرار حظر التجول، وتغلق البنوك والمتاجر، وكل ذلك من أجل أن يفكر الملايين في مصالحهم الضيقة المشروعة وينسوا أن هؤلاء الأحرار خرجوا لكي يصنعوا لوطنهم أفقًا واسعًا رحبًا يمكن في ظله أن يعيش كل مصري بكرامة ورخاء وحرية إلى الأبد.

هؤلاء المخدوعون لم يقرأوا في «الجارديان» أن الرئيس الأب القائد الرمز الذي

تقول وسائل إعلامه إن هؤلاء الشباب خربوا البلد وضيعوا على مصر ثلاثة مليارات دولار حتى الآن، لديه ولدى أسرته، كما تقول «الجارديان»، ثروة قد تصل إلى ٧٠ مليار دولار، بل وتكشف لنا أن المصريين المقيمين في لندن ذهبوا ليتظاهروا أمام عمارة فاخرة يمكنك أن تشاهد صورتها لو أحببت في موقع صحيفة «الصن» وعنوانها ٢٨ ويلتون بالاس في بيلجرافيا وسط لندن، فضلًا عن تفاصيل أخرى لم أرد أن أنقلها لأنني خفت أن يكون هناك مبالغة بها، مع أنني أعلم أن صحيفة مثل «الجارديان» تمتلك معايير شديدة التدقيق فيما تنشره من تقارير، ولم أرغب في أن أشير إلى ما أذاعه تلفزيون «بلومبيرج» المتخصص في الشئون الاقتصادية عن نفس الموضوع، فضلًا عما نشرته محطة الـ«إي بي سي» الأمريكية التي استقبل الرئيس مراسلتها منذ أيام.

أعلم أنه سيخرج علينا كتاب الحراسة لكي يعقروا كل من يشير إلى هذه التقارير، زاعقين بأنها ليست سوى مؤامرة أمريكية إسرائيلية، على أساس أننا نحن الذين كنا نحمي مصالح أمريكا ونتحالف مع إسرائيل ونبيع لها الغاز برخص التراب، سينشرون البلبلة بين الناس ويقولون لهم لماذا لم يتم نشر هذه التقارير من قبل، مع أن أي متابع للصحافة الأجنبية يعلم أن هذه التقارير كانت تنشر، لكنها المرة الأولى التي تنشر بهذه التفاصيل الدقيقة؛ ربما لأن هناك جهات في مواقع القرار الغربية قررت أن ترفع يدها عن دعم النظام بعد أن اتضح أن مصالحها مهددة بفعل حالة الغضب الشعبي العارمة، وهو موقف سيظل يدين الغرب للأبد؛ لأنه يواصل دعم الأنظمة الفاسدة حتى لحظة انهيارها فيتذكر فجأة قيم الديمقراطية والإصلاح والعدالة، على أية حال السؤال الآن: لماذا يصمت النظام ويصمت الرئيس مبارك شخصيًّا على كل هذه التقارير؟ لماذا لا يخرج على المصريين لكي يكذبها رقمًا رقمًا؟ لماذا لا يمسك صورة العقار اللندني الفاخر ليقول للمصريين أنا لا أعرف شيئًا عنه؟ لماذا لا يصارح شعبه بحقيقة ثروته؟ ولماذا لا يشارك أبناءه المواطنين الفقراء في ثروته؟ هذا إذا سلمنا أن الرئيس أب لكل المصريين برغم كل ما في هذا المفهوم من مجافاة، ليس فقط لروح العصر، ولكن لقيم ثقافتنا العربية الإسلامية التي وقف فيها يومًا مواطن ليحاسب الخليفة معاوية على ثروته قائلًا له بصريح العبارة: «إنه ليس من كدك ولا كد أبيك»، ولم يعتقله معاوية أو يبعث إليه بلطجية لكي يطعنوه بالسنج، بل أجابه بكل هدوء ودهاء.

هل الرئيس مبارك يمتلك هو وأسرته كل هذه الثروات التي تتحدث عنها «الجارديان»

البريطانية، إذا لم يكن يمتلكها فلماذا لا يرفع فورًا دعوى قضائية على الصحيفة، ويطلب منها تعويضات ضخمة يخصصها لصالح أسر الشهداء الذين قتلهم رجاله بالرصاص الحي والمطاطي؟ أما إذا كان يمتلكها فعلًا فلماذا لا يقوم بدفع الخسائر التي خسرها الاقتصاد المصري من موقع مسئوليته كرئيس وأب لا يرضيه أن يمتلك شاب اسمه رامي كام تيشيرت وبنطلون ثم يُقتل غدرًا وهو يدافع عن حقه؟

تحيا مصر.

٧ فبراير ٢٠١١

لماذا يجب أن يتنحى الرئيس فورًا؟

إذا كنت مصابًا بضعف الذاكرة لأنك لا تكثر من أكل المكسرات، أو لم تكن مقيمًا معنا طيلة الثلاثين سنة الماضية، أو لأنك تحتاج لمن يذكرك لأن الذكرى تنفع المؤمنين، فدعني أنقل لك إجابة بديعة على هذا السؤال من خلال مقال أرسله إليّ الشاعر والروائي عمرو حسني صاحب الرواية البديعة «تنفس صناعي»، وقد كنت أتمنى أن أنشر صورته مع المقال لكنني تذكرت أن صديقي عمرو يشبه ممثلًا إيرانيًّا يظهر في أفلام عباس كياروستامي، والأدهى أن لديه سكسوكة في ذقنه، وبالتالي قررت ألا أمنح عساكر أنس الفقي فرصة لاستخدام صورته في تشويه الثورة، وأكتفي بنشر مقال عمرو حسني على أمل أن تعم الفائدة وتزول الغمة:

«أعرف أنني شاعر وقاص لا يجيد التنظيرات والتحليلات السياسية. كما أنني لا أريد أن أثقل عليكم بما ينتابني من مشاعر عاطفية غريبة، تجعلني أتمنى لو أنني تمكنت من العودة بالزمن لأقنع جدي لكي يختار اسمًا مختلفًا لأبي! لكنني سأدع العواطف جانبًا لكي أتمكن من التعامل بهدوء وعقلانية مع البعض ممن يطلقون دعوات للتسامح مع الرئيس ويقولون: لماذا لا يقبل الشباب بالتنازلات التي قدمها لهم؟ لِمَ لا يمنحونه بضعة أشهر قليلة؟ لماذا يصرون على تنحيته بتلك الطريقة المُهينة التي لا يقبلونها لآبائهم؟ ولماذا لا يعودون إلى منازلهم لكي يمنحوا عمر سليمان وأحمد شفيق فرصة للبدء في الإصلاحات التي أقر سيادته بها؟

وللرد على ذلك أقول: أولًا إن التنازلات التي قدمها الرئيس بالامتناع عن الترشيح والتوريث، وتعديل الدستور، والقبول بأحكام القضاء ببطلان عضوية كثير من نواب الحزب الحاكم بالمجالس التشريعية، والتخلي عن سياسة الزج برجال الأعمال لتسيير

شئون البلاد، وتغيير قيادات الحزب الوطني، هي بمثابة اعتراف منه بالجرائم التي ارتكبت في حقنا بمباركته طوال ثلاثة عقود، بدءًا من القمع والديكتاتورية وتزوير إرادة الشعب وصولًا إلى الفساد والنهب المنظم لثرواتنا. ولا أريد أن أقول إن المطالبة بالتسامح في هذه الحالة تُعد نوعًا من البلاهة؛ لأنه لا حق لأحد في التسامح في جرائم ارتكبت في حق الوطن. فالقاعدة القانونية البسيطة تقول: إنك لا تملك حق التسامح فيما لا تمتلكه بمفردك. ثانيًا إن العواطف الرقيقة والتسامح الأبوي لا مكان لهما في العقد الاجتماعي الذي يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين. وإذا افترضنا وجودهما جدلًا أو تجاوزًا، فأين اختفت مشاعر الأبوة تلك من قلب فخامة الرئيس «الأب» حين أصدر أمرًا مباشرًا لزبانيته باغتيال «أبنائه»، تارة بإطلاق الرصاص الحي لتفريق تظاهراتهم السلمية، وتارة أخرى بإطلاق البلطجية الذين يلقون بقنابل المولوتوف، ويستخدمون الأعيرة النارية لتصفية «أبنائه» المعارضين!

بعد كل ما سبق لا يسعني إلا أن أقول مخلصًا: إن رحيل مبارك ونظامه القديم أصبح ضرورة لا بديل عنها؛ لأن بناء دولة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية التي تمهد لقيام مصر الجديدة، لا يمكن أن تستخدم في بنائها ذات الأحجار التي شيدت بها دولة الدكتاتورية البوليسية القديمة، بل يجب علينا إزالة البناء القديم بأكمله أولًا، واقتلاع أساساته التي تختفي تحت الأرض، منذ عهد الاتحاد الاشتراكي وحزب مصر، وصولًا إلى الحزب الوطني، وذلك لكي يتسنى لنا الحلم بمستقبل أفضل، يتيح إقامة بناء لا يصبح عرضة للانهيار عند أول هزة أرضية تقوم بها عناصر الثورة المضادة. أما عن أولئك الذين يطلون علينا من آن لآخر على الشاشات ليقولوا لنا إن التظاهرات المليونية التي نقوم بها ليست كافية لإزاحة الرئيس عن كرسي الحكم، بدعوى أن بقية ملايين الشعب لم تقل كلمتها في ذلك الأمر! فلهم نقول: لماذا لم يخرج علينا مؤيدو مبارك بالملايين أو بمئات الآلاف كما خرج معارضوه؟ ما الذي منعهم؟ فبعدما اختفت أعمال البلطجة التي أطلقتها قوى الحزب الوطني ورجال الأعمال أتيحت الفرصة لجموع الشعب للتعبير عن رأيها في تظاهرات سلمية طوال يوم جمعة الرحيل، لم يشارك فيها مؤيدو بقاء الرئيس ومحبوه، سوى بآلاف هزيلة هنا أو هناك. لذا نقول لهم: ألا يعد ذلك تعبيرًا كافيًا عن مكانة نظامه الحقيقية في الشارع المصري؟ أوَ لم تكن نسبة المتظاهرين في القاهرة وحدها تقترب من خمسة آلاف مؤيد مقابل مليونين أو أكثر من الرافضين؟ أي أنها كانت نسبة «١ : ٤٠٠»

(مؤيد واحد مقابل أربعمائة رافض)! (ليسمح لي عمرو أن أضيف إلى إجابته نقطة أخرى هي أن الحزب الوطني المبارك ظل يحكمنا بأقلية من الناخبين في انتخابات مزورة مطعون في شرعيتها، وكان يقول إن الذي يتخلى عن حقه في المشاركة لا حق له فلماذا أصبح مهتمًّا الآن بفكرة الأعداد والأرقام).

في النهاية أقول للرئيس مبارك إن أمامه فرصة لكي يذكره التاريخ كقائد تنازل عن السلطة من أجل دخول بلاده إلى عصر الديمقراطية. كما أتوجه إلى شعبنا العظيم بألا يضيق ذرعًا بإصرار شبابه المخلص المدهش الذي يقف صامدًا في ميدان التحرير، لأنني حين أستمع إلى تلك الأصوات التي تطالبهم بالعودة إلى ديارهم، بدعوى أن أحوالنا الاقتصادية صارت لا تحتمل المزيد، أشعر بأننا صرنا قومًا لا يريدون الخير لأنفسهم وبلادهم، وأقول لأصحاب تلك الأصوات: استمروا أيها السادة في حياتكم اليومية بعيدًا عن ميدان التحرير. لا أحد يمنعكم. لا تكونوا عبئًا على أكتاف قوى التغيير التي تعمل من أجلكم ومن أجل أبنائكم. اذهبوا إلى أعمالكم ودعوا الطليعة الشبابية تقوم بدورها. فقط دعوني أذكركم أيها المتذمرون بالمثل المصري البديع الذي يقول: «وجع ساعة ولا وجع كل ساعة». واسمحوا لي أن أقول لكم أيضًا بأعلى صوتي: هذا واحد من أفضل الأجيال في تاريخ مصر الحديثة، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق، فاتركوه يحقق لبلادنا ما عجزت عن تحقيقه عشرت الأجيال الخائبة من قبلهم».

٨ فبراير ٢٠١١

بكى وائل وضحك الرئيس!

في شهر إبريل من عام ٢٠٠٩ دعت العديد من المجموعات الشبابية على موقع «الفيس بوك» إلى إضراب شامل في عموم البلاد لاستعادة ذكرى إضراب ستة إبريل في عام ٢٠٠٨ الذي كان برغم بساطته حدثًا صاعقًا في تاريخ البلاد، وبعد أن احتشد نظام مبارك بقضه وقضيضه وجلاديه وكذابيه لكي يفشل تلك الدعوة الشبابية الصادقة، خرجت كل الصحف والفضائيات الحكومية لتسخر من شباب «الفيس بوك» الذين باتت تصفهم اليوم بأنهم «شباب زي الورد»، بعد أن صدرت أوامر جديدة لأنفار الإعلام بسرعة امتصاص الغضب. في يوم ٨ إبريل ٢٠٠٩ نشرت في نفس هذه المساحة مقالًا كان يبدو يومها حالمًا ويائسًا في نفس الوقت، اليوم أعيد نشره وأهديه إلى كل من خطت قدماه على أرض مصر لتهتف حنجرته بإسقاط الرئيس أو ترفع يداه لافتة تطلب رحيله، أهديه إلى كل الصامدين في الشوارع والميادين من أجل حريتهم وكرامتهم ومستقبل عيالهم، أهديه إلى فخر الشباب المصري وائل غنيم الذي بكى وأبكى المصريين؛ لأنه يشعر بالأسى على دماء الشهداء التي أسالها «المِتَبِّت على الكرسي»، بينما في نفس اليوم ظهر الرئيس حسني مبارك مستقرًّا على كرسيه يضحك وسط رجال حكمه لكي يشعرنا بأننا جميعًا لا نعني شيئًا بالنسبة له، بكى وائل وخرج من الاستديو؛ لأنه شاهد صور شهداء لم يقتلهم، أما الرئيس الذي كان يجب أن يخرج من الحكم متحملًا المسئولية السياسية عن قتل هؤلاء فقد خرج علينا ضاحكًا، وكل الذي قدره عليه الله أن يعلن تشكيل لجنة تحقيق في الأحداث، الأحداث! هكذا قرر أن يصف المجزرة، كأن هؤلاء الأبرار الذين استشهدوا كانوا مجرد فراخ ذهبت ضحية لإنفلونزا الطيور، يظن الرئيس ورجاله أن كرامة مصر تنحصر في بقائه على منصبه. يظنون أن وجوده أغلى من دماء شبابنا، أهم من أحلامنا،

يظنون أنهم سيخلدون فيها للأبد، وأنهم سيفلتون من الحساب الدنيوي والأخروي. عندما شاهدت ضحكة الرئيس المتعالية التي لا تعبأ بدماء الشهداء ولا أحزان البسطاء، تذكرت هذه المقالة التي لم أكن أتنبأ ولو للحظة أن الواقع سيتجاوزها إلى ما هو أفضل وأجمل وأنبل، وقررت أن أعيد نشرها، لأجدد ثقتي بأن اليأس لم يعد له مكان اليوم بيننا؛ فالمنتصرون لا ييأسون وهم يرون أسوار القلعة تنهار أمامهم ببطء، وأنه ليس أمامنا سوى الصبر والصمود حتى تضحك مصر في النهاية عندما يرحل مبارك:

«من غير مزايدة ولا جعجعة ولا تشنج، ومن أعماق قلبي أقولها: مبروك لمصر نجاح إضراب ستة إبريل!

نعم نجح إضراب ستة إبريل، لأن الدنيا كلها لم تسمع عن إضراب فاشل تحشد أقدم دولة بوليسية في العالم من أجله كل ضباطها وجنودها ومخبريها الشرطيين والصحفيين والبرامجيين والجامعيين. وعلم الصحافة لم يشهد في تاريخه المديد إضرابًا فاشلًا يحتل مانشتات الصحف الحكومية الرئيسية؛ التي أظهرت على طريقة الدبة التي بطحت صاحبها، كم هو متهرئ ومذعور وبائس ذلك النظام الذي يهز طوله وعرضه لقمع من يطلق هو عليهم «شوية عيال»، وتاريخ مصر الذي لا يهتم به حكام مصر الآن المشغولون أكثر بالجغرافيا لأنها «تلزمهم أكتر في البيع» سيُسجل عليهم في صفحات عاره أنهم قرروا تعويض هزائمهم المتوالية في شتى المجالات بالانتصار بأقدام وبيادات بعض رجالهم المنتسبين إلى الرجولة زورًا على فتيات كفر الشيخ اللواتي صدقن دعوة السيدة سوزان مبارك إلى ضرورة المشاركة السياسية للمرأة.

قولوا لنا بالله عليكم متى شهدت الدنيا إضرابًا فاشلًا يتوفر له كل هذا القدر من المحللين والمنظرين والملغوصين والمهجصين الذين لم يخرج الواحد منهم في شبابه في مظاهرة ضد أي احتلال أو قمع إلا ليلتصق ببناتها أو شبانها؟! ولم يعلن أحدهم عن رأيه ولو حتى في صحيفة الوسيط، ولم يفعل شيئًا عليه القيمة وهو طالب سوى صم كتب التعليم وطرشها في ورقة الامتحانات، ثم عندما يحتل موقعًا ما، بفضل ربطه للحمار مطرح ما يعوز الحمار، وبركة تقارير الأمن التي تزكيه إما لأنه ماشي جنب الحيط وإما لأنه كان يتسلق على الحيط ليلحق بموعد تسليم التقارير في زملائه، إذ به يتحول «فجأتن» إلى قيادة طلابية مخضرمة لها باع في فك العمل الطلابي، ويتمترس في عموده الذي يدعو

القراء الله ليل نهار أن يوقع عليه، فيتخذ من ذلك العمود منصة إطلاق لروشتات الوطنية لشباب مستقل لم يكن يومًا بتاع حد، ثم يجري بالليل إلى استديوهات الفضائيات المكيفة لكي يتصبب قلقًا على البلد التي تهددها الفوضى وكأنها كانت، قبل إضراب ستة إبريل، وطن المنطق وأرض العدالة وبلد الاتساق مع النفس.

يا أيها المنتفشون بزهو انتصاركم المظفر على الأمل، وإحباطكم الحاسم لمجيء بُكرة، والله العظيم تلاتة لو كان فيكم رجل ذو فكر مبارك أو سياسة نظيفة أو عقل رشيد أو نهج حبيب أو منطق يبعث على السرور، لقبلتم رءوس وأيدي هؤلاء الشباب والفتيات ولأخذتموهم في أحضانكم وحاجيتم عليهم واستمعتم إليهم وتعلمتم منهم أو حتى على الأقل تحاورتم معهم، ولدعوتم كل شاب في مصر لأن يكون مثلهم، ولما تبطرتم على نعمة أن يرزق الله مصر بشباب زي الورد، لم يرفعوا المصاحف على أسنة إحباطهم، ولم يشهروا في وجوهكم تفسيراتهم المتطرفة للنصوص، ولم يتدوروا على بعضهم بعضًا بحثًا عن علامة الصليب التي تحدد طريقة المعاملة، ولم يتكتلوا خلف أسوار الكنيسة، ولم يهربوا إلى المخدرات تعاطيًا وتجارة وعشقًا، ولم يتركوا بلادهم لكم ويرموا أنفسهم في قوارب الهجرة غير الشرعية، ولم ينذروا أنفسهم لجروبات التفاهة والانحطاط على «الفيس بوك»، ولم يقضوا حياتهم في شتم البلاد التي باضت لآبائهم ذهبًا والشكوى من ناسها البيئة وأهلها العشوائيين وحالها اللي مش ولا بد، ولم يقرروا أن يطرمخوا على حقوقهم، أو يرتضوا أن يكونوا بلياتشوهات تمسك أوراقًا وتتحرك بالريموت كنترول في الزيارات المفاجئة التي لا تكف عن مفاجئتنا بمدى النفاق المتراكم فيها، ولم يديروا ظهورهم لألعابكم الممجوجة التي احتكرتموها منذ أكثر من خمسين عامًا وصرتم كباتنها وحكامها وجمهورها، ولم يحذوا حذو ملايين غيرهم قرروا أن يُسلِّكوا أمورهم بمعرفتهم في دهاليز البلد التحتية التي تزداد كل لحظة تشعبًا وخطورة واستعصاء على الشكم.

يا سادة، الغضب الذي أنتم فرحانون لأنه لم يتفجر بفضل الأثر الرجعي لقمع ستة إبريل اللي فات ستبكون يومًا ما ندمًا لأنه لم يتفجر في صورة اعتصامات سلمية وإضراب حضاري ومظاهرات تجأر بشكواها من فسادكم وظلمكم، فالتاريخ الذي كنتم تزوغون في حصصه يعلمنا أن الغضب عندما تغلق في وجهه الباب سيخرج لك يومًا من كل الشبابيك عنفًا وعدوانية وسطوًا مُسلحًا وتحرشًا جنسيًّا وفتنة طائفية ونهبًا للمال العام واستحلالًا للمُحرمات ويأسًا مسرطنًا لا يجدي معه الكيماوي ولا المسيل للدموع ولا الأمن المركزي

ولا الصحف «العضاضي» ولا العلاوات الفشنك ولا هتافات الفخر المنبعثة من أجهزة اللاسلكي «كله تمام سعادتك.. قبضنا على الغضب يا أفندم».».

كان هذا ما كتبته في إبريل ٢٠٠٩، واليوم عندما أمشي في جنة التحرير أدرك كم هي جميلة أحلام الشباب، وكم هي أجدى وأبقى من اليأس والإحباط والتشاؤم والتنظير والتقعير، فأهتف من أعماق قلبي: «تحيا مصر ويسقط نظام حسني مبارك».

٩ فبراير ٢٠١١

لا نريد فرعونًا جديدًا

يقولون تكلم حتى أراك، وقد تكلم اللواء عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية كثيرًا حتى قلنا ليته سكت، ليحتفظ بعضنا له بصورة رجل الدولة القدير الذي تنتظر منه مصر الكثير في فترة انتقالية تعقب رحيل مبارك.

إذا كان اللواء عمر سليمان يظن أن ثورة ٢٥ يناير قد قامت ضد شخص حسني مبارك فإنه يخطئ كثيرًا؛ لأنها تفجرت ضد نظام سياسي بأكمله يتعالى على المصريين ويتعامل معهم بوصفهم قاصرين لا يستحقون أن يتمتعوا بكل ما تتمتع به شعوب الأرض من حقوق وحريات، لذلك فهو لا يقدم للبلاد خيرًا عندما يرى أننا شعب غير مؤهل للديمقراطية؛ لأننا بنص تصريحه: «لم نتعلم بعد ثقافة الديمقراطية»، وهو تصريح يعيد البلاد كلها إلى نقطة ما تحت الصفر التي عاشت فيها ثلاثين سنة، بينما لو كان قد نزل إلى ميدان التحرير أو أرسل كاميرات أمينة تصور لها ما يجري هناك لأدرك أن المصريين شعب عظيم حقًّا؛ لأنه تمكن بدون عون من أي سلطة حاكمة أن ينشئ مجتمعًا ديمقراطيًّا يتعايش فيه مئات الآلاف سلميًّا كل يوم دون فتنة طائفية أو سرقة أو تحرش أو انفلات، ثم إذا كان هذا رأي عمر سليمان في المصريين فلماذا إذن يتبنى مشاريع إصلاح سياسي ودستوري من أجل شعب غير مؤهل للديمقراطية؟!

لا أدري كيف ستتحقق مصلحة مصر على يدي عمر سليمان في هذا الوقت الذي تلتهب فيه العواطف من هول الظلم والفساد والجبروت عندما يقول لـ«كريستيان أمانبور» مراسلة تلفزيون «إي بي سي» إنه يأمل أن يعترف من سماهم «الأشخاص الموجودين في ميدان التحرير» بأنهم لم يعملوا لمصلحة البلد، وعندما يصر على أنهم «مدعومون من أجانب»، وعلى أنه لم يقتل أحد برصاص بندقية أو قناصة، بينما لو طلب تقارير دقيقة

لجاءته شهادات من أهالي شهداء قتلوا برصاص خسيس في رءوسهم وصدورهم. لماذا يصر سيادة النائب على فكرة أن ثورة المصريين هي التي تدفع إلى الفوضى؟ بينما الجميع يعلم أن الفوضى خُلقت عمدًا لإحباط هذه الثورة، وأن الخطر الذي يتهدد مصر ليس ثورة المصريين وإصرارهم على نيل حقوقهم كاملة، بل هو عناد شخص واحد يقامر بمستقبل البلاد كلها.

في لقائه مع رؤساء تحرير الصحف المصرية قال سيادة النائب عن العالم المصري الدكتور أحمد زويل: «مع احترامي الشديد لهذا العالم، فإن الدكتور زويل بعيد جدًّا عن المجتمع المصري ولا يعلم كيف يتحرك، ولم يخرج من فندق ماريوت، وكل لقاءاته تتم في هذا الفندق، فكيف أعتمد عليه»، وبغض النظر عن لهجة التعالي الموجودة في حديثه عن عالم قدم لمصر أكثر مما قدمه كل رموز نظام مبارك، فإن السؤال يبقى: إذا كانت إقامة الدكتور زويل في أمريكا تبعده عن المجتمع المصري، وهذا غير صحيح بالمناسبة، فما الذي يبعدكم عن معرفة المجتمع المصري وأنتم لا تقيمون في فندق ماريوت؟! وهل يفترض أن يشعر الناس بالثقة عندما تقولون لهم إنكم كنتم تعلمون بثورة شباب «الفيس بوك» قبل قيامها بعام كامل وقيل لكم إنه سيشارك فيها مائة ألف شخص؟ هل هذا الكلام يفترض به أن يطمئن حتى الذين لا يتفقون مع هذه الثورة ومطالبها؟ ولماذا الإصرار على الخلط في أحاديثه بين النظام والدولة، في حين لم يقل أقل المتظاهرين وعيًا إنه يريد إسقاط الدولة، بل تحدث الجميع عن إسقاط نظام فاسد حكم أعظم دولة في التاريخ فصنع بها ما لم يصنعه أعدى أعدائها؟

يقول سيادة النائب في لقائه مع رؤساء تحرير الصحف: «كيف أنزل إلى ميدان التحرير ولا توجد قيادة أتحدث معها، لو نزلت وتحدثت مع أحد الأشخاص فسيقول آخرون بميدان التحرير لزملائهم أنتم خائنون». ولا أدري لماذا لم يقم بسؤال سيادة المشير محمد حسين طنطاوي وزير الدفاع عن المرتين اللتين نزل فيهما إلى ميدان التحرير والتقى بالمتظاهرين وعاملوه بكل الاحترام الذي يليق بالمؤسسة العسكرية فخر المصريين وحامية تراب الوطن؟! لا أدري هل شاهد سيادة النائب صورة اللواء حسن الرويني قائد المنطقة المركزية التي نشرت على صدر صحيفة الشرق الأوسط اللندنية منذ أيام وهو يقبل بأبوية حانية رأس أحد المتظاهرين الملتحين؛ وهي صورة تستحق أن تخلد في سجل التلاحم بين الجيش والشعب. لم يقم أحد في ميدان التحرير بتخوين

أحد، وإنما تضايق الكثيرون من المتظاهرين من أسلوب اختيار أفراد دون غيرهم بشكل غير ديمقراطي للحديث باسم ثورة شعبية ديمقراطية، وبالتأكيد كان الجميع سيسعدون لو رأوا نائب رئيس الجمهورية يأتي إليهم في ميدان التحرير ليستمع إليهم مباشرة دون تقارير تنقل إليه معلومات تتهمهم بأنهم مدعومون من أجانب ولديهم أجندات. مستعد أن أحلف على المصحف أن الجميع كانوا سيرحبون بعمر سليمان أجمل ترحيب لو جاء مبكرًا إلى التحرير، ولو اختار منهج الاحتواء بدلًا من أسلوب التهديد المبطن بأن «الدولة لن تتحمل المزيد من الاعتصام». وكان سيسمع بأذنيه أن كل مطالب المتظاهرين مرهون تحققها بمطلب واحد هو رحيل الشخص الذي أصبح رمزًا لنظام غير كفء وغير محترف واستنفد كل فرص التغيير والإصلاح، حتى إنه عندما جاءت لحظة الحقيقة لم يختر أن يواجهها، بل اختار أن يضحي بأناس هو الذي منحهم السلطة والمناصب وهو الذي ظل يساندهم حتى اللحظة الأخيرة.

كنت آمل أن ينحاز اللواء عمر سليمان إلى قيم الحداثة والعصرية، خصوصًا وهو الرجل الذي قضى سنوات على رأس مؤسسة تتعامل بأسلوب حديث وعصري، وتطور نفسها وأداءها يومًا بيوم، لذلك استغربت أن يصر في كل أحاديثه على فكرة الرئيس الأب الرمز، ويعتبر أن ثقافة المصريين ضد فكرة تنحية الرئيس، ويصر على تكرار تذكير المصريين ببطولة الرئيس في حرب أكتوبر، متناسيًا أن هذه البطولة وحدها هي التي منحت مبارك شرعية الحكم لأكثر من ربع قرن، فماذا فعل بها الرئيس؟ ولماذا لم يستخدمها في ترسيخ العدل والتقدم والكرامة بين المصريين؟ وفي أي شرع أو قانون يمكن أن تلغي بطولة الرئيس مسئوليته السياسية عن تردي أحوال البلاد وقتل المتظاهرين الأبرياء؟ ولماذا الإصرار على تجاهل أن ملايين المتظاهرين يريدون للرئيس أن يرحل عن منصبه لا عن وطنه؟ لا يريدون له حتى أن يتعرض لما تعرض له من قبله بطل من أبطال حرب أكتوبر هو الفريق سعد الدين الشاذلي الذي رحل عن وطنه لسنوات طويلة.

لا أدري لماذا ما زلت أحمل في داخلي اعتقادًا بأن رسالة الثورة قد وصلت إلى النائب عمر سليمان، وأن تصريحاته غير الموفقة تلك وراءها رغبة إنسانية في مساندة رئيس خدم معه سنين طويلة وارتبط به إنسانيًّا، وأن رجل مخابرات مثله لا يمكن أبدًا أن لا يكون قد عرف الحقيقة كاملة، بالطبع لن يكون لاعتقادي هذا أي معنى إذا استمر سيادة النائب في تلك السلسلة من التصريحات التي تعيد إنتاج ما عشناه طيلة الثلاثين عامًا الماضية. وفي

كل الأحوال أعتقد أن نائب رئيس الجمهورية سيجد نفسه هو وكل كبار قيادات السلطة في مصر مضطرين في الأيام القادمة للإجابة على سؤال مصيري وحاسم: «ولاؤنا لمن؟ للشعب المصري أم لشخص أيًّا كانت محبتهم له؟».

يا سيادة النائب: لم يعد المصريون شعبًا قاصرًا بحاجة إلى فرعون أيًّا كان، لقد التحقوا بركب العصر أخيرًا، ولن يستطيع أحد أن يعيدهم إلى الوراء ثانية أيًّا كانت التضحيات.

تحيا مصر.

١٠ فبراير ٢٠١١

قاطم الفرحة!

كنا نظن أننا سنعود من ميدان التحرير فرحين كما لم نفرح من قبل، لكننا عدنا إلى بيوتنا مُهانين، ولم يكن غريبًا أن نعود إلى بيوتنا مهانين في عهد مبارك، فقد تفنن مرارًا وتكرارًا بأخطائه وسياساته وقراراته وتصريحاته في إهانة المصريين، لكن الإهانة في تلك الليلة اكتسبت طعمًا مريرًا مضاعفًا، ربما لأن الناس شعروا أنهم تخلوا عن ذكائهم وصدقوا لساعات أن الله يمكن أن يقطع لهذا الحاكم عادة فيجعله يكمل فرحتهم بدلًا من قطمها كما تعود دائمًا وأبدًا.

لا أظن التاريخ قد عرف رئيسًا مثل مبارك، حظي بكم مهول من الفرص لختام مسيرته السياسية الرديئة ختامًا مشرفًا، لكنه أضاع كل الفرص، وقرر أن ينكد على شعبه «حتى آخر نفس»، وربما كان لله في ذلك حكمة. وسط زحام الغاضبين المحتشدين في التحرير وما حوله من شوارع حتى مطلع الفجر، رأيت رجلًا ريفيًّا في الخمسين من عمره، يرفع يده إلى السماء ويقول بفرح هستيري: «الحمد لله.. الحمد لله». ذهبت لأسأله عما يفرحه إلى هذا الحد لعلي أفرح وأرتاح أنا الآخر، فقال لي بصوت لن أنساه طيلة عمري: «طبعًا يا ابني.. إللي زي ده ما يستحقش يخرج مرفوع الرأس.. أنا كنت خايف لَيُخرج كده من سكات ويبقى بطل.. إنما ربنا لسه شايل له كتير». كل دهشتك من غضب الرجل وغله ستزول عندما يقول لك إن أسرة أخيه «راحت» غرقًا في عبارة الفساد ٩٨، ولو واصلت تجولك في الميدان وما حوله لاكتشفت أنه تحول إلى أكبر متحف مفتوح للظلم في العالم، ظلم سيظل يطارد مبارك ورجاله حتى يوم الحساب.

لا أدري من هو أذكى إخواته الذي كتب الخطاب الأخير لمبارك، لكنني أزعم أنني لو كانت قد أسندت كتابته إلى لجنة مكونة من إبراهيم عيسى وعبد الحليم قنديل

وعلاء الأسواني لما كانت تلك اللجنة مجتمعة قد نجحت في أن تثير مشاعر الكراهية والغضب والإحباط تجاه مبارك كما فعل الخطاب وكاتبه، عدت إلى البيت فأخذت أقلب في القنوات فلم أجد أحدًا، حتى ولو كان من المؤيدين له، وهو يعبر عن فرحة عارمة بالخطاب أو يبكي تأثرًا به أو يحلل بحماس معنى دفينًا يكمن بداخله، الكل خائف وقلق ومتوتر؛ لأن الكل أدرك أننا أمام رجل يتملكه الفهم الخاطئ للكبرياء، رجل يخوض معركته الأخيرة ضد شعبه من أجل إنقاذ نفسه فقط، رجل غرق في الأوهام حتى صارت الأوهام ذاكرته، يظن أن شعبه سيصدقه عندما يقف ليقول إنه لن يقبل إملاءات أجنبية من أحد، على أساس أن الشعب كان نائمًا طيلة الثلاثين عامًا ولا يعرف كل ما فعله لخدمة أمريكا وإسرائيل، وأننا لم نعرف قطّ بكفاح إسرائيل المستميت منذ اندلاع الثورة لإبقائه على كرسيه حفاظًا على مصالحها.

لا أدري كيف أقنعه كاتب الخطاب أن يقول جملة مثل «أغلبية المصريين يعرفون حسني مبارك، ويحز في نفسي ما ألاقيه من بعض بني وطني»؟! أقسم بالله إنني شعرت بالألم وأنا أستمع إلى تعليقات المئات على جملة كهذه وأنا أستمع إليه على قهوة في عابدين، شعرت بالألم؛ لأن مصر ابتليت بحاكم يأبى حتى اللحظة الأخيرة أن يواجه الحقيقة، ها هو يعترف بأنه يخطئ ولكن بعد فوات الأوان، ها هو يتذكر دماء الشهداء ولكن بعد أن تحولت إلى لعنة تطارده، وها هو في نفس الخطاب يقول جملته السابقة ليكشف أنه ليس مقتنعًا أصلًا باعتذاره ولا باعترافه، فهو لا زال يعتقد أن أغلبية المصريين تحبه وتعشقه، وأن هناك فقط قلة مندسة هي التي خرجت لتملأ شوارع مصر مطالبة بإسقاط نظامه، لا زال منشغلًا بما قاله الناس عنه، وليس مشغولًا بما فعله بهم.

لعلمك أنا في لحظات كهذه تظهر عليَّ سذاجة غريبة، فآخذ في سؤال نفسي ومن حولي أسئلة بلهاء من نوعية: «ماحدش من اللي حواليه بيفرجه على التلفزيون عشان يشوف اللي بيجرى في كل ميادين مصر.. ما بيخليهوش يقرا الجرايد.. ده حتى جرايد الحكومة بقت مع الناس وضده.. هو ما بيقراش التقارير الدولية اللي بتكشف إن مصر بقت في حالة يرثى لها في عهده؟». وأصدقائي يعرفون أن الحل الوحيد لإخراجي من حالة كهذه هي تذكيري بعدة أمثال شعبية لا يصلح جميعها للنشر، لكنها تنجح دائمًا في إيقاف أسئلتي الساذجة، وللأسف لا تنجح في إيقاف حزني على مصر التي لا يريد مبارك لها أن تعيش فرحة غير مقطومة.

الحمد لله على الفرحة، وإن كانت غير مكتملة، فها نحن قد أسقطنا الرئيس، وسنواصل ثورتنا السلمية البيضاء الراقية المتحضرة، ليس في ميدان التحرير وحده، بل في مصر كلها، حتى يكتمل إسقاط نظام مبارك فقط عندما نحاسبه هو ورموز عهده على جرائمهم في حق الشعب، وعندما يسترد المصريون أموالهم الموجودة في حساباته وحسابات رجاله، وأخيرًا عندما يحصل الشعب المصري على كل حقوقه المشروعة: دستور محترم يكفل تداول السلطة والفصل بين السلطات والسيادة للشعب، انتخابات نزيهة تحت إشراف قضائي ورقابة دولية، عدالة اجتماعية تكفل حدًّا أدنى عادلًا للأجور وتكافؤًا في الفرص بين كل المصريين، وقضاء مستقل عن السلطة التنفيذية، وجهاز شرطة مدني يستمد هيبته من سلطة القانون وليس من شخطة الضابط، وحريات كاملة غير منقوصة، وحياة سياسية سليمة تفرز حكومات منتخبة تدرك أن خلاص مصر ينحصر في إصلاح التعليم ونشر الثقافة.

تحيا مصر.

١٢ فبراير ٢٠١١

كوكتيل الرحيل!

لم أنتظر حتى يكمل اللواء عمر سليمان خطابه التاريخي الوحيد، ما إن سمعت كلمة «يتخلى» حتى جريت إلى البلكونة قبل أن أعرف تخلى عن إيه أصلًا، وأخذت أهتف: «الله أكبر.. تحيا مصر.. غار في داهية.. الله أكبر.. تحيا مصر»، رفع رجل كان يمر في الشارع رأسه نحوي بتشكك من لم يفارقه قرف الخطاب الأخير وسألني: «غار على فين؟»، وأنا وجدت أن السؤال غير مناسب، ولذلك واصلت هتافي الهستيري وأنا أحتضن زوجتي وكدنا نسقط معًا من البلكونة من شدة الفرحة، لكي نرحل معًا مع رحيل عهد مبارك، ونحقق أمنيتنا في أن نموت معًا في يوم واحد توفيرًا للأحزان والمصاريف.

ابنتي ذات الأربعة أعوام والنصف رفعت فجأة سقف مطالبها بعد رحيل مبارك، هي منذ بداية الثورة مقموعة ومبعدة عن التلفزيون الذي اختفى منه الكرتون وحلت الأخبار بالأمر، كانت كل يوم في الصباح وفور أن تصحو تنظر إليَّ كأنها مستغربة: «بابا إنت اتأخرت على المظاهرة.. ممكن تنزل عشان أتفرج على الكرتون». عندما رأت فرحتنا الجنونية قالت لي بثبات انفعالي لا يليق بطفلة: «مبارك مشي؟». قلت لها: «أيوه يا حبيبتي». سألتني بنفس الثبات: «اتسجن؟». مت من الضحك، وهي استغلت الفرصة وقالت لي: «طيب ممكن نجيب الكرتون بقه». ابنتي الكبرى ذات الثمانية أعوام كانت أعقل من أختها بحكم السن، كانت طيلة أيام الثورة تكتب منشورات بالقلم الرصاص مكونة من شعار وحيد «حسني يا خاربها.. ارحل يالله وسيبها»، ثم تقذفها من البلكونة إلى الشارع، ومع ذلك فقد قالت لي: «مبارك صعبان عليَّ يا بابا.. هيشتغل إيه دلوقتي؟»، وأنا لم أجد إجابة مناسبة.

في يوم من أيام ١٩٩٩ كنت مع أخي حمدي عبد الرحيم نستجم من وعثاء البهدلة

بحثًا عن لقمة العيش بعد أن شردنا مبارك وأغلق علينا صحيفة الدستور، سألني حمدي: «لو مات مبارك دلوقتي هتكتب عنه مقالة عنوانها إيه؟». قلت له: «هاكتب مقالة كلها على بعضها من كلمة واحدة: غار». أخذ حمدي نفسًا من سيجارته وقال لي بعد تفكير: «تفتكر الرقابة هتعديها؟». كنا أيامها نعمل في الصحف الصادرة بتراخيص أجنبية والتي تخضع للرقابة في أزهى عصور الحريات، وبعد مداولات عديدة حول مدى أخلاقية هذا العنوان وملاءمته للمعايير الإنسانية انفضت الندوة بتوصية واحدة هو أن هذا الرجل لن يموت إلا بعد أن يقضي علينا نحن أولًا.

شوف يا أخي كرم ربنا، ها هو مبارك يرحل حيًا ورغمًا عنه عن كرسي الحكم، لكي يتيح لي أن أقولها بملء الفم: «غار». نعم لقد غار، وغارت معه كل الأوهام التي ساهمت طريقته في الحكم والتفكير والحياة في إشاعتها عن هذا الشعب العظيم: شعب طائفي همه على بطنه ما منوش فايدة لا يهش ولا ينش خانع فوضوي وبق على الفاضي. غار وأخذ معه ركوده ورتابته وملله الذي جعل المعاني كلها تنتحر. غار فصرت أنا الذي كنت أرى علمنا القديم أجمل، أعشق هذا العلم إلى حد الجنون، وأبكي كلما حملته أو رأيت طفلًا يلوح به، أنا الذي كنت أبكي مع أصدقائي كلما سمعنا «حلوة بلادي السمرا بلادي الحرة»، ونخشى أن يتهمنا أحد بالهطل، أصبحنا نبكي كل يوم في ميدان التحرير ونحن نغنيها مع الآلاف؛ ونحن فرحون؛ لأننا نبكي كالرجال فرحًا بوطن حررناه بأيدينا، لم نستعد وطننا وحده، بل كل الأشياء استعادت معانيها: ألوان العلم وكلمات الأغاني الوطنية والعاطفية والميم والصاد والراء والكتب والأشعار والبلاغة والنكتة والدموع والحرية والكلام الكبير والمبالغات الدرامية والتاريخ والسياسة والفلسفة، كل شيء عاد كما خلقه الله، كأنه خلقه أمام أعيننا، كأن مصر خرجت من رحم المجهول ثانية وتلقيناها على أيادينا، صارت الأم العظيمة ابنة لنا، وبات علينا أن نحياها بجد قبل أن نموت وتحيا هي إلى الأبد.

مشاهد كثيرة تتداخل في ذاكرتي وأنا أكتب كوكتيل الرحيل هذا، أوضحها وأكثرها إلحاحًا مشهد لا يفارقني منذ جمعة الشهداء العظيمة، لرجل مصري أحسبه كريم العنصرين، قدم مع مظاهرة إمبابة العظيمة التي سأموت ناقص عمر لو لم أخلدها في فيلم ملحمي سيكون أهم فيلم كوميدي عن الثورة في تاريخ السينما، كان يرتدي ترينج سوت كرنبي، ويمسك بصلة يشمها ثم يقول لصاحبه الذي كان يدلدق علينا الخل من زجاجة في

يده لكي نفيق قليلًا من أثر الغازات المسيلة للدموع التي كادت تقتلنا خنقًا عند كوبري الجلاء: «إللي زي ده مالوش جدة.. ده ما يروحش جدة أبدًا.. ده بعد ما نخلعه ييجي يقعد في لِعبة». نظر إليه شاب روش مندهشًا وسأله من خلف الكمامة: «لِعبة إيه؟.. ده لازم يتحاكم». قال حمدي عبد الرحيم للرجل لكي يقرب الفوارق الدلالية بينهما: «معلهش اعذره أصله من بتوع الفيس بوك». تفهم الرجل موقف الشاب وأخذ شمة عميقة من البصلة ثم قال: «لِعبة دي في بشتيل بعيد عنك يا باشمهندس.. أنا عايزه بقه بعد ما يتخلع نجيبه هو وعياله يقعد معانا هناك.. يعيش في شقة تلاتين متر حمامها متر في متر.. وياكل عيش من اللي بنطفحه.. وينزل هو وعياله يملوا ميه كل يوم من الحنفية.. عشان يعرف كنا عايشين ازاي.. إللي زي ده مالوش جدة أبدًا». جريت على صديقنا الإمبابي وأخذته بالحضن وقلت له: «والله لاكتبها.. والله لاكتبها». نظر إليَّ وظن بي السوء، وبعد أن تحقق من هويتي قال لي: «مش كده برضه والنبي يا باشا؟».

تحيا مصر.

١٣ فبراير ٢٠١١

كان يقينًا بالله

بدأت كتابة هذه الاصطباحة اليومية في هذه الصحيفة بتاريخ ١ نوفمبر ٢٠٠٨، وكان هذا هو نص اصطباحتي الأولى:

«على وجه مصر سحابة سوداء خنقت البلاد وكبست على نَفَس العباد!

أناس من أولاد الحلال يقولون إنها طالت واستحكمت حلقاتها، لم تستمر سحابة سوداء في العالم مدة ٢٧ سنة. بينما يرى غيرهم أن «أكتر من كده وربك بيزيح». آخرون يرون الأمل كالكذب خيبة، لكنهم يضيفون من باب الدقة أن عمر تلك السحابة اللعينة هو ٣١ سنة، كل سنة أسخم من التي قبلها وأرحم من التي تليها. بينما يحلف آخرون أكثر يأسًا على المصحف والإنجيل أن تلك السحابة بلغت من العمر ٥٦ سنة، وهي بذلك لديهم تجاوزت السن التاريخي للانقشاع وصارت قدرًا لا فِكاك منه.

لكلٍّ وجهة هو موليها. أما أنا فأقسم لكم بحياة هذا الصباح الشريف، وحياة النعمة التي يحفى الفقير ليطولها، وحياة بحر إسكندرية الذي ما تمنيت قدامه أمنية وخذلني، وحياة الأمهات اللواتي ما فوتن صلاة الفجر يومًا على أمل أن يحضرن ساعة توزيع الأرزاق دون أن ييأسن أبدًا من تأخر وصول الأرزاق، وحياة قصص الحب التي لم تنهزم على كوبري قصر النيل أو في نفق الزواج، وحياة خيال الأطفال وواقعية الآباء الذين لم تكسر قلة الحاجة هيبتهم، وحياة الزرع الأخضر الذي يرفض التطبيع مع المبيدات، وحياة دوشة ماكينات الطعمية وهدير ماكينات غزل المحلة بعد إضراب ناجح، وحياة روائح الطبيخ وهي بتشغي في المناور التي لم تهزمها قماءة المواسير، وحياة شاي العصاري في البلكونات النضيفة التي لم تبهدلها الكراكيب، وحياة صالات البيوت التي لم تخنقها

الكآبة، وحياة نوادي الفيديو التي تعايشت مع زحف السيديهات واستمرت في إسعاد المخنوقين، وحياة العيش البلدي المحمص إن استطعت إليه سبيلًا، وحياة القهاوي الزحمة والأتوبيسات الرايقة في المواقف والمواقف المحترمة المكتوبة بروقان، وحياة غُنا منير، وصوت أنغام، ومزيكة عمار الشريعي، وأفلام وحيد حامد، ومسلسلات أسامة أنور عكاشة، وشعر الأبنودي، وتشخيص الفخراني، وقصص محمد المخزنجي، ونقاء محمد السيد سعيد، وسِحر أحمد خالد توفيق، وسخرية جلال عامر، وسِمَّانة أبو تريكة، وعقل هيكل، وحس علاء الديب في الدنيا، وحياة عيال وبنات ساقية الصاوي، وستة إبريل، وكفاية، ورسالة، وزاد، وفاتحة خير، وجروبات «الفيس بوك» الذين قد لا يحبون بعضهم البعض مع إنهم كلهم على بعضهم يتحبوا لأن شكلهم يفرح حتى لو كان بعض كلامهم يضايق، وحياة المنفيين في الأقاليم الذين ينتظرون أن يحل فرج الله على العاصمة، وحياة السكان الأصليين لمصر الذين يفضلون الغرق في بلادهم على الغرق خارجها.

بلاش يا سيدي، وحياة ربنا المعبود الذي يحب الصابرين، إذا صبروا، أقسم لكم إن هذه السحابة السوداء التي كبست على نَفَس مصر ستغور، وإنه سيطلع علينا صباح لن نرى فيه هذه الوجوه الكريهة التي كانت تكذب أكثر مما تتنفس فصارت تكذب ولا تتنفس، وإن مصر ستُرزق بصباح تستحقه، وساسة على قد مقامها، وأيام يمكن احتمالها، وأكاذيب يمكن بلعها، وفساد يمكن التعايش معه، وتخلف له أول من آخر، وإنه سيأتي على مصر صباح يفوق فيه المصري لنفسه، ويتكسف على نفسه عندما يرى كيف أصبح حاله، ويقرر ألا ينازع الخالق في حكمه على البشر، ويتفرغ لدوره الذي نسيه كمخلوق، صباح يُصبح فيه ضرب مواطن فقير على قفاه ألعن من الخيانة العظمى، صباح يعيش فيه المصريون إما فقراء على القد دون أن يفقدوا الكرامة والستر، وإما أغنياء على راحتهم دون أن يفقدوا الإحساس والضمير.

سيأتي هذا الصباح، أنا أضمن لكم ذلك برقبتي، وأنا رقبتي أكبر من أي سدادة تتخيلونها. لكنني للأمانة ولكي لا أخدعكم لا أضمن لكم متى سيأتي، ولا إذا أتى متى يمكن أن ينتهي فتداهمنا سحابة سوداء من جديد، أنتم تضمنون ذلك بأنفسكم ولأنفسكم، أما أنا فأعرف فقط أن ذلك الصباح سيأتي حتمًا ولزمًا، ومصر إذا شمت هواءه النضيف لن تفرط فيه أبدًا.

ربنا كريم ومصر تستاهل».

لم تكن تلك الاصطباحة نبوءة، بل كانت يقينًا بالله، وأحمد الله أن يقيني بالله وقاني من اليأس وعصمني من الإحباط، وأشكر فضله لأنني عشت اللحظة التي انزاحت فيها سحابة مبارك السوداء من على وجه مصر، وأشعر بالفخر لأنني فعلت بعض ما عليَّ من أجل إزاحة تلك السحابة، لقد كانت تلك الاصطباحة أول ما كتبته في هذه الزاوية اليومية، وأشعر أنها تستحق أن تكون آخر ما أكتبه فيها، لكي أبدأ يومًا ما كتابة جديدة لا تلتزم بالتواجد اليومي، ولا تنشغل بالتعليق على الأحداث، أعلم أن قراري سيغضب الكثيرين ممن أحبوني وساندوني، لكنني أؤمن بأن ثورة الخامس والعشرين من يناير يجب أن تكون ثورة على كل ما سبقها، ثورة حتى على طرق الكتابة التي كانت سائدة قبلها، مهما كانت تلك الكتابة جميلة أو نبيلة. عن نفسي سأتوقف بعض الوقت لأبحث عن طريق جديد وكتابة جديدة في هذه الصحيفة، لم أحدد بعد ما ينبغي أن أفعله، لكنني أحمل بداخلي أفكارًا كثيرة أريد صياغتها فنًّا وأدبًا، فقط لكي لا تضيع الشحنة التي فجرتها بداخلي هذه الثورة المجيدة التي أعادت ولادتي من جديد. دعوني أصارحكم وأنتم لستم غرباء أنني أشعر بحاجة ملحة إلى برنامج تلفزيوني ثقافي يومي أشعر أن مصر تحتاجه الآن وبشدة، وأدعو كل من يرغب من مثقفي مصر وفنانيها إلى أن نتكاتف معًا من أجل تحقيق هذا البرنامج الآن وفورًا.

حتى لو كانت هذه الاصطباحة ضاغطة على أعصابك لكنني لا أريد لها أن تنتهي بدون أن أرجو الأساتذة الكرام الدكتور حسن نافعة والأستاذة فاطمة ناعوت والأستاذ سمير فريد أن يقبلوا خالص اعتذاري إذا كنت قد أسأت إليهم بما كتبته يومًا ما، ولعل ما يشفع لي أنني كنت أنطلق فيما كتبته من حسن نية لا من سوء طوية، للعلم ليس إلا كنت قد اعتذرت للأستاذ سمير فريد في اصطباحة سابقة، وأعلنت محبتي وتقديري للعديد من كتابات الأستاذة فاطمة ناعوت في رسائل تليفونية، وقبلت رأس الدكتور حسن نافعة في مظاهرة جمعة الشهداء أسفل كوبري الدقي ونحن نغالب معًا الاختناق من قنابل مبارك المسيلة للدموع والمحفزة على الثورة. قد أكون أسأت إلى آخرين لكنني لا أجد نفسي راغبًا في الاعتذار لهم؛ لأنني مقتنع بكل ما كتبته عنهم حتى هذه اللحظة. أشكر من كل قلبي رئيس تحرير هذه الصحيفة الأستاذ مجدي الجلاد الذي تحمل العديد من المشاكل بسبب ما كنت أكتبه، وهي مشاكل ربما ستقرأ تفاصيلها في اليوم الذي يقرر أن يكتب فيه مذكراته

عن أزهى عصور الحريات. شكرًا للمشرف الفني المبدع الدكتور أحمد محمود وكل فريق سكرتارية التحرير الذين تحملوا عناء توزيع بقية عمودي على صفحات الصحيفة. شكرًا لكل القراء الذين راسلوني بانتظام وعلقوا على ما كتبته وتحمَّلوا حدتي في الرد عليهم حينًا وتجاهلي لهم أحيانًا، وهو تجاهل لم يكن وراءه والله إلا ضيق الوقت الذي يعلمه كل من تحمل عبء الكتابة اليومية.

شكرًا لشباب مصر الذين جعلوني أشعر في شوارع الثورة أن كلماتي كان لها جدوى، شكرًا لهم لأنهم في يوم النصر المبين جعلوني أشعر بمشاعر عصية على الكتابة مات الكثير من أساتذتي دون أن يعيشوها. شكرًا لكل الذين شاركوني في ميدان التحرير قراءة الفاتحة على أرواح كل أساتذتي الذين تمنيت أن يشهدوا تلك اللحظات الخالدة في عمر مصر. شكرًا لصاحب الفضل الأول عليَّ الأستاذ إبراهيم عيسى الذي أخرجني من الظلمات إلى النور. شكرًا لكل أساتذتي الذين تعلمت من أخطائهم وأصررت على تكرار بعضها. شكرًا لكل أصدقائي الذين كادت محبتهم أن تفسدني. شكرًا لابنتيّ إيمي وعشق اللتين كنت أكتب من أجل أن يعيشا في وطن أفضل. وأخيرًا شكرًا لزوجتي الحبيبة التي كانت أول شيء تمنيته من الله عز وجل، أما الأمنية الثانية فقد كانت أن أرى رئيسًا سابقًا لمصر، والحمد لله لم يبقَ لديَّ الكثير من الأماني، حوالي ٩٧ أمنية فقط، فأنا طماع وربنا كريم.

تحيا مصر.

١٤ فبراير ٢٠١١

لم أنتظر حتى يكمل اللواء عمر سليمان خطابه التاريخي الوحيد، ما إن سمعت كلمة «يتخلى» حتى جريت إلى البلكونة قبل أن أعرف تخلى عن إيه أصلًا، وأخذت أهتف: «الله أكبر.. تحيا مصر.. غار في داهية.. الله أكبر.. تحيا مصر»، رفع رجل كان يمر في الشارع رأسه نحوي بتشكك من لم يفارقه قرف الخطاب الأخير وسألني: «غار على فين؟»، وأنا وجدت أن السؤال غير مناسب، ولذلك واصلت هتافي الهستيري وأنا أحتضن زوجتي وكدنا نسقط معًا من البلكونة من شدة الفرحة، لكي نرحل معًا مع رحيل عهد مبارك، ونحقق أمنيتنا في أن نموت معًا في يوم واحد توفيرًا للأحزان والمصاريف.

بلال فضل

١٣ فبراير ٢٠١١







دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING



تصميم: طارق الدبسي | صورة الغلاف: أف ب

www.bqfp.com.qa